سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الطَّبَرِيِّ

اخْتَصَرَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

أَحْمَدُ بْنُ طَلِيلِ أَبُو الْفِيتَة

أَبُو حَمْزَةَ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَهَذَا مُخْتَصَرٌ مُفِيدٌ – إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى – مِنْ تَفْسِيرِ الْإِمَامِ الْكَبِيرِ مُحَمَّدِ ابْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ[١] الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣١٠هـ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً –.

وَلَقَدْ حَرَصْتُ – كُلَّ الْحِرْصِ فِي هَذَا الْمُخْتَصَرِ – عَلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى نَصِّ كَلَامِ الطَّبَرِيِّ بِحُرُوفِهِ: بِدُونِ زِيَادَةٍ، وَلَا تَبْدِيلٍ؛ بِحَيْثُ يَسْتَطِيعُ الْقَارِئُ أَنْ يَقْتَبِسَ مِنْهُ وَيَسْتَشْهِدَ بِهِ مَعْزُوًّا إِلَى أَصْلِهِ الْأَوَّلِ!.

تَنْبِيهَاتٌ تَتَعَلَّقُ بِالتَّعْلِيقَاتِ الْمَبْثُوثَةِ فِي حَوَاشِي الْكِتَابِ:

الْأَوَّلُ: التَّعْلِيقَاتُ الْمَبْدُوءَةُ بـ(قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ)؛ فَهِيَ لِلْإِمَامِ الطَّبَرِيِّ – رَحِمَهُ اللهُ –، مُلْتَقَطَةٌ مِنْ تَفْسِيرِهِ.

الثَّانِي: وَالتَّعْلِيقَاتُ الْمَبْدُوءَةُ بـ(قَالَ أَبُو حَمْزَةَ) أَوْ كَانَتْ غُفْلًا؛ فَهِيَ – فِي الْغَالِبِ – لِكَاتِبِ هَذِهِ السُّطُورِ!

الثَّالِثُ: وَبَاقِي التَّعْلِيقَاتِ مَبْدُوءَةٌ بِأَسْمَاءِ أَصْحَابِهَا.

وَاللهَ أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَكَتَبَ:

أَحْمَدُ بْنُ طَلِبَ أَبُو النَّبِيتِ - أَبُو حَمْزَةَ

٢٣ من ذي الحجة ١٤٣٧هـ

---

[١] انظر ترجمة شيخ المفسرين في سير أعلام النبلاء؛ للذهبي.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ (آلِ عِمْرَانَ) مَدَنِيَّةٌ وَآيَاتُهَا مِائَتَانِ

١- ﴿الم﴾قَدْ أَتَيْنَا عَلَى الْبَيَانِ عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿الم﴾فِيمَا مَضَى، بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.[٢]

٢- ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ[٣]﴾الله – جَلَّ وَعَزَّ – أَخْبَرَ عِبَادَهُ أَنَّ الْأُلُوهِيَّةَ خَاصَّةٌ بِهِ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَنْدَادِ، وَأَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَصْلُحُ وَلَا تَجُوزُ إِلَّا لَهُ؛ لِانْفِرَادِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوَحُّدِهِ بِالْأُلُوهِيَّةِ، وَأَنَّ كُلَّ مَا دُونَهُ فَمِلْكُهُ، وَأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ فَخَلْقُهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي سُلْطَانِهِ وَمُلْكِهِ!. احْتِجَاجًا مِنْهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عَلَيْهِمْ بِأَنَّ ذَلِكَ إِذْ كَانَ كَذَلِكَ؛ فَغَيْرُ جَائِزَةٍ لَهُمْ عِبَادَةُ غَيْرِهِ، وَلَا إِشْرَاكُ أَحَدٍ مَعَهُ فِي سُلْطَانِهِ، إِذْ كَانَ كُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ فَمِلْكُهُ، وَكُلُّ مُعَظَّمٍ غَيْرُهُ فَخَلْقُهُ، وَعَلَى الْمَمْلُوكِ إِفْرَادُ الطَّاعَةِ لِمَالِكِهِ، وَصَرْفُ خِدْمَتِهِ إِلَى مَوْلَاهُ وَرَازِقِه!.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾: اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿الْحَيُّ﴾ وَمَعْنَى ذَلِكَ عِنْدِي: أَنَّهُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ الَّتِي لَا فَنَاءَ لَهَا وَلَا انْقِطَاعَ، وَنَفَى عَنْهَا مَا هُوَ حَالٌّ بِكُلِّ ذِي حَيَاةٍ مِنْ خَلْقِهِ، مِنَ الْفَنَاءِ وَانْقِطَاعِ الْحَيَاةِ عِنْدَ مَجِيءِ أَجَلِهِ.

فَأَخْبَرَ عِبَادَهُ أَنَّهُ الْمُسْتَوْجِبُ عَلَى خَلْقِهِ الْعِبَادَةَ وَالْأُلُوهَةَ، وَالْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَلَا يَبِيدُ، كَمَا يَمُوتُ كُلُّ مَنِ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ رَبًّا، وَيَبِيدُ كُلُّ مَنِ ادَّعَى مِنْ دُونِهِ إِلَهًا. وَاحْتَجَّ عَلَى خَلْقِهِ بِأَنَّ مَنْ كَانَ يَبِيدُ فَيَزُولُ وَيَمُوتُ فَيَفْنَى، فَلَا يَكُونُ إِلَهًا يَسْتَوْجِبُ أَنْ يُعْبَدَ دُونَ الْإِلَهِ الَّذِي لَا يَبِيدُ وَلَا يَمُوتُ، وَأَنَّ الْإِلَهَ هُوَ الدَّائِمُ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَلَا يَبِيدُ وَلَا يَفْنَى؛ وَذَلِكَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ!.

---

[٢] انظر الآية رقم(١)من سورة البقرة.

[٣] عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ، أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾**[البقرة: ١٦٣]، **وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿الم اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾**[آل عمران: ٢]» [حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، والدارمي في سننه، والبيهقي في الشعب، والطبراني في الكبير؛ وحسنه الألباني في صحيح الجامع(٩٨٠)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٦٤٢)].

﴿الْقَيُّومُ﴾: الْقَيِّمُ بِحِفْظِ كُلِّ شَيْءٍ وَرِزْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَتَصْرِيفِهِ فِيمَا شَاءَ وَأَحَبَّ؛ مِنْ تَغْيِيرٍ وَتَبْدِيلٍ وَزِيَادَةٍ وَنَقْصٍ.

٣- ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾يَقُولُ جَلَّ ثناؤُهُ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ رَبَّكَ وَرَبَّ عِيسَى وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ؛ هُوَ الرَّبُّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ﴿الْكِتَابَ﴾يَعْنِي بِالْكِتَابِ: الْقُرْآنَ ﴿بِالْحَقِّ﴾يَعْنِي: بِالصِّدْقِ فِيمَا اخْتَلَفَ فِيهِ أَهْلُ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَفِيمَا خَالَفَكَ فِيهِ مُحَاجُّوكَ مِنْ نَصَارَى أَهْلِ نَجْرَانَ[4]، وَسَائِرِ أَهْلِ الشِّرْكِ غَيْرِهِمْ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾يَعْنِي بِذَلِكَ: الْقُرْآنَ، أَنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمَا كَانَ قَبْلَهُ مِنْ كُتُبِ اللهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَمُحَقِّقٌ مَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُ اللهِ مِنْ عِنْدِهِ؛ لِأَنَّ مُنَزِّلَ جَمِيعِ ذَلِكَ وَاحِدٌ، فَلَا يَكُونُ فِيهِ اخْتِلَافٌ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ كَانَ فِيهِ اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ!.

﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾يَعْنِي: وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، وَالْإِنْجِيلَ عَلَى عِيسَى

٤- ﴿مِنْ قَبْلُ﴾يَقُولُ: مِنْ قَبْلِ الْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَهُ عَلَيْكَ.

﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾يَعْنِي: بَيَانًا لِلنَّاسِ مِنَ اللهِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ وَتَصْدِيقِ رُسُلِهِ، ونَعْتِيكَ[5]يَا مُحَمَّدُ بِأَنَّكَ نَبِيِّي وَرَسُولِي، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ دَيْنِ اللهِ

﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ[6]﴾يَعْنِي: وَأَنْزَلَ الْفَصْلَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فِيمَا اخْتَلَفَتْ فِيهِ الْأَحْزَابُ وَأَهْلُ الْمِلَلِ فِي أَمْرِ عِيسَى وَغَيْرِهِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾يَعْنِي: إِنَّ الَّذِينَ جَحَدُوا أَعْلَامَ اللهِ وَأَدِلَّتَهُ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَأُلُوهَتِهِ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدٌ لَهُ، وَاتَّخَذُوا الْمَسِيحَ إِلَهًا وَرَبًّا، أَوِ ادَّعُوهُ لِلَّهِ وَلَدًا، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾مِنَ اللهِ

---

[4] (نَجْرَانُ): مَدِينَةٌ بِالْحِجَازِ مِنْ شِقِّ الْيَمَنِ مَعْرُوفَةٌ، سُمِّيَتْ بِاسْمِ بَانِيهَا: نَجْرَانَ بْنِ زَيْدِ بْنِ يَشْجُبَ بْنِ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطَانَ [معجم ما استعجم، والمصباح المنير].

[5] قَارِن بِطَبْعَةِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر.

[6] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَقَدْ بَيَّنَّا فِيمَا مَضَى: أَنَّ الْفُرْقَانَ إِنَّمَا هُوَ الْفُعْلَانُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: (فَرَّقَ اللهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ)، يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا بِنَصْرِهِ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ، إِمَّا بِالْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ، وَإِمَّا بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ بِالْأَيْدِ وَالْقُوَّةِ.

﴿شَدِيدٌ﴾يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا: هُمُ الَّذِينَ جَحَدُوا آيَاتِ اللهِ، وَآيَاتُ اللهِ: أَعْلَامُ اللهِ وَأَدِلَّتُهُ وَحُجَجُهُ.

﴿وَاللهُ عَزِيزٌ﴾فِي سُلْطَانِهِ لَا يَمْنَعُهُ مَانِعٌ مِمَّنْ أَرَادَ عَذَابَهُ مِنْهُمْ، وَلَا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَائِلٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعَانِدَهُ فِيهِ أَحَدٌ. ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾مِمَّنْ جَحَدَ حُجَجَهُ وَأَدِلَّتَهُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا عَلَيْهِ، وَبَعْدَ وُضُوحِهَا لَهُ وَمَعْرِفَتِهِ بِهَا.

٥- ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾يَعْنِي: إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ هُوَ فِي الْأَرْضِ، وَلَا شَيْءٌ هُوَ فِي السَّمَاءِ، يَقُولُ: فَكَيْفَ يَخْفَى عَلِيَّ – يَا مُحَمَّدُ – وَأَنَا عَلَّامُ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ – مَا يُضَاهَى بِهِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُجَادِلُونَكَ فِي آيَاتِ اللهِ مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فِي مَقَالَتِهِمُ الَّتِي يَقُولُونَهَا فِيهِ؟!.

٦- ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾يَعْنِي: اللهُ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فَيَجْعَلَكُمْ صُوَرًا أَشْبَاحًا فِي أَرْحَامِ أُمَّهَاتِكُمْ كَيْفَ شَاءَ وَأَحَبَّ: فَيَجْعَلُ هَذَا ذَكَرًا وَهَذَا أُنْثَى، وَهَذَا أَسْوَدُ وَهَذَا أَحْمَرُ.

يُعَرِّفُ عِبَادَهُ بِذَلِكَ: أَنَّ جَمِيعَ مَنِ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ النِّسَاءِ، مِمَّنْ صَوَّرَهُ وَخَلَقَهُ كَيْفَ شَاءَ، وَأَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مِمَّنْ صُوَّرَهُ فِي رَحِمِ أُمِّهِ وَخَلَقَهُ فِيهَا كَيْفَ شَاءَ وَأَحَبَّ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ إِلَهًا لَمْ يَكُنْ مِمَّنِ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ رَحِمُ أُمِّهِ؛ لِأَنَّ خَلَّاقَ مَا فِي الْأَرْحَامِ لَا تَكُونُ الْأَرْحَامُ عَلَيْهِ مُشْتَمِلَةً!! وَإِنَّمَا تَشْتَمِلُ عَلَى الْمَخْلُوقِينَ.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾وَهَذَا الْقَوْلُ تَنْزِيهٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – نَفْسَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ نَدٌّ أَوْ مِثْلٌ، أَوْ أَنْ تَجُوزَ الْأُلُوهَةُ لِغَيْرِهِ! وَتَكْذِيبٌ مِنْهُ لِلَّذِينَ قَالُوا فِي عِيسَى مَا قَالُوا(!) مِنْ

وَفْدِ نَجْرَانَ[٧] الَّذِينَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَسَائِرِ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِمْ فِي عِيسَى! وَلِجَمِيعِ مَنِ ادَّعَى مَعَ اللهِ مَعْبُودًا، أَوْ أَقَرَّ بِرُبُوبِيَّةِ غَيْرِهِ!!.

ثُمَّ أَخْبَرَ – جَلَّ ثناؤُهُ – خَلْقَهُ بِصِفَتِهِ؛ وَعِيدًا مِنْهُ لِمَنْ عَبَدَ غَيْرَهُ! أَوْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَتِهِ أَحَدًا سِوَاهُ؛ فَقَالَ: ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾الَّذِي لَا يَنْصُرُ مَنْ أَرَادَ الِانْتِقَامَ مِنْهُ أَحَدٌ، وَلَا يُنَجِّيهِ مِنْهُ وَأْلٌ وَلَا لَجأٌ! وَذَلِكَ؛ لِعِزَّتِهِ الَّتِي يَذِلُّ لَهَا كُلُّ مَخْلُوقٍ! وَيَخْضَعُ لَهَا كُلُّ مَوْجُودٍ!!.

ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ﴿الْحَكِيمُ﴾فِي تَدْبِيرِهِ وَإِعْذَارِهِ إِلَى خَلْقِهِ، وَمُتَابَعَةِ حُجَجِهِ عَلَيْهِمْ؛ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ – مِنْهُمْ – عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ!.

٧– ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾يَعْنِي: إِنَّ اللهَ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، يَعْنِي بِالْكِتَابِ: الْقُرْآنَ.

﴿مِنْهُ﴾يَعْنِي: مِنَ الْكِتَابِ ﴿آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾يَعْنِي بِالْآيَاتِ: آيَاتِ الْقُرْآنِ.

وَأَمَّا الْمُحْكَمَات: فَإِنَّهُنَّ اللَّوَاتِي قَدْ أُحْكِمْنَ بِالْبَيَانِ وَالتَّفْصِيلِ، وَأُثْبِتَتْ حُجَجُهُنَّ وَأَدِلَّتهنَّ عَلَى مَا جُعِلْنَ أَدِلَّةً عَلَيْهِ مِنْ حَلَالٍ وَحَرَامٍ، وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ، وَثَوَابٍ وَعِقَابٍ، وَأَمْرٍ وَزَجْرٍ، وَخَبَرٍ وَمَثَلٍ، وَعِظَة وَعِبَرٍ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

ثُمَّ وَصَفَ – جَلَّ ثناؤُهُ – هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ بِأَنَّهُنَّ (هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ).

يَعْنِي بِذَلِكَ: أَنَّهُنَّ أَصْلُ الْكِتَابِ الَّذِي فِيهِ عِمَادُ الدِّينِ وَالْفَرَائِضِ وَالْحُدُودِ، وَسَائِرِ مَا بِالْخَلْقِ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ، وَمَا كُلِّفُوا مِنَ الْفَرَائِضِ فِي عَاجِلِهِمْ وَآجِلِهِمْ.

وَإِنَّمَا سَمَّاهُنَّ (أُمَّ الْكِتَابِ)؛ لِأَنَّهُنَّ مُعْظَمُ الْكِتَابِ، وَمَوْضِعُ مَفْزَعِ أَهْلِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ.

﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾مَعْنَاهُ: مُتَشَابِهَاتٌ فِي التِّلَاوَةِ، مُخْتَلِفَاتٌ فِي الْمَعْنَى.

---

[٧] سَتَأْتِي قِصَّةُ وَفْد نَجْرَانَ – إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى – عِنْدَ التَّعْلِيقِ عَلَى الْآيَةِ(٦١)مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ.

فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ إِذًا: إِنَّ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ – يَا مُحَمَّدُ – الْقُرْآنَ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ بِالْبَيَانِ، هُنَّ أَصْلُ الْكِتَابِ الَّذِي عَلَيْهِ عِمَادُكَ وَعِمَادُ أُمَّتِكَ فِي الدِّينِ، وَإِلَيْهِ مَفْزَعُكَ وَمَفْزَعُهُمْ فِيمَا افْتَرَضْتُ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَآيَاتٍ أُخَرَ هُنَّ مُتَشَابِهَاتٌ فِي التِّلَاوَةِ، مُخْتَلِفَاتٌ فِي الْمَعَانِي.

الْمُحْكَمُ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ: مَا عَرَفَ الْعُلَمَاءُ تَأْوِيلَهُ، وَفَهِمُوا مَعْنَاهُ وَتَفْسِيرَهُ.

وَالْمُتَشَابِهُ: مَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ إِلَى عِلْمِهِ سَبِيلٌ، مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِهِ دُونَ خَلْقِهِ؛ وَذَلِكَ نَحْوُ الْخَبَرِ عَنْ وَقْتِ مَخْرَجِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَوَقْتِ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَقِيَامِ السَّاعَةِ، وَفَنَاءِ الدُّنْيَا، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾يَعْنِي: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَيْلٌ عَنِ الْحَقِّ، وَانْحِرَافٌ عَنْهُ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾يَعْنِي: مَا تَشَابَهَتْ أَلْفَاظُهُ وَتَصَرَّفَتْ مَعَانِيهِ بِوُجُوهِ التَّأْوِيلَاتِ؛ لِيُحَقِّقُوا بِادِّعَائِهِمُ الْأَبَاطِيلَ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ فِي ذَلِكَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالزَّيْغِ عَنْ مَحَجَّةِ الْحَقِّ، تَلْبِيسًا مِنْهُمْ بِذَلِكَ عَلَى مَنْ ضَعُفَتْ مَعْرِفَتُهُ بِوجُوهِ تَأْوِيلِ ذَلِكَ وَتَصَارِيفِ مَعَانِيهِ.

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: تَلَا النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ثُمَّ قَرَأَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ، فَقَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ؛ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ!!».[8]

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾يَعْنِي: إِرَادَةُ الشُّبُهَاتِ وَاللَّبْسِ.

---

[8] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم.

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَوْمًا يَتَدَارَءُونَ فِي الْقُرْآنِ، فَقَالَ: «**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا: ضَرَبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَإِنَّمَا نَزَلَ كِتَابُ اللهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَلَا تُكَذِّبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوهُ، وَمَا جَهِلْتُمْ فَكِلُوهُ إِلَى عَالِمِهِ!**» [حسن: رواه أحمد، والبخاري في خلق أفعال العباد، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب، وعبد الرزاق في مصنفه؛ وحسنه الألباني في المشكاة(٢٣٧)، وقال أحمد شاكر في تعليقه على المسند(٦٧٤١): إسناده صحيح].

فَمَعْنَى الْكَلَامِ إِذًا: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَيْلٌ عَنِ الْحَقِّ وَحَيْفٌ عَنْهُ، فَيَتَّبِعُونَ مِنْ آيِ الْكِتَابِ مَا تَشَابَهَتْ أَلْفَاظُهُ، وَاحْتُمِلَ صَرْفُهُ فِي وُجُوهِ التَّأْوِيلَاتِ، بِاحْتِمَالِهِ الْمَعَانِي الْمُخْتَلِفَةِ إِرَادَةَ اللَّبْسِ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى غَيْرِهِ، احْتِجَاجًا بِهِ عَلَى بَاطِلِهِ الَّذِي مَالَ إِلَيْهِ قَلْبُهُ، دُونَ الْحَقِّ الَّذِي أَبَانَهُ اللهُ فَأَوْضَحَهُ بِالْمُحْكَمَاتِ مِنْ آيِ كِتَابِهِ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِيمَنْ ذَكَرْنَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ؛ فَإِنَّهُ مَعْنِيٌّ بِهَا كُلُّ مُبْتَدِعٍ فِي دِينِ اللهِ بِدْعَةً فَمَالَ قَلْبُهُ إِلَيْهَا، تَأْوِيلًا مِنْهُ لِبَعْضِ مُتَشَابِهِ آيِ الْقُرْآنِ، ثُمَّ حَاجَّ بِهِ وَجَادَلَ بِهِ أَهْلَ الْحَقِّ، وَعَدَلَ عَنِ الْوَاضِحِ مِنْ أَدِلَّةِ آيِهِ الْمُحْكَمَاتِ، إِرَادَةً مِنْهُ بِذَلِكَ اللَّبْسَ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَطَلَبًا لِعِلْمِ تَأْوِيلِ مَا تَشَابَهَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، كَائِنًا مَنْ كَانَ، وَأَيَّ أَصْنَافِ الْمُبْتَدِعَةِ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ كَانَ أَوِ الْيَهُودِيَّةِ أَوِ الْمَجُوسِيَّةِ، أَوْ كَانَ سَبَئِيًّا، أَوْ حَرُورِيًّا، أَوْ قَدَرِيًّا، أَوْ جَهْمِيًّا، كَالَّذِي قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ بِهِ؛ فَهُمُ الَّذِينَ عَنَى اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ».

﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ عَنِ السُّدِّيِّ: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾: أَرَادُوا أَنْ يَعْلَمُوا تَأْوِيلَ الْقُرْآنِ – وَهُوَ عَوَاقِبُهُ –، قَالَ اللهُ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾، وَتَأْوِيلُهُ: عَوَاقِبُهُ، مَتَى يَأْتِي النَّاسِخُ مِنْهُ فَيَنْسَخُ الْمَنْسُوخَ؟.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾يَعْنِي: وَمَا يَعْلَمُ وَقْتَ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَانْقِضَاءِ مُدَّةِ أُكُلِ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ، إِلَّا اللهُ، دُونَ مَنْ سِوَاهُ مِنَ الْبَشَرِ الَّذِينَ أَمَّلُوا إِدْرَاكَ عِلْمِ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ الْحِسَابِ وَالتَّنْجِيمِ وَالْكَهَانَةِ!!.

وَأَمَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، فَيَقُولُونَ: آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ فَضْلَ عِلْمِهِمْ فِي ذَلِكَ عَلَى غَيْرِهِم، الْعِلْمُ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَالِمُ بِذَلِكَ دُونَ مَنْ سِوَاهُ مِنْ خَلْقِهِ.

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾يَعْنِي بِالرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ: الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ قَدْ أَتْقَنُوا عِلْمَهُمْ وَوَعَوْهُ فَحَفِظُوهُ حِفْظًا، لَا يَدْخُلُهُمْ فِي مَعْرِفَتِهِمْ وَعِلْمِهِمْ بِمَا عَلِمُوهُ شَكٌّ وَلَا لَبْسٌ.

﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾يَعْنِي: أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ، يَقُولُونَ: صَدَّقْنَا بِمَا تَشَابَهَ مِنْ آيِ الْكِتَابِ، وَأَنَّهُ حَقٌّ وَإِنْ لَمْ نَعْلَمْ تَأْوِيلَهُ.

﴿كُلٌّ﴾يَعْنِي: كُلُّ الْمُحْكَمِ مِنَ الْكِتَابِ وَالْمُتَشَابِهِ مِنْهُ ﴿مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ وَهُوَ تَنْزِيلُهُ وَوَحْيُهُ إِلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾يَعْنِي: وَمَا يَتَذَكَّرُ وَيَتَّعِظُ وَيَنْزَجِرُ عَنْ أَنْ يَقُولَ فِي مُتَشَابِهِ آيِ كِتَابِ اللهِ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ؛ إِلَّا أُولُو الْعُقُولِ وَالنُّهَى.

٨- ﴿رَبَّنَا﴾يَعْنِي: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ رَغْبَةً مِنْهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ، فِي أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ مَا ابْتَلَى بِهِ الَّذِينَ زَاغَتْ قُلُوبُهُمْ مِنَ اتِّبَاعِ مُتَشَابِهِ آيِ الْقُرْآنِ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُ اللهِ، يَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مِثْلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَاغَتْ قُلُوبُهُمْ عَنِ الْحَقِّ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِكَ، ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لَا تُمِلْهَا فَتَصْرِفْهَا عَنْ هُدَاكَ ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾لَهُ فَوَفَّقْتَنَا لِلْإِيمَانِ بِمُحْكَمِ كِتَابِكَ وَمُتَشَابِهِهِ، ﴿وَهَبْ لَنَا﴾ – يَا رَبَّنَا – ﴿مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾يَعْنِي: مِنْ عِنْدِكَ رَحْمَةً، يَعْنِي بِذَلِكَ: هَبْ لَنَا مِنْ عِنْدَكِ تَوْفِيقًا وَثَبَاتًا لِلَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ؛ مِنَ الْإِقْرَارِ بِمُحْكَمِ كِتَابِكَ وَمُتَشَابِهِهِ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ يَعْنِي: إِنَّكَ أَنْتَ الْمُعْطِي عِبَادَكَ التَّوْفِيقَ وَالسَّدَادَ لِلثَّبَاتِ عَلَى دِينِكَ وَتَصْدِيقِ كِتَابِكَ وَرُسُلِكَ.

وَفِي مَدْحِ اللهِ – جَلَّ ثناؤُهُ – هَؤُلَاءِ الْقَوْم بِمَا مَدَحَهُمْ بِهِ مِنْ رَغْبَتِهِمْ إِلَيْهِ فِي أَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَهُمْ، وَأَنْ يُعْطِيَهُمْ رَحْمَةً مِنْهُ؛ مَعُونَةٌ لَهُمْ لِلثَّبَاتِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ الْبَصِيرَةِ بِالْحَقِّ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ مُقِيمُونَ، مَا أَبَانَ عَنْ خَطَأِ قَوْلِ الْجَهَلَةِ مِنَ (الْقَدَرِيَّةِ) أَنَّ إِزَاغَةَ اللهِ قَلْبَ مَنْ أَزَاغَ قَلْبَهُ مِنْ عِبَادِهِ عَنْ طَاعَتِهِ، وَإِمَالَتَهُ لَهُ عَنْهَا جَوْرٌ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ كَمَا قَالُوا، لَكَانَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَا

تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾بِالذَّمِّ أَوْلَى مِنْهُمْ بِالْمَدْحِ! لِأَنَّ الْقَوْلَ لَوْ كَانَ كَمَا قَالُوا؛ لَكَانَ الْقَوْمُ إِنَّمَا سَأَلُوا رَبَّهُمْ مَسْأَلَتَهُمْ إِيَّاهُ أَنْ لَا يَزِيغَ قُلُوبَهُمْ أَنْ لَا يَظْلِمَهُمْ وَلَا يَجُورَ عَلَيْهِمْ! وَذَلِكَ مِنَ السَّائِلِ جَهْلٌ؛ لِأَنَّ اللهَ – جَلَّ ثناؤُهُ – لَا يَظْلِمُ عِبَادَهُ وَلَا يَجُورُ عَلَيْهِمْ! وَقَدْ أَعْلَمَ عِبَادَهُ ذَلِكَ، وَنَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾وَلَا وَجْهَ لِمَسْأَلَتِهِ أَنْ يَكُونَ بِالصِّفَةِ الَّتِي قَدْ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ بِهَا، وَفِي فَسَادِ مَا قَالُوا مِنْ ذَلِكَ الدَّلِيلُ الْوَاضِحُ عَلَى أَنَّ عَدْلًا مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – إِزَاغَةُ مَنْ أَزَاغَ قَلْبَهُ مِنْ عِبَادِهِ عَنْ طَاعَتِهِ، فَلِذَلِكَ اسْتَحَقَّ الْمَدْحَ مَنْ رَغِبَ إِلَيْهِ فِي أَنْ لَا يُزِيغَهُ لِتَوْجِيهِهِ الرَّغْبَةَ إِلَى أَهْلِهَا وَوَضْعِهِ مَسْأَلَتَهُ مَوْضِعَهَا، مَعَ تَظَاهُرِ الْأَخْبَارِ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِرَغْبَتِهِ إِلَى رَبِّهِ فِي ذَلِكَ مَعَ مَحَلِّهِ مِنْهُ، وَكَرَامَتِهِ عَلَيْهِ.

عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَثِيرًا مَا يَقُولُ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ آمَنَّا بِكَ، وَصَدَّقْنَا بِمَا جِئْتَ بِهِ، فَيُخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ! إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى».[9]

---

[9] صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجة؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(١٦٨٥)، والمشكاة(١٠٢)، وغيرهما.

عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، قَالَ: قُلْتُ لِأُمِّ سَلَمَةَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ! مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذَا كَانَ عِنْدَكِ؟ قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا لِأَكْثَرِ دُعَائِكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ! إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ**». فَتَلَا مُعَاذٌ: ﴿**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا**﴾ [صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وغيرهما؛ وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٩١)، وصحيح الجامع(٤٨٠١)، والمشكاة(١٠٢)].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: أَكْثَرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَحْلِفُ (وَفِي رِوَايَةٍ: كَانَتْ يَمِينُ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ!**» [صحيح: رواه البخاري، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي؛ وغيرهم].

فَائِدَةٌ مُهِمَّةٌ: قَالَ الْإِمَامُ السَّعْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: وَقَدْ أَخْبَرَ فِي آيَاتٍ أُخَرَ الْأَسْبَابَ الَّتِي بِهَا تَزِيغُ قُلُوبُ أَهْلِ الِانْحِرَافِ، وَأَنَّ ذَلِكَ بِسَبَبِ كَسْبِهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ**﴾، ﴿**ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ**﴾، ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾.

فَالْعَبْدُ إِذَا تَوَلَّى عَنْ رَبِّهِ، وَوَالَى عَدُّوه، وَرَأَى الْحَقّ، فَصَدَفَ عَنْهُ، وَرَأَى الْبَاطِلَ فَاخْتَارَهُ؛ وَلَّاهُ اللهُ مَا تَوَلَّى لِنَفْسِهِ، وَأَزَاغَ قَلْبَهُ، عُقُوبَةً لَهُ عَلَى زَيْغِهِ! وَمَا ظَلَمَهُ اللهُ، وَلَكِنَّهُ ظَلَمَ نَفْسَهُ، فَلَا يَلُمْ إِلَّا نَفْسَهُ الْأَمَّارَة بِالسُّوءِ!! وَاللهُ أَعْلَمُ.

٩- ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾يَعْنِي: يَا رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ.

مَعْنَى الْكَلَامِ: رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَاغْفِرْ لَنَا يَوْمَئِذٍ وَاعْفُ عَنَّا، فَإِنَّكَ لَا تُخْلِفُ وَعْدَكَ: أَنَّ مَنْ آمَنَ بِكَ، وَاتَّبَعَ رَسُولَكَ، وَعَمِلَ بِالَّذِي أَمَرْتَهُ بِهِ فِي كِتَابِكَ؛ أَنَّكَ غَافِرُهُ يَوْمَئِذٍ.

وَأَمَّا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾فَإِنَّهُ: لَا شَكَّ فِيهِ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لِيَوْمٍ﴾: فِي يَوْمٍ؛ وَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللهُ فِيهِ خَلْقَهُ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ فِي مَوْقِفِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ.

١٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾يَعْنِي: إِنَّ الَّذِينَ جَحَدُوا الْحَقَّ الَّذِي قَدْ عَرَفُوهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ يَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمُنَافِقِيهِمْ وَمُنَافِقِي الْعَرَبِ وَكُفَّارِهِمْ، الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَهُمْ يَتَّبِعُونَ مِنْ كِتَابِ اللهِ الْمُتَشَابِهَ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا[10]﴾يَعْنِي: أَنَّ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ لَنْ تُنْجِيَهُمْ مِنْ عُقُوبَةِ اللهِ إِنْ أَحَلَّهَا بِهِمْ - عَاجِلًا فِي الدُّنْيَا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ بَعْدَ تَبَيُّنِهِمْ، وَاتِّبَاعِهِمُ الْمُتَشَابِهَ طَلَبَ اللُّبْسِ - فَتَدْفَعَهَا عَنْهُمْ، وَلَا يُغْنِي ذَلِكَ عَنْهُمْ مِنْهَا شَيْئًا، ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ[11]﴾يَعْنِي بِذَلِكَ:

---

[10] **قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ**﴾، ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْكُفَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ شَيْئًا، وَذَكَرَ أَنَّهُمْ وَقُودُ النَّارِ، أَيْ: حَطَبُهَا الَّذِي تَتَّقِدُ فِيهِ، وَلَمْ يُبَيِّنْ هُنَا هَلْ نَفْيُهُ لِذَلِكَ تَكْذِيبٌ لِدَعْوَاهُمْ أَنَّ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ تَنْفَعُهُمْ! وَبَيَّنَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ أَنَّهُمُ ادَّعَوْا ذَلِكَ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُ مَا أَعْطَاهُمُ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِكَرَامَتِهِمْ عَلَيْهِ وَاسْتِحْقَاقِهِمْ لِذَلِكَ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ كَالدُّنْيَا يَسْتَحِقُّونَ فِيهَا ذَلِكَ أَيْضًا!! فَكَذَّبَهُمْ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، فَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُمُ ادَّعَوْا ذَلِكَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾.

[11] عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**يَظْهَرُ هَذَا الدِّينُ حَتَّى يُجَاوِزَ الْبِحَارَ، وَحَتَّى يُخَاضَ بِالْخَيْلِ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ يَأْتِي أَقْوَامٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، فَإِذَا قَرَءُوهُ؛ قَالُوا: قَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ، فَمَنْ أَقْرَأُ مِنَّا!؟ مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا!!؟**» ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «**هَلْ تَرَوْنَ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟**» قَالُوا: لَا! قَالَ: «**فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ، وَأُولَئِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ!!**» [حسن: رواه ابن المبارك في الزهد - واللفظ له -، والطبراني في الأوسط، والبزار في مسنده كلاهما عن عمر بن الخطاب؛ وحسنه الألباني في الصحيحة(٣٢٣٠)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٣٥)].

حطَبُهَا.[١٢]

١١- ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾يَعْنِي: أنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا عِنْدَ حُلُولِ عُقُوبَتِنَا بِهِمْ؛ كَسُنَّةِ آلِ فِرْعَوْنَ وَعَادَتِهِمْ، وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَأَخَذْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ حِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا حِينَ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا، كَالَّذِي عُوجِلُوا بِالْعُقُوبَةِ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ رَبَّهُمْ مِنْ قَبْلِ آلِ فِرْعَوْنَ: مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، وَقَوْمِ هُودٍ، وَقَوْمِ لُوطٍ، وَأَمْثَالِهِمْ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي بِهِ: وَاللهُ شَدِيدٌ عِقَابُهُ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ بَعْدَ قِيَامِ الْحِجَّةِ عَلَيْهِ.

١٢- ﴿قُلْ﴾ - يَا مُحَمَّدُ - ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْ يَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْ آيِ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلْتُهُ إِلَيْكَ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾يَعْنِي: وَتُجْمَعُونَ فَتُجْلَبُونَ ﴿إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ وَبِئْسَ الْفِرَاشُ جَهَنَّمُ الَّتِي تُحْشَرُونَ إِلَيْهَا!.

١٣- ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾يَعْنِي: قُلْ - يَا مُحَمَّدُ - لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ بَلَدِكَ: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾يَعْنِي: عَلَامَةٌ وَدَلَالَةٌ عَلَى صِدْقِ مَا أَقُولُ: إِنَّكُمْ سَتُغْلَبُونَ، وَعِبْرَةٌ، ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾يَعْنِي فِي فِرْقَتَيْنِ وَحِزْبَيْنِ - وَالْفِئَةُ: الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ - ﴿الْتَقَتَا﴾ لِلْحَرْبِ، وَإِحْدَى الْفِئَتَيْنِ: رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِمَّنْ شَهِدَ وَقْعَةَ بَدْرٍ، وَالْأُخْرَى: مُشْرِكُو قُرَيْشٍ.

[١٢] وَهَذَا هُوَ النِّهَايَةُ فِي شَرْحِ الْعَذَابِ؛ فَإِنَّهُ لَا عَذَابَ أَزْيَدُ مِنْ أَنْ تَشْتَعِلَ النَّارُ فِيهِمْ كَاشْتِعَالِهَا فِي الْحَطَبِ الْيَابِسِ!!.

﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، جَمَاعَةٌ تُقَاتِلُ فِي طَاعَةِ اللهِ وَعَلَى دِينِهِ؛ وَهُمْ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَصْحَابُهُ، ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾؛ وَهُمْ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ.

﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ﴾ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: قَدْ نَظَرْنَا إِلَى الْمُشْرِكِينَ، فَرَأَيْنَاهُمْ يُضْعِفُونَ عَلَيْنَا، ثُمَّ نَظَرْنَا إِلَيْهِمْ فَمَا رَأَيْنَاهُمْ يَزِيدُونَ عَلَيْنَا رَجُلًا وَاحِدًا، وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾.

فَمَعْنَى الْآيَةِ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ: قَدْ كَانَ لَكُمْ – يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ – آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا: إِحْدَاهُمَا مَسْلَمَةٌ، وَالْأُخْرَى كَافِرَةٌ، كَثِيرٌ عَدَدُ الْكَافِرَةِ، قَلِيلٌ عَدَدُ الْمُسْلِمَةِ، تَرَى الْفِئَةُ الْقَلِيلُ عَدَدُهَا، الْكَثِيرَ عَدَدُهَا أَمْثَالًا، أَنَّهَا إِنَّمَا تَكْثُرُهَا مِنَ الْعَدَدِ بِمِثْلٍ وَاحِدٍ، فَهُمْ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ، فَيَكُونُ أَحَدُ الْمِثْلَيْنِ عِنْدَ ذَلِكَ، الْعَدَدُ الَّذِي هُوَ مِثْلُ عَدَدِ الْفِئَةِ الَّتِي رَأَتْهُمْ، وَالْمِثْلُ الْآخَرُ الضِّعْفَ الزَّائِدَ عَلَى عَدَدِهِمْ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾يَعْنِي: يَرَوْنَهُمْ – حَيْثُ تَلْحَقُهُمْ أَبْصَارُهُمْ، وَتَرَاهُمْ عُيُونُهُمْ – مِثْلَيْهِمْ.

﴿وَاللهُ يُؤَيِّدُ﴾يَعْنِي: يُقَوِّي ﴿بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

وَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: قَدْ كَانَ لَكُمْ[١٣] يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا: إِحْدَاهُمَا تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأُخْرَى كَافِرَةٌ، يَرَاهُمُ الْمُسْلِمُونَ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ أَعْيُنِهِمْ، فَأَيَّدْنَا الْمُسْلِمَةَ وَهُمْ قَلِيلٌ عَدَدُهُمْ، عَلَى الْكَافِرَةِ وَهُمْ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ حَتَّى ظَفِرُوا بِهِمْ، مُعْتَبَرٌ وَمُتَفَكَّرٌ، وَاللهُ يُقَوِّي بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾يَعْنِي: إِنَّ فِيمَا فَعَلْنَا بِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَفْنَا أَمْرَهُمْ: مِنْ تَأْيِيدِنَا الْفِئَةَ الْمُسْلِمَةَ مَعَ قِلَّةِ عَدَدِهَا، عَلَى الْفِئَةِ الْكَافِرَةِ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهَا ﴿لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾يَعْنِي: لَمُتَفَكَّرًا وَمُتَّعَظًا لِمَنْ عَقَلَ وَادَّكَرَ فَأَبْصَرَ الْحَقَّ.

---

[١٣] قَارِن بِطَبْعَةِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر.

١٤- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾.

يَعْنِي: زُيِّنَ لِلنَّاسِ مَحَبَّةُ مَا يَشْتَهُونَ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَسَائِرِ مَا عَدَّ.

وَإِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ: تَوْبِيخَ الْيَهُودِ الَّذِينَ آثَرُوا الدُّنْيَا وَحُبَّ الرِّيَاسَةِ فِيهَا، عَلَى اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِصِدْقِهِ.

وَأَمَّا الْقَنَاطِيرُ: هُوَ الْمَالُ الْكَثِيرُ، وَأَمَّا الْمُقَنْطَرَةُ: فَهِيَ الْمُضَعَّفَةُ، وَهُوَ كَمَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: الْمَالُ الْكَثِيرُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ.

﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾: الْمُعَلَّمَةُ بِالشِّيَاتِ، الْحِسَانُ، الرَّائِعَةُ حُسْنًا مَنْ رَآهَا.

﴿وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾الْأَنْعَامُ: جَمْعُ نَعْمٍ؛ وَهِيَ الْأَزْوَاجُ الثَّمَانِيَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي كِتَابِهِ: مِنَ الضَّأْنِ وَالْمَعِزِ وَالْبَقَرِ وَالْإِبِلِ. وَأَمَّا الْحَرْثُ: فَهُوَ الزَّرْعُ.

وَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَمِنَ الْبَنِينَ، وَمِنْ كَذَا، وَمِنْ كَذَا، وَمِنَ الْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ.

﴿ذَلِكَ﴾يَعْنِي: جَمِيعُ مَا ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ، وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ، وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ[١٤]، ﴿مَتَاعُ[١٥] الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مِمَّا يَسْتَمْتِعُ بِهِ فِي الدُّنْيَا أَهْلُهَا أَحْيَاءً، فَيَتَبَلَّغُونَ بِهِ فِيهَا، وَيَجْعَلُونَهُ وُصْلَةً فِي مَعَايِشِهِمْ، وَسَبَبًا لِقَضَاءِ شَهَوَاتِهِمُ، الَّتِي زُيِّنَ لَهُمْ حُبُّهَا فِي عَاجِلِ دُنْيَاهُمْ، دُونَ أَنْ يَكُونَ عُدَّةً لِمَعَادِهِمْ، وَقُرْبَةً لَهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ، إِلَّا مَا أُسْلِكَ فِي سَبِيلِهِ وَأَنْفَقَ مِنْهُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ، ﴿وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾يَعْنِي: وَعِنْدَ اللهِ حُسْنُ الْمَآبِ، يَعْنِي: حُسْنَ الْمَرْجِعِ.

---

[١٤] هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْمَذْكُورَةُ قَدْ تحْسنُ نِيَّةَ الْعَبْدِ فِي التَّلَبُّسِ بِهَا فَيُثَابُ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا يَتَوَجَّهُ الذَّمُّ إِلَى سُوءِ الْقَصْدِ فِيهَا وَبِهَا!!.

[١٥] الْمَتَاعُ: هُوَ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ صَاحِبُهُ بُرْهَةً ثُمَّ يَنْقَطِعُ! وَيَضْمَحِلُّ! وَيَفْنَى!! فَمَا عِيبَتِ الدُّنْيَا بِأَبْلَغَ مِنْ فَنَائِهَا، وَتَقَلُّبِ أَحْوَالِهَا!!.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَكَيْفَ قِيلَ: ﴿وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾وَقَدْ عَلِمْتَ مَا عِنْدَهُ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَلِيمِ الْعَذَابِ وَشَدِيدِ الْعِقَابِ؟! قِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ مَعْنِيٌّ بِهِ خَاصٌّ مِنَ النَّاسِ، وَمَعْنَى ذَلِكَ: وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ، وَقَدْ أَنْبَأَنَا عَنْ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الآيَةِ الَّتِي تَلِيهَا.

فَإِنْ قَالَ: وَمَا حُسْنُ الْمَآبِ؟ قِيلَ: هُوَ مَا وَصَفَهُ بِهِ – جَلَّ ثناؤُهُ –؛ وَهُوَ الْمَرْجِعُ إِلَى جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ مُخَلَّدًا فِيهَا، وَإِلَى أَزْوَاجٍ مُطَهَّرَةٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللهِ.

١٥– ﴿قُلْ﴾ – يَا مُحَمَّدُ – لِلنَّاسِ الَّذِينَ زُيِّنَ لَهُمْ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ، وَسَائِرِ مَا ذَكَرَ – جَلَّ ثناؤُهُ –: ﴿أَؤُنَبِّئُكُمْ﴾: أَأُخْبِرُكُمْ وَأُعْلِمُكُمْ ﴿بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾يَعْنِي: بِخَيْرٍ وَأَفْضَلَ لَكُمْ ﴿مِنْ ذَلِكُمْ﴾يَعْنِي: مِمَّا زُيِّنَ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا حُبُّ شَهْوَتِهِ؛ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَأَنْوَاعِ الْأَمْوَالِ الَّتِي هِيَ مَتَاعُ الدُّنْيَا؟.

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: لِلَّذِينَ خَافُوا اللهَ فَأَطَاعُوهُ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾يَعْنِي: لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

وَالْجَنَّاتُ: الْبَسَاتِينُ، قَوْلُهُ: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾يَعْنِي: مِنْ تَحْتِ الْأَشْجَارِ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ الْخُلُود فِيهَا: دَوَامُ الْبَقَاءِ فِيهَا، ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ الْأَزْوَاج الْمُطَهَّرَة: هُنَّ نِسَاءُ الْجَنَّةِ اللَّوَاتِي طُهِّرْنَ مِنْ كُلِّ أَذًى يَكُونُ بِنِسَاءِ أَهْلِ الدُّنْيَا: مِنَ الْحَيْضِ وَالْمَنِيِّ وَالْبَوْلِ وَالنِّفَاسِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْأَذَى.

﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ﴾يَعْنِي: وَرِضَى اللهِ.

وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللهُ – جَلَّ ثناؤُهُ – فِيمَا ذَكَرَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ رِضْوَانَهُ؛ لِأَنَّ رِضْوَانَهُ أَعْلَى مَنَازِلِ كَرَامَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ!!.[16]

---

[16] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «إِنَّ اللهَ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى – يَا رَبِّ – وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ! فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ! وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا!!» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي؛ وغيرهم].

﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ[17]﴾يَعْنِي: وَاللهُ ذُو بَصَرٍ بِالَّذِي يَتَّقِيهِ مِنْ عِبَادِهِ فَيَخَافُهُ، فَيُطِيعُهُ، وَيُؤْثِرُ مَا عِنْدَهُ مِمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ أَعَدَّهُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْهُ عَلَى حُبِّ مَا زُيِّنَ لَهُ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَسَائِرِ مَا عَدَّدَ مِنْهَا – تَعَالَى ذِكْرُهُ –، وَبِالَّذِي لَا يَتَّقِيهِ فَيَخَافُهُ، وَلَكِنَّهُ يَعْصِيهِ! وَيُطِيعُ الشَّيْطَانَ، وَيُؤْثِرُ مَا زُيِّنَ لَهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ حُبِّ شَهْوَةِ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْأَمْوَالِ، عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ!!.

عَالِمٌ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ، حَتَّى يُجَازِيَ كُلَّهُمْ عِنْدَ مَعَادِهِمْ إِلَيْهِ جَزَاءَهُمْ، الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ.

١٦– ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾يَعْنِي: الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّنَا صَدَّقْنَا بِكَ وَبِنَبِيِّكَ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾يَقُولُ: فَاسْتُرْ عَلَيْنَا ذُنُوبَنَا بِعَفْوِكَ عَنْهَا، وَتَرْكِكَ عُقُوبَتَنَا عَلَيْهَا ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ادْفَعْ عَنَّا عَذَابَكَ إِيَّانَا بِالنَّارِ أَنْ تُعَذِّبَنَا بِهَا.

وَإِنَّمَا مَعْنَى ذَلِكَ: لَا تُعَذِّبْنَا يَا رَبَّنَا بِالنَّارِ!!.

وَإِنَّمَا خَصُّوا الْمَسْأَلَةَ بِأَنْ يَقِيَهُمْ عَذَابَ النَّارِ؛ لِأَنَّ مَنْ زُحْزِحَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّارِ: فَقَدْ فَازَ بِالنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَحسن مَآبه!.

١٧– ﴿الصَّابِرِينَ﴾يَعْنِي: الَّذِينَ صَبَرُوا فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾: الَّذِينَ صَدَقُوا اللهَ فِي قَوْلِهِمْ بِتَحْقِيقِهِمُ الْإِقْرَارَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِهِ، بِالْعَمَلِ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ وَالِانْتِهَاءِ عَمَّا نَهَاهُ عَنْهُ، ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾: الْمُطِيعِينَ لَهُ ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾: هُمُ الْمُؤْتُونَ زَكَوَاتِ أَمْوَالِهِمْ، وَوَاضِعُوهَا عَلَى مَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِإِتْيَانِهَا، وَالْمُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي الْوُجُوهِ الَّتِي أَذِنَ اللهُ لَهُمْ – جَلَّ ثناؤُهُ – بِإِنْفَاقِهَا فِيهَا.

---

[17] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ خَتَمَ الْآيَةَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ؛ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنِ ادَّعَى التَّقْوَى فِي نَفْسِهِ أَوْ بِلِسَانِهِ يَكُونُ مُتَّقِيًا! وَإِنَّمَا الْمُتَّقِي عِنْدَ اللهِ؛ هُوَ مَنْ يَعْلَمُ اللهُ مِنْهُ التَّقْوَى! وَفِي هَذَا تَنْبِيهٌ لِلنَّاسِ، وَإِيقَاظٌ لِمُحَاسَبَةِ نُفُوسِهِمْ عَلَى التَّقْوَى؛ لِئَلَّا يَغُشَّهُمُ الْعُجْبُ بِأَنْفُسِهِمْ! فَيَحْسَبُوهَا مُتَّقِيَةً وَمَا هِيَ بِمُتَّقِيَةٍ!! اهـ مِنَ الْمَنَارِ.

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ[18]﴾: هُمُ السَّائِلُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يَسْتُرَ عَلَيْهِمْ فَضِيحَتَهُمْ بِهَا.

وَأَظْهَرُ مَعَانِي ذَلِكَ: أَنْ تَكُونَ مَسْأَلَتُهُمْ إِيَّاهُ بِالدُّعَاءِ.

١٨- ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ[19] قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

يَعْنِي: شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَشَهِدَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَأُولُو الْعِلْمِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ[20]﴾ فَإِنَّهُ بِمَعْنَى: أَنَّهُ الَّذِي يَلِي الْعَدْلَ بَيْنَ خَلْقِهِ.

وَأَمَّا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فَإِنَّهُ نَفَى أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ يَسْتَحِقُّ الْعُبُودَةَ غَيْرُ الْوَاحِدِ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ.

وَيَعْنِي بِالْعَزِيزِ: الَّذِي لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَرَادَهُ، وَلَا يَنْتَصِر مِنْهُ أَحَدٌ عَاقَبَهُ أَوِ انْتَقَمَ مِنْهُ.

(الْحَكِيمُ) فِي تَدْبِيرِهِ، فَلَا يَدْخُلُهُ خَلَلٌ. وَإِنَّمَا عَنَى – جَلَّ ثناؤُهُ – بِهَذِهِ الْآيَةِ: نَفْيَ مَا أَضَافَتِ النَّصَارَى الَّذِينَ حَاجُّوا رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي عِيسَى مِنَ الْبُنُوَّةِ! وَمَا نَسَبَ إِلَيْهِ سَائِرُ أَهْلِ الشِّرْكِ مِنْ أَنَّ لَهُ شَرِيكًا، وَاتِّخَاذِهِمْ دُونَهُ أَرْبَابًا! فَأَخْبَرَهُمُ اللهُ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ الْخَالِقُ كُلَّ مَا سِوَاهُ، وَأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ مَا اتَّخَذَهُ كُلُّ كَافِرٍ وَكُلُّ مُشْرِكٍ رَبًا دُونَهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَشْهَدُ بِهِ هُوَ وَمَلَائِكَتُهُ وَأَهْلُ الْعِلْمِ بِهِ مِنْ خَلْقِهِ.

---

[18] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ**﴾:هُمُ الطَّالِبُونَ مِنَ اللهِ الْمَغْفِرَةِ فِي وَقْتِ السَّحَرِ؛ الَّتِي هِيَ أَشَقُّ الْأَوْقَاتِ اسْتِيقَاظًا عَلَيْهِمِ، وَأَحَبّهَا رَاحَةً لَدَيهِمِ.

وَالْأَسْحَارُ: جَمْعُ سَحَرٍ؛ وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ الصَّادِقِ. وَتَسَحَّرَ: إِذَا أَكَلَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. وَخَصَّ الْأَسْحَارَ؛ لِأَنَّهَا مِنْ أَوْقَاتِ اسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ.

قَالَ الْحَسَنُ: مَدُّوا الصَّلَاةَ إِلَى السَّحَرِ؛ ثُمَّ جَلَسُوا يَسْتَغْفِرُونَ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ –.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا – تبَارَكَ وَتَعَالَى – كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ؛ فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟[حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ]**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد – وما بين المعقوفين له –، وأبو داود، والترمذي؛ وغيرهم]. قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَلِذَلِكَ كَانُوا يُفَضِّلُونَ صَلَاةَ آخِرِ اللَّيْلِ عَلَى صَلَاةِ أَوَّلِهِ.

[19] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي لِقَاءِ الْبَابِ الْمَفْتُوحِ:** مَنْ هُمْ أُولِي الْعِلْمِ الَّذِينَ يَكُونُونَ مِنَ الشُّهَدَاءِ؟ هُمُ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ للهِ، وَالَّذِينَ إِذَا بَانَ لَهُمُ الْحَقُّ تَبِعُوهُ، وَالَّذِينَ لَا يَخْرُجُونَ عَنْ طَرِيقَةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَصْحَابِهِ، لَيْسَ الْعَالِمُ الْقَارِئ... يَعْنِي: لَوْ وَجَدْنَا شَخْصًا بَحْرًا فِي الْعِلْمِ: إِنْ جِئْتَهُ فِي التَّفْسِيرِ؛ فَإِذَا هُوَ بَحْرٌ، فِي الْحَدِيثِ؛ بَحْرٌ، وَفِي الْفِقْهِ؛ بَحْرٌ، فِي كُلِّ فَنٍّ؛ هُوَ بَحْرٌ، لَكِنَّهُ لَا يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ! وَلَا يَتَّبِعُ طَرِيقَ السَّلَفِ؛ فَهَذَا لَيْسَ مِنْ أُولِي الْعِلْمِ!!.

[20] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَالْقِسْطُ: هُوَ الْعَدْلُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: هُوَ مُقْسِطٌ، وَقَدْ أَقْسَطَ: إِذَا عَدَلَ.

١٩- ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ[٢١]﴾مَعْنَى الدِّينِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الطَّاعَةُ وَالذِّلَّةُ.

---

[٢١] دَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ**﴾عَلَى أَنَّهُ دِينُ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى خَاتَمِهِمْ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ -.

وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ - قَطُّ - وَلَا يَكُونُ لَهُ دِينٌ سِوَاهُ! قَالَ أَوَّلُ الرُّسُلِ نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ﴿**فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ**﴾، وَأَمَرَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِبْرَاهِيمَ بِالْإِسْلَامِ فَاسْتَجَابَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، ﴿**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾، وَقَالَ يَعْقُوبُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِبَنِيهِ عِنْدَ حُضُورِ أَجَلِهِ: ﴿**مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾، وَحَكَى اللهُ - تَعَالَى - عَنْ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَوْلَهُ: ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾، وَحَكَى اللهُ - تَعَالَى - عَنْ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَوْلَهُ: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾، وقالت مَلِكَةُ سَبَأٍ الَّتِي آمَنَتْ بِسُلَيْمَانَ: ﴿**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، وَقَالَ اللهُ - تَعَالَى - عَنْ لُوطٍ وَأَهْلِهِ: ﴿**فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾، وقال موسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِمُؤْمِنِي قَوْمِهِ: ﴿**يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ**﴾، وَقَالَ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ: ﴿**رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ**﴾، وَقَالَ اللهُ - تَعَالَى - عَنْ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ: ﴿**فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾، وَقال اللهُ - تَعَالَى - عَنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا**﴾، وَقَالَ خَاتَمُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، مُحَمَّدٌ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ أَيْ: مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

فَهَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ - وَأَتْبَاعُهُمْ، يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ كَانُوا مُسْلِمِينَ، وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ**﴾، وَقَوْلَهُ: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ لَا يَخْتَصُّ بِمَنْ بُعِثَ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

فَالْيَهُودُ مُسْلِمُونَ فِي زَمَنِ مُوسَى - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَالنَّصَارَى مُسْلِمُونَ فِي زَمَنِ عِيسَى - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَأَمَّا حِينَ بَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَأَنْكَرُوهُ وَكَذَّبُوا بِهِ؛ فَلَيْسُوا بِمُسْلِمِينَ!.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، عَنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ!!**»[صحيح: رواه مسلم، وأحمد؛ وغيرهما].

وَبَعْدُ: فَمَنْ زَعَمَ الْيَوْمَ دِينًا قَائِمًا مَقْبُولًا عِنْدَ اللهِ سِوَى الْإِسْلَامِ - مِنْ دِينِ الْيَهُودِيَّةِ، أَوِ النَّصْرَانِيَّةِ، أَوْ غَيْرِهِمَا -؛ فَهُوَ كَافِرٌ! يُسْتَتَابُ، فَإِنْ تَابَ؛ وَإِلَّا قُتِلَ مُرْتَدًّا؛ لِأَنَّهُ مُكَذِّبٌ بِالْقُرْآنِ!.

وَكَذَلِكَ الْإِسْلَامُ: وَهُوَ الِانْقِيَادُ بِالتَّذَلُّلِ وَالْخُشُوعِ.

فَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾: إِنَّ الطَّاعَةَ الَّتِي هِيَ الطَّاعَةُ عِنْدَهُ، الطَّاعَةُ لَهُ، وَإِقْرَارُ الْأَلْسُنِ وَالْقُلُوبِ لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالذِّلَّةِ، وَانْقِيَادُهَا لَهُ بِالطَّاعَةِ فِيمَا أَمَرَ وَنَهَى، وَتَذَلُّلُهَا لَهُ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ اسْتِكْبَارٍ عَلَيْهِ، وَلَا انْحِرَافٍ عَنْهُ، دُونَ إِشْرَاكِ غَيْرِهِ مِنْ خَلْقِهِ مَعَهُ فِي الْعُبُودَةِ وَالْأُلُوهَةِ.

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾يَعْنِي: وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْإِنْجِيلَ – وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ – فِي أَمْرِ عِيسَى، وَافْتِرَائِهِمْ عَلَى اللهِ فِيمَا قَالُوهُ فِيهِ مِنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي كَثُرَ بِهَا اخْتِلَافُهُمْ بَيْنَهُمْ، وَتَشَتَّتَتْ بِهَا كَلِمَتُهُمْ، وَبَايَنَ بِهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ حَتَّى اسْتَحَلَّ بِهَا بَعْضُهُمْ دِمَاءَ بَعْضٍ ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾يَعْنِي: إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا عَلِمُوا الْحَقَّ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَيْقَنُوا أَنَّهُمْ فِيمَا يَقُولُونَ فِيهِ مِنْ عَظِيمِ الْفِرْيَةِ مُبْطِلُونَ!.

فَأَخْبَرَ اللهُ عِبَادَهُ أَنَّهُمْ أَتَوْا مَا أَتَوْا مِنَ الْبَاطِلِ، وَقَالُوا مَا قَالُوا مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي هُوَ كُفْرٌ بِاللهِ؛ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ بِخَطَأِ مَا قَالُوهُ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا ذَلِكَ جَهْلًا مِنْهُمْ بِخَطَئِهِ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوهُ وَاخْتَلَفُوا فِيهِ الِاخْتِلَافَ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ؛ تَعَدِّيًا مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَطَلَبَ الرِّيَاسَاتِ وَالْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ!!.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾يَعْنِي: وَمَنْ يَجْحَدْ حُجَجَ اللهِ وَأَعْلَامَهُ – الَّتِي نَصَبَهَا ذِكْرَى لِمَنْ عَقَلَ، وَأَدِلَّةً لِمَنِ اعْتَبَرَ وَتَذَكَّرَ –؛ فَإِنَّ اللهَ مُحْصٍ عَلَيْهِ أَعْمَالَهُ الَّتِي كَانَ يَعْمَلُهَا فِي الدُّنْيَا، فَمُجَازِيهِ بِهَا فِي الْآخِرَةِ؛ فَإِنَّهُ – جَلَّ ثناؤُهُ – سَرِيعُ الْحِسَابِ، يَعْنِي: سَرِيعَ الْإِحْصَاءِ.

وَإِنَّمَا مَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّهُ حَافِظٌ عَلَى كُلِّ عَامِلٍ عَمَلَهُ، لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى عَقْدٍ، كَمَا يَعْقِدُهُ خَلْقُهُ بِأَكُفِّهِمْ ، أَوْ يَعُونَهُ بِقُلُوبِهِمْ! وَلَكِنَّهُ يَحْفَظُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، بِغَيْرِ كُلْفَةٍ وَلَا مُؤُونَةٍ، وَلَا مُعَانَاةٍ لِمَا يُعَانِيهِ غَيْرُهُ مِنَ الْحِسَابِ!.

٢٠- ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ[٢٢]﴾يَعْنِي: فَإِنْ حَاجَّكَ - يَا مُحَمَّدُ - النَّفْرُ مِنْ نَصَارَى أَهْلِ نَجْرَانَ[٢٣] فِي أَمْرِ عِيسَى - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ -، فَخَاصَمُوكَ فِيهِ بِالْبَاطِلِ؛ فَقُلِ: انْقَدْتُ لِلَّهِ وَحْدَهُ بِلِسَانِي وَقَلْبِي وَجَمِيعِ جَوَارِحِي.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: وَأَسْلَمَ مَنِ اتَّبَعَنِي - أَيْضًا - وَجْهَهُ لِلَّهِ مَعِي.

﴿وَقُلْ﴾ - يَا مُحَمَّدُ - ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾؟ يَقُولُ: قُلْ لَهُمْ: هَلْ أَفْرَدْتُمُ التَّوْحِيدَ وَأَخْلَصْتُمُ الْعِبَادَةَ وَالْأُلُوهَةَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، دُونَ سَائِرِ الْأَنْدَادِ وَالْأَشْرَاكِ[٢٤] الَّتِي تُشْرِكُونَهَا مَعَهُ فِي عِبَادَتِكُمْ إِيَّاهُمْ وَإِقْرَارِكُمْ بِرُبُوبِيَّتِهِمْ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ، وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ؟.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾يَقُولُ: فَإِنِ انْقَادُوا لِإِفْرَادِ الْوَحْدَانِيَّةِ لِلَّهِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ وَالْأُلُوهَةِ لَهُ؛ ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾يَعْنِي: فَقَدْ أَصَابُوا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَسَلَكُوا مَحَجَّةَ الرُّشْدِ.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾يَعْنِي: وَإِنْ أَدْبَرُوا مُعْرِضِينَ عَمَّا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَإِخْلَاصِ التَّوْحِيدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَإِنَّمَا أَنْتَ رَسُولٌ مُبَلِّغٌ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ غَيْرُ إِبْلَاغِ الرِّسَالَةِ إِلَى مَنْ أَرْسَلْتُكَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِي، وَأَدَاءُ مَا كَلَّفْتُكَ مِنْ طَاعَتِي.

﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾يَعْنِي: وَاللهُ ذُو عِلْمٍ بِمَنْ يَقْبَلُ مِنْ عِبَادِهِ مَا أَرْسَلْتُكَ بِهِ إِلَيْهِ فَيُطِيعُكَ بِالْإِسْلَامِ، وَبِمَنْ يَتَوَلَّى مِنْهُمْ عَنْهُ مُعْرِضًا فَيَرُدُّ عَلَيْكَ مَا أَرْسَلْتُكَ بِهِ إِلَيْهِ، فَيَعْصِيكَ بِإِبَائِهِ الْإِسْلَامَ.

٢١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾أَيْ: يَجْحَدُونَ حُجَجَ اللهِ وَأَعْلَامَهُ فَيُكَذِّبُونَ بِهَا مِنْ أَهْلِ

---

[٢٢] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَإِنَّمَا خَصَّ - جَلَّ ذِكْرُهُ - بِأَمْرِهِ بِأَنْ يَقُولَ: أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ؛ لِأَنَّ الْوَجْهَ أَكْرَمُ جَوَارِحِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ بَهَاؤُهُ وَتَعْظِيمُهُ، فَإِذَا خَضَعَ وَجْهُهُ لِشَيْءٍ؛ فَقَدْ خَضَعَ لَهُ الَّذِي هُوَ دُونَهُ فِي الْكَرَامَةِ عَلَيْهِ مِنْ جَوَارِحِ بَدَنِهِ.

[٢٣] **(نَجْرَانُ):** مَدِينَةٌ بِالْحِجَازِ مِنْ شِقِّ الْيَمَنِ مَعْرُوفَةٌ، سُمِّيَتْ بِاسْمِ بَانِيهَا: نَجْرَانَ بْنِ زَيْدِ بْنِ يَشْجُبَ بْنِ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطَانَ [معجم ما استعجم، والمصباح المنير].

[٢٤] الْأَشْرَاكُ: جَمْعُ الشَّرِيكِ، يُقَالُ: شَرِيكٌ وَأَشْرَاكٌ، كَمَا قَالُوا: يَتِيمٌ وَأَيْتَامٌ، وَنَصِيرٌ وَأَنْصَارٌ [تهذيب اللغة، مادة(شرك)، والمصباح المنير، مادة(ش ر ك)].

الْكِتَابَيْنِ: التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ[٢٥]﴾يَعْنِي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ رُسُلَ اللهِ الَّذِينَ كَانُوا يُرْسَلُونَ إِلَيْهِمْ بِالنَّهْيِ عَمَّا يَأْتُونَ مِنْ مَعَاصِي اللهِ، وَرُكُوبِ مَا كَانُوا يَرْكَبُونَهُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي قَدْ تَقَدَّمَ اللهُ إِلَيْهِمْ فِي كُتُبِهِمْ بِالزَّجْرِ عَنْهَا، نَحْوَ زَكَرِيَّا وَابْنِهِ يَحْيَى، وَمَا أَشْبَهَهُمَا مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ.

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾يَعْنِي: وَيَقْتُلُونَ آمِرِيهِمْ بِالْعَدْلِ فِي أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ، الَّذِينَ يَنْهَوْنَهُمْ عَنْ قَتْلِ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَرُكُوبِ مَعَاصِيهِ.

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾يَعْنِي: فَأَخْبِرْهُمْ – يَا مُحَمَّدُ – وَأَعْلِمْهُمْ: أَنَّ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ عَذَابًا مُؤْلِمًا لَهُمْ؛ وَهُوَ الْمُوجِعُ!.

٢٢– ﴿أُولَئِكَ﴾الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ، هُمُ ﴿الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾يَعْنِي: بَطَلَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فَأَمَّا فِي الدُّنْيَا: فَلَمْ يَنَالُوا بِهَا مَحْمَدَةً وَلَا ثَنَاءً مِنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى ضَلَالٍ وَبَاطِلٍ، وَلَمْ يَرْفَعِ اللهُ لَهُمْ بِهَا ذِكْرًا، بَلْ لَعَنَهُمْ وَهَتَكَ أَسْتَارَهُمْ! وَأَبْدَى مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبَائِحِ أَعْمَالِهِمْ عَلَى أَلْسُنِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ فِي كُتُبِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَيْهِمْ، فَأَبْقَى لَهُمْ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا مَذَمَّةً! فَذَلِكَ حُبُوطُهَا فِي الدُّنْيَا!!.

وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ: فَإِنَّهُ أَعَدَّ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْعِقَابِ مَا وَصَفَ فِي كِتَابِهِ! وَأَعْلَمَ عِبَادَهُ أَنَّ أَعْمَالَهُمْ تَصِيرُ بُورًا لَا ثَوَابَ لَهَا؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ كُفْرًا بِاللهِ، فَجَزَاءُ أَهْلِهَا الْخُلُودُ فِي الْجَحِيمِ!!.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾يَعْنِي: وَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُهُمْ مِنَ اللهِ، إِذَا هُوَ انْتَقَمَ مِنْهُمْ بِمَا سَلَفَ مِنْ إِجْرَامِهِمْ وَاجْتِرَائِهِمْ عَلَيْهِ، فَيَسْتَنْقِذُهُمْ مِنْهُ!.

---

[٢٥] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا، وَإِمَامُ ضَلَالَةٍ، وَمُمَثِّلٌ مِنَ الْمُمَثِّلِينَ**» [حسن: رواه أحمد، والطبراني في الكبير؛ وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٠٠)، والصحيحة(٢٨١)].

٢٣- ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ - يَا مُحَمَّدُ - ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾يَقُولُ: الَّذِينَ أُعْطُوا حَظًّا مِنَ الْكِتَابِ، ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ[٢٦]﴾ وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي عَنَى اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ﴾فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ التَّوْرَاةُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ ذَلِكَ كِتَابُ اللهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ.

وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ عِنْدِي بِالصَّوَابِ، أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ - جَلَّ ثناؤُهُ - أَخْبَرَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ الْيَهُودِ - الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ ظَهْرَانَيْ مُهَاجَرِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي عَهْدِهِ، مِمَّنْ قَدْ أُوتِيَ عِلْمًا بِالتَّوْرَاةِ - أَنَّهُمْ دُعُوا إِلَى كِتَابِ اللهِ الَّذِي كَانُوا يُقِرُّونَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ - وَهُوَ التَّوْرَاةُ - فِي بَعْضِ مَا تَنَازَعُوا فِيهِ هُمْ وَرَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.[٢٧]

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾يَعْنِي: ثُمَّ يَسْتَدْبِرُ عَنْ كِتَابِ اللهِ الَّذِي دَعَا إِلَى حُكْمِهِ، مُعْرِضًا عَنْهُ مُنْصَرِفًا، وَهُوَ بِحَقِيقَتِهِ وَحُجَّتِهِ عَالِمٌ!.

وَإِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ هُوَ التَّوْرَاةُ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بِالْقُرْآنِ مُكَذِّبِينَ، وَبِالتَّوْرَاةِ - بِزَعْمِهِمْ - مُصَدِّقِينَ، فَكَانَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ بِمَا هُمْ بِهِ - فِي زَعْمِهِمْ - مُقِرُّونَ أَبْلَغَ، وَلِلْعُذْرِ أَقْطَعَ!.

٢٤- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يَعْنِي: بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ فِيمَا نَازَعُوا رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، إِنَّمَا أَبَوُا الْإِجَابَةَ فِي حُكْمِ التَّوْرَاةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْحَقِّ: مِنْ أَجْلِ قَوْلِهِمْ: ﴿لَنْ

---

[٢٦] قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الِاخْتِلَافُ وَاقِعًا فِيمَا بَيْنَهُمْ؛ لَا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

[٢٧] انظر التعليق السابق.

تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ[٢٨] ﴾ – وَهِيَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، وَهُنَّ الْأَيَّامُ الَّتِي عَبَدُوا فِيهَا الْعِجْلَ –، ثُمَّ يُخْرِجُنَا مِنْهَا رَبُّنَا؛ اغْتِرَارًا مِنْهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ، يَعْنِي: بِمَا كَانُوا يَخْتَلِقُونَ مِنَ الْأَكَاذِيبِ وَالْأَبَاطِيلِ، فِي ادِّعَائِهِمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ(!) وَأَنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَ أَبَاهُمْ يَعْقُوبَ أَنْ لَا يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْ وَلَدِهِ النَّارَ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ!! فَأَكْذَبَهُمُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ أَقْوَالِهِمْ، وَأَخْبَرَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، دُونَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ عِنْدِهِ!.

٢٥– ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾يَعْنِي: فَأَيُّ حَالٍ يَكُونُ حَالُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ قَالُوا هَذَا الْقَوْلَ، وَفَعَلُوا مَا فَعَلُوا مِنْ إِعْرَاضِهِمْ عَنْ كِتَابِ اللهِ، وَاغْتِرَارِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَافْتِرَائِهِمُ الْكَذِبَ؟!.

وَذَلِكَ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – وَعِيدٌ لَهُمْ شَدِيدٌ! وَتَهْدِيدٌ غَلِيظٌ!!.

وَإِنَّمَا يَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾: فَمَا أَعْظَمَ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ عُقُوبَةِ اللهِ وَتَنْكِيلِهِ بِهِمْ، إِذَا جَمَعَهُمْ لِيَوْمٍ يُوَفَّى كُلُّ عَامِلٍ جَزَاءَ عَمَلِهِ عَلَى قَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِ! غَيْرَ مَظْلُومٍ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُعَاقَبُ فِيهِ إِلَّا عَلَى مَا اجْتَرَمَ! وَلَا يُؤَاخَذُ إِلَّا بِمَا عَمِلَ! يُجْزَي الْمُحْسِنُ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءُ بِإِسَاءَتِهِ، لَا يَخَافُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ يَوْمَئِذٍ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا!.

وَأَمَّا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فَإِنَّهُ: لَا شَكَّ فِي مَجِيئِهِ.

[٢٨] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ!**» فَجُمِعُوا لَهُ، فَقَالَ: «**إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟**»، فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**مَنْ أَبُوكُمْ؟**»، قَالُوا: فُلَانٌ، فَقَالَ: «**كَذَبْتُمْ! بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ**»، قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالَ: «**فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟**»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا؛ عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا! فَقَالَ لَهُمْ: «**مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟**»، قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا!! فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**اخْسَئُوا فِيهَا! وَاللهِ لَا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا!!**» [صحيح: رواه البخاري، وأحمد؛ وغيرهما].

﴿وَوُفِّيَتْ﴾يَعْنِي: وَوَفَّى اللهُ ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾يَعْنِي مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾يَعْنِي: أَنَّهُ لَا يَبْخَسُ الْمُحْسِنَ جَزَاءَ إِحْسَانِهِ، وَلَا يُعَاقِبُ مُسِيئًا بِغَيْرِ جُرْمِهِ!.

٢٦- ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: يَا اللهُ ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾يَعْنِي: يَا مَالِكَ الْمُلْكِ، يَا مَنْ لَهُ مُلْكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ خَالِصًا دُونَ غَيْرِهِ ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مِنْ تَشَاءُ﴾يَعْنِي: تُعْطِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، فَتُمَلِّكُهُ وَتُسَلِّطُهُ عَلَى مَنْ تَشَاءُ، ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ أَنْ تَنْزِعَهُ مِنْهُ.

﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ بِإِعْطَائِهِ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ، وَبَسْطِ الْقُدْرَةِ لَهُ، ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ بِسَلْبِكَ مُلْكَهُ، وَتَسْلِيطِ عَدُوٍّ عَلَيْهِ! ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ[29] إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾أَيْ: كُلُّ ذَلِكَ بِيَدِكَ وَإِلَيْكَ ، لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ؛ لِأَنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، دُونَ سَائِرِ خَلْقِكَ، وَدُونَ مَنِ اتَّخَذَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْأُمِّيِّينَ مِنَ الْعَرَبِ إِلَهًا وَرَبًّا يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِكَ، كَالْمَسِيحِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي اتَّخَذَهَا الْأُمِّيُّونَ رَبًّا.

٢٧- ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾يَعْنِي: تُدْخِلُ مَا نَقَصْتَ مِنْ سَاعَاتِ اللَّيْلِ فِي سَاعَاتِ النَّهَارِ؛ فَتَزِيدُ مِنْ نُقْصَانِ هَذَا فِي زِيَادَةِ هَذَا، ﴿وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ وَتُدْخِلُ مَا نَقَصْتَ مِنْ سَاعَاتِ النَّهَارِ فِي سَاعَاتِ اللَّيْلِ؛ فَتَزِيدُ فِي سَاعَاتِ اللَّيْلِ مَا نَقَصْتَ مِنْ سَاعَاتِ النَّهَارِ.

---

[29] **قَالَ الْإِمَامُ السَّعْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَأَمَّا الشَّرُّ؛ فَإِنَّهُ لَا يُضَافُ إِلَى اللهِ – تَعَالَى -: لَا وَصْفًا، وَلَا اسْمًا، وَلَا فِعْلًا، وَلَكِنَّهُ يَدْخُلُ فِي مَفْعُولَاتِهِ، وَيَنْدَرِجُ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ.

فَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ، كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، فَلَا يَقَعُ فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا شَاءَهُ، وَلَكِنَّ الشَّرَّ لَا يُضَافُ إِلَى اللهِ، فَلَا يُقَالُ: (بِيَدِكَ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ!)؛ بَلْ يُقَالُ: (بِيَدِكَ الْخَيْرُ) كَمَا قَالَهُ اللهُ، وَقَالَهُ رَسُولُهُ.

وَأَمَّا اسْتِدْرَاكُ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ(!) حَيْثُ قَالَ: (وَكَذَلِكَ الشَّرُّ بِيَدِ اللهِ!)!! فَإِنَّهُ وَهْمٌ مَحْضٌ، مَلْحَظُهُمْ، حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّ تَخْصِيصَ الْخَيْرِ بِالذِّكْرِ، يُنَافِي قَضَاءَهُ وَقَدَرَهُ الْعَامَ، وَجَوَابُهُ مَا فَصَّلْنَا.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ الْحَيَّ وَالْأَنْعَامَ وَالْبَهَائِمَ الْأَحْيَاءَ مِنَ النُّطَفِ الْمَيِّتَةِ – وَذَلِكَ إِخْرَاجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ –، وَيُخْرِجُ النُّطْفَةَ الْمَيِّتَةَ مِنَ الْإِنْسَانِ الْحَيِّ وَالْأَنْعَامِ وَالْبَهَائِمِ الْأَحْيَاءِ – وَذَلِكَ إِخْرَاجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ –.

﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾يَعْنِي: أَنَّهُ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ فَيَجُودُ عَلَيْهِ، بِغَيْرِ مُحَاسَبَةٍ مِنْهُ لِمَنْ أَعْطَاهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَخَافُ دُخُولَ انْتِقَاصٍ فِي خَزَائِنِهِ، وَلَا الْفَنَاءَ عَلَى مَا بِيَدِهِ!.

٢٨– ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾وَهَذَا نَهْيٌ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا الْكُفَّارَ أَعْوَانًا وَأَنْصَارًا وَظُهُورًا.

وَمَعْنَى ذَلِكَ: لَا تَتَّخِذُوا – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – الْكُفَّارَ ظَهْرًا وَأَنْصَارًا: تُوَالُونَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ، وَتُظَاهِرُونَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَدُلُّونَهُمْ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾يَعْنِي: فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللهِ، وَبَرِئَ اللهُ مِنْهُ؛ بِارْتِدَادِهِ عَنْ دِينِهِ، وَدُخُولِهِ فِي الْكُفْرِ؛ ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾إِلَّا أَنْ تَكُونُوا فِي سُلْطَانِهِمْ فَتَخَافُوهُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَتُظْهِرُوا لَهُمُ الْوَلَايَةَ بِأَلْسِنَتِكُمْ[٣٠]، وَتُضْمِرُوا لَهُمُ الْعَدَاوَةَ، وَلَا تُشَايِعُوهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَلَا تُعِينُوهُمْ عَلَى مُسْلِمٍ بِفِعْلٍ!.

فَالتَّقِيَّةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّمَا هِيَ تَقِيَّةٌ مِنَ الْكُفَّارِ؛ لَا مِنْ غَيْرِهِمْ.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾يَعْنِي: وَيُخَوِّفُكُمُ اللهُ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ تَرْكَبُوا مَعَاصِيهِ، أَوْ تُوَالُوا أَعْدَاءَهُ؛ فَإِنَّ لِلَّهِ مَرْجِعَكُمْ وَمَصِيرَكُمْ بَعْدَ مَمَاتِكُمْ! وَيَوْمِ حَشْرِكُمْ لِمَوْقِفِ الْحِسَابِ!.

---

[٣٠] عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: «**إِنَّا لَنَكْشِرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ؛ وَإِنَّ قُلُوبَنَا لَتَلْعَنُهُمْ!!**» [أخرجه البيهقي في الشعب، وأبو نعيم في الحلية، وعلقه البخاري في صحيحه]. الْكَشْرُ: بُدُوُّ الْأَسْنَانِ عِنْدَ التَّبَسُّمِ.

وَاعْلَمْ – رَحِمَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ – أَنَّ التَّقِيَّةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا مَعَ خَوْفِ الْقَتْلِ أَوِ الْقَطْعِ أَوِ الْإِيذَاءِ الْعَظِيمِ؛ مَعَ سَلَامَةِ النِّيَّةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ**﴾، وَهِيَ رُخْصَةٌ مِنَ اللهُ – تَعَالَى –، فَلَوْ صَبَرَ حَتَّى قُتِلَ؛ فَلَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ!.

يَعْنِي بِذَلِكَ: مَتَى صِرْتُمْ إِلَيْهِ وَقَدْ خَالَفْتُمْ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَأَتَيْتُمْ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ مِنَ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ؛ نَالَكمْ مِنْ عِقَابِ رَبِّكُمْ مَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ!! يَقُولُ: فَاتَّقُوهُ وَاحْذَرُوهُ أَنْ يَنَالَكُمْ ذَلِكَ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ شَدِيدُ الْعَذَابِ!!.

٢٩- ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾يَعْنِي: قُلْ – يَا مُحَمَّدُ – لِلَّذِينَ أَمَرْتُهُمْ أَنْ لَا يَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ –: إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ مِنْ مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ فَتُسِرُّوهُ، أَوْ تُبْدُوا ذَلِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ فَتُظْهِرُوهُ، يَعْلَمْهُ اللهُ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ.

يَقُولُ: فَلَا تُضْمِرُوا لَهُمْ مَوَدَّةً، وَلَا تُظْهِرُوا لَهُمْ مُوَالَاةً؛ فَيَنَالَكُمْ مِنْ عُقُوبَةِ رَبِّكُمْ مَا لَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَعَلَانِيَتَكُمْ! فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ! وَهُوَ مُحْصِيهِ عَلَيْكُمْ حَتَّى يُجَازِيَكُمْ عَلَيْهِ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا، وَبِالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾يَعْنِي: أَنَّهُ إِذْ كَانَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ هُوَ فِي سَمَاءٍ أَوْ أَرْضٍ أَوْ حَيْثُ كَانَ، فَكَيْفَ يَخْفَى عَلَيْهِ – أَيُّهَا الْقَوْمُ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ – مَا فِي صُدُورِكُمْ مِنَ الْمِيلِ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَالْمَحَبَّةِ، أَوْ مَا تُبْدُونَهُ لَهُمْ بِالْمَعُونَةِ فِعْلًا وَقَوْلًا؟!.

﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾يَعْنِي: وَاللهُ قَدِيرٌ عَلَى مُعَاجَلَتِكُمْ بِالْعُقُوبَةِ عَلَى مُوَالَاتِكُمْ إِيَّاهُمْ وَمُظَاهِرَتِكُمُوهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَعَلَى مَا يَشَاءُ مِنَ الْأُمُورِ كُلِّهَا، لَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَرَادَهُ! وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ طَلَبَهُ!!.

٣٠- ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾يَعْنِي: وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ، فِي يَوْمٍ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا مُوَفَّرًا، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ، ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾يَعْنِي: غَايَةً بَعِيدَةً، فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ – أَيُّهَا الْقَوْمُ – يَوْمَئِذٍ إِلَيْهِ، فَاحْذَرُوهُ

عَلَى أَنْفُسِكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ!.[31]

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾يَقُولُ جَلَّ ثناؤُهُ: وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ: أَنْ تُسْخِطُوهَا عَلَيْكُمْ بِرُكُوبِكُمْ مَا يُسْخِطُهُ عَلَيْكُمْ، فَتُوَافُونَهُ - يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا - وَهُوَ عَلَيْكُمْ سَاخِطٌ، فَيَنَالُكُمْ مِنْ أَلِيمِ عِقَابِهِ مَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ!!.

ثُمَّ أَخْبَرَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنَّهُ رَءُوفٌ بِعِبَادِهِ رَحِيمٌ بِهِمْ، وَأَنَّ مِنْ رَأْفَتِهِ بِهِمْ: تَحْذِيرُهُ إِيَّاهُمْ نَفْسَهُ، وَتَخْوِيفُهُمْ عُقُوبَتَهُ، وَنَهْيُهُ إِيَّاهُمْ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ مِنْ مَعَاصِيهِ.

[31] **قَالَ الْإِمَامُ السَّعْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** فَلْيَحْذَرِ الْعَبْدُ مِنْ أَعْمَالِ السُّوءِ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ يَحْزَنَ عَلَيْهَا أَشَدَّ الْحُزْنِ!! وَلْيَتْرُكْهَا وَقْتَ الْإِمْكَانِ، قَبْلَ أَنْ يَقُولَ: **﴿يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾**، **﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾**، **﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾**، **﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾** فَوَاللهِ! لَتَرْكُ كُلِّ شَهْوَةٍ وَلَذَّةٍ - وَإِنْ عَسُرَ تَرْكُهَا عَلَى النَّفْسِ فِي هَذِهِ الدَّارِ - أَيْسَرُ مِنْ مُعَانَاةِ تِلْكَ الشَّدَائِدِ وَاحْتِمَالِ تِلْكَ الْفَضَائِحِ!!.

وَلَكِنَّ الْعَبْدَ - مِنْ ظُلْمِهِ وَجَهْلِهِ - لَا يَنْظُرُ إِلَّا الْأَمْرَ الْحَاضِرَ، فَلَيْسَ لَهُ عَقْلٌ كَامِلٌ يَلْحَظُ بِهِ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ، فَيُقْدِمُ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ عَاجِلًا وَآجِلًا وَيُحْجِمُ عَنْ مَا يَضُرُّهُ عَاجِلًا وَآجِلًا!.

٣١- ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ[٣٢] وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

يَعْنِي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْوَفْدِ مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ: إِنْ كُنْتُمْ كَمَا تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ تُحِبُّونَ اللهَ، وَأَنَّكُمْ تُعَظِّمُونَ الْمَسِيحَ وَتَقُولُونَ فِيهِ مَا تَقُولُونَ، حُبًّا مِنْكُمْ رَبَّكُمْ، فَحَقِّقُوا قَوْلَكُمُ الَّذِي تَقُولُونَهُ – إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ – بِاتِّبَاعِكُمْ إِيَّايَ؛ فَإِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي لِلَّهِ رَسُولٌ إِلَيْكُمْ، كَمَا كَانَ عِيسَى رَسُولًا إِلَى مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ إِنِ اتَّبَعْتُمُونِي وَصَدَّقْتُمُونِي عَلَى مَا أَتَيْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ يَغْفِرْ لَكُمْ

---

[٣٢] **قَالَ الْعَلَّامَةُ الْأَزْهَرِيُّ السَّلَفِيُّ مُحَمَّد خَلِيل هَرَّاس فِي شَرْحِ الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ:** وَمَحَبَّةُ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – لِبَعْضِ الْأَشْخَاصِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ؛ صِفَةٌ لَهُ قَائِمَةٌ بِهِ، وَهِيَ مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ الِاخْتِيَارِيَّةِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ، فَهُوَ يُحِبُّ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ دُونَ بَعْضٍ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ.

وَيَنْفِي الْأَشَاعِرَةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ صِفَةَ الْمَحَبَّةِ؛ بِدَعْوَى أَنَّهَا تُوهِمُ نَقْصًا! إِذِ الْمَحَبَّةُ فِي الْمَخْلُوقِ مَعْنَاهَا: مَيْلُهُ إِلَى مَا يُنَاسِبُهُ أَوْ يَسْتَلِذُّهُ!.

فَأَمَّا الْأَشَاعِرَةُ: فَيُرْجِعُونَهَا إِلَى صِفَةِ الْإِرَادَةِ؛ فَيَقُولُونَ: إِنَّ مَحَبَّةَ اللهِ لِعَبْدِهِ لَا مَعْنَى لَهَا إِلَّا إِرَادَتُهُ لِإِكْرَامِهِ وَمَثُوبَتِهِ!!.

وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي صِفَاتِ الرِّضَا وَالْغَضَبِ وَالْكَرَاهِيَةِ وَالسَّخَطِ؛ كُلُّهَا عِنْدَهُمْ بِمَعْنَى إِرَادَةِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ(!).

وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ: فَلِأَنَّهُمْ لَا يُثْبِتُونَ إِرَادَةً قَائِمَةً بِهِ؛ فَيُفَسِّرُونَ الْمَحَبَّةَ بِأَنَّهَا نَفْسُ الثَّوَابِ الْوَاجِبِ عِنْدَهُمْ عَلَى اللهِ لِهَؤُلَاءِ؛ بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي وُجُوبِ إِثَابَةِ الْمُطِيعِ وَعِقَابِ الْعَاصِي!!!.

وَأَمَّا أَهْلُ الْحَقِّ؛ فَيُثْبِتُونَ الْمَحَبَّةَ صِفَةً حَقِيقِيَّةً لِلَّهِ – عَزَّ وَجَلَّ – عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ، فَلَا تَقْتَضِي عِنْدَهُمْ نَقْصًا وَلَا تَشْبِيهًا!.

كَمَا يُثْبِتُونَ لَازِمَ تِلْكَ الْمَحَبَّةِ؛ وَهِيَ إِرَادَتُهُ سُبْحَانَهُ إِكْرَامَ مَنْ يُحِبُّهُ وَإِثَابَتَهُ.

وَلَيْتَ شِعْرِي! بِمَاذَا يُجِيبُ النَّافُونَ لِلْمَحَبَّةِ عَنْ مِثْلِ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أحبَّ عَبْدًا؛ قَالَ لِجِبْرِيلَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ –: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيَقُولُ جِبْرِيلُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لِأَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ رَبَّكُمْ – عَزَّ وَجَلَّ – يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَهُ فَمِثْلُ ذَلِكَ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ؟! اهـ.

وَمَحَبَّةُ اللهِ مَرْتَبَةٌ عَالِيَةٌ عَظِيمَةٌ! وَوَاللهِ إِنَّ مَحَبَّةَ اللهِ لَتُشْتَرَى بِالدُّنْيَا كُلِّهَا! وَهِيَ أَعْلَى مِنْ أَنْ تُحِبَّ اللهَ، فَكَوْنُ اللهِ يُحِبُّكَ أَعْلَى مِنْ أَنْ تُحِبَّهُ أَنْتَ!! كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْحُكَمَاءِ: لَيْسَ الشَّأْنُ أَنْ تُحِبَّ، إِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ تُحَبَّ! كُلٌّ يَدَّعِي أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ! لَكِنَّ الشَّأْنَ فِي الَّذِي فِي السَّمَاءِ – عَزَّ وَجَلَّ –: هَلْ يُحِبُّكَ، أَمْ لَا!؟.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ – وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ –: زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللهَ، فَابْتَلَاهُمُ اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ؛ فَقَالَ: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾.

قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ: يُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ عَلَامَةَ الْمَحَبَّةِ الصَّادِقَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هِيَ اتِّبَاعُهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَالَّذِي يُخَالِفُهُ وَيَدَّعِي أَنَّهُ يُحِبُّهُ؛ فَهُوَ كَاذِبٌ مُفْتَرٍ! إِذْ لَوْ كَانَ مُحِبًّا لَهُ؛ لَأَطَاعَهُ!!.

ذُنُوبَكُمْ، فَيَصْفَحَ لَكُمْ عَنِ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهَا، وَيَعْفُوَ لَكُمْ عَمَّا مَضَى مِنْهَا، فَإِنَّهُ غَفُورٌ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، رَحِيمٌ بِهِمْ وَبِغَيْرِهِمْ مِنْ خَلْقِهِ.

٣٢- ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ[٣٣]﴾يَعْنِي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْوَفْدِ مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ: أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ مُحَمَّدًا، فَإِنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ يَقِينًا أَنَّهُ رَسُولِي إِلَى خَلْقِي ابْتَعَثْتُهُ بِالْحَقِّ تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي الْإِنْجِيلِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاسْتَدْبَرُوا عَمَّا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَفَرَ بِجَحْدِ مَا عَرَفَ مِنَ الْحَقِّ، وَأَنْكَرَهُ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَأَنَّهُمْ مِنْهُمْ بِجُحُودِهِمْ نُبُوَّتَكَ وَإِنْكَارِهِمُ الْحَقَّ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِصِحَّةِ أَمْرِكَ وَحَقِيقَةِ نُبُوَّتِكَ.

٣٣- ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾يَعْنِي: إِنَّ اللهَ اجْتَبَى آدَمَ وَنُوحًا وَاخْتَارَهُمَا لِدِينِهِمَا، وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ لِدِينِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ الْإِسْلَامِ.

فَأَخْبَرَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – أَنَّهُ اخْتَارَ دِينَ مَنْ ذَكَرْنَا عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ الَّتِي خَالَفَتْهُ.

وَإِنَّمَا عَنَى بِآلِ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ عِمْرَانَ: الْمُؤْمِنِينَ.[٣٤]

٣٤- ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾يَعْنِي: أَنَّ اللهَ اصْطَفَى آلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾مَعْنَاهُ: ذُرِّيَّةٌ دِينُ بَعْضِهَا دِينُ بَعْضٍ، وَكَلِمَتُهُمْ وَاحِدَةٌ، وَمِلَّتُهُمْ وَاحِدَةٌ فِي تَوْحِيدِ اللهِ وَطَاعَتِهِ.

---

[٣٣] «وَإِنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا؛ دَعَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ! إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ! قَالَ: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، قَالَ: [فَيُنَادِي جِبْرِيلُ] فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ! قَالَ: فَيُبْغِضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ؛ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ!!» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد؛ وغيرهما].

[٣٤] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: آل الرَّجُلِ: أَتْبَاعُهُ وَقَوْمُهُ، وَمَنْ هُوَ عَلَى دِينِهِ.

﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾يَعْنِي: وَاللهُ ذُو سَمْعٍ لِقَوْلِ امْرَأَةِ عِمْرَانَ، وَذُو عِلْمٍ بِمَا تُضْمِرُهُ فِي نَفْسِهَا، إِذْ نَذَرَتْ لَهُ مَا فِي بَطْنِهَا مُحَرَّرًا.

٣٥- ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾ - هِيَ أُمُّ مَرْيَمَ ابْنَةِ عِمْرَانَ أُمِّ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ -: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾مَعْنَاهُ: إِنِّي جَعَلْتُ لَكَ - يَا رَبِّ - نَذْرًا أَنَّ لَكَ الَّذِي فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا لِعِبَادَتِكَ. يَعْنِي بِذَلِكَ: حَبَسْتُهُ عَلَى خِدْمَتِكَ وَخِدْمَةِ قُدُسِكَ فِي الْكَنِيسَةِ، عَتِيقَةً مِنْ خِدْمَةِ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاكَ، مُفَرَّغَةً لَكَ خَاصَّةً.

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ مَا نَذَرْتُ لَكَ - يَا رَبِّ - ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾ - يَا رَبِّ - ﴿السَّمِيعُ﴾ لِمَا أَقُولُ وَأَدْعُو، ﴿الْعَلِيمُ﴾ لِمَا أَنْوِي فِي نَفْسِي وَأُرِيدُ، لَا يَخْفَى عَلَيْكَ سِرُّ أَمْرِي وَعَلَانِيَتُهُ.

٣٦- ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾يَعْنِي: وَلَدَتْهَا، ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾أَيْ: وَلَدْتُ النَّذِيرَةَ أُنْثَى! ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾يَعْنِي: وَاللهُ أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ خَلْقِهِ بِمَا وَضَعَتْ. خَبَرًا مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عَنْ نَفْسِهِ: أَنَّهُ الْعَالِمُ بِمَا وَضَعَتْ، مِنْ غَيْرِ قِيلِهَا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾.

ثُمَّ رَجَعَ - جَلَّ ذِكْرُهُ - إِلَى الْخَبَرِ عَنْ قَوْلِهَا، وَأَنَّهَا قَالَتِ - اعْتِذَارًا إِلَى رَبِّهَا مِمَّا كَانَتْ نَذَرَتْ فِي حَمْلِهَا فَحَرَّرَتْهُ لِخِدْمَةِ رَبِّهَا -: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾؛ لِأَنَّ الذَّكَرَ أَقْوَى عَلَى الْخِدْمَةِ وَأَقْوَمَ بِهَا، وَأَنَّ الْأُنْثَى لَا تَصْلُحُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ لِدُخُولِ الْقُدْسِ وَالْقِيَامِ بِخِدْمَةِ الْكَنِيسَةِ؛ لِمَا يَعْتَرِيهَا مِنَ الْحَيْضِ وَالنِّفَاسِ! ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾.[٣٥]

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾تَعْنِي: وَإِنِّي أَجْعَلُ مُعَاذَهَا وَمُعَاذَ ذُرِّيَّتِهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِكَ.

---

[٣٥] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** ﴿**وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ**﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ التَّسْمِيَةِ يَوْمَ الْوِلَادَةِ كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ؛ لِأَنَّهُ شَرْعُ مَنْ قَبْلَنَا، وَقَدْ حُكِيَ مُقَرَّرًا، وَبِذَلِكَ ثَبَتَتِ السُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، حَيْثُ قَالَ: «**وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ غُلَامٌ فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ**» اهـ رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فَاسْتَجَابَ اللهُ لَهَا، فَأَعَاذَهَا اللهُ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَلَيْهَا سَبِيلًا:

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، يَقُولُ: «مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا قَدْ مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا بِمَسِّهِ إِيَّاهُ؛ غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.[٣٦]

٣٧- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾يَعْنِي: أَنَّ اللهَ – جَلَّ ثناؤُهُ – تَقَبَّلَ مَرْيَمَ مِنْ أُمِّهَا ...، وَتَحْرِيرَهَا إِيَّاهَا لِلْكَنِيسَةِ وَخِدْمَتِهَا، وَخِدْمَة رَبِّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾مَعْنَاهُ: وَأَنْبَتَهَا رَبُّهَا فِي غِذَائِهِ وَرِزْقِهِ نَبَاتًا حَسَنًا، حَتَّى تَمَّتْ فَكَمُلَتِ امْرَأَةً بَالِغَةً تَامَّةً.

﴿وَكَفَّلَهَا[٣٧] زَكَرِيَّا﴾يَعْنِي: وَكَفَّلَهَا اللهُ زَكَرِيَّا، بِمَعْنَى: وَضَمَّهَا اللهُ إِلَيْهِ.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ[٣٨] وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا[٣٩]﴾يَعْنِي: أَنَّ زَكَرِيَّا كَانَ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ – بَعْدَ إِدْخَالِهِ إِيَّاهَا الْمِحْرَابَ – وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا مِنَ اللهِ لِغِذَائِهَا.

---

[٣٦] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد؛ وغيرهم.

[٣٧] قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ: الْكَافِلُ: هُوَ الَّذِي يَعُولُ إِنْسَانًا وَيُنْفِقُ عَلَيْهِ.

[٣٨] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَمَّا الْمِحْرَابُ: فَهُوَ مُقَدَّمُ كُلِّ مَجْلِسٍ وَمُصَلًّى، وَهُوَ سَيِّدُ الْمَجَالِسِ وَأَشْرَفُهَا وَأَكْرَمُهَا، وَكَذَلِكَ هُوَ مِنَ الْمَسَاجِدِ.

[٣٩] قَالَ فِي تَفْسِيرِ الْمَنَارِ: قَوْلُهُ: ﴿**وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا**﴾، قَالُوا: كَانَ يَجِدُ عِنْدَهَا فَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ، وَفَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ!!.

وَاللهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ، وَلَا قَالَهُ رَسُولُهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَلَا هُوَ مِمَّا يُعْرَفُ بِالرَّأْيِ! وَلَمْ يُثْبِتْهُ تَارِيخٌ يُعْتَدُّ بِهِ، وَالرِّوَايَاتُ عَنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ مُتَعَارِضَةٌ؛ وَفِي أَسَانِيدِهَا مَا فِيهَا!!.

ثُمَّ نَقَلَ عَنْ شَيْخِهِ: إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ سَائِغًا يَسْهُلُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فَهْمُهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى عَنَاءٍ وَلَا ذَهَابٍ فِي الدِّفَاعِ عَنْ شَيْءٍ خِلَافَ الظَّاهِرِ! فَعَلَيْنَا أَلَّا نَخْرُجَ عَنْ سُنَّتِهِ، **وَلَا نُضِيفَ إِلَيْهِ حِكَايَاتٍ إِسْرَائِيلِيَّةً أَوْ غَيْرَ إِسْرَائِيلِيَّةٍ لِجَعْلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ**(!) وَالْبَحْثُ عَنْ ذَلِكَ الرِّزْقِ: مَا هُوَ؟ وَمِنْ أَيْنَ جَاءَ؟ فُضُولٌ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ لِفَهْمِ الْمَعْنَى وَلَا لِمَزِيدِ الْعِبْرَةِ!! وَلَوْ عَلِمَ اللهُ أَنَّ فِي بَيَانِهِ خَيْرًا لَنَا؛ لَبَيَّنَهُ!.

﴿قَالَ﴾ زَكَرِيَّا: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾؟ مِنْ أَيِّ وَجْهٍ لَكِ هَذَا الَّذِي أَرَى عِنْدَكَ مِنَ الرِّزْقِ؟ ﴿قَالَتْ﴾ مَرْيَم مُجِيبَةً لَهُ: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ[40]﴾تَعْنِي: أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي رَزَقَهَا ذَلِكَ فَسَاقَهُ إِلَيْهَا وَأَعْطَاهَا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ فَخَبَرٌ مِنَ اللهِ أَنَّهُ يَسُوقُ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ رِزْقَهُ بِغَيْرِ إِحْصَاءٍ وَلَا عَدَدٍ يُحَاسِبُ عَلَيْهِ عَبْدَهُ؛ لِأَنَّهُ - جَلَّ ثناؤُهُ - لَا يَنْقُصُ سَوْقُهُ ذَلِكَ إِلَيْهِ كَذَلِكَ خَزَائِنَهُ، وَلَا يَزِيدُ إِعْطَاؤُهُ إِيَّاهُ، وَمُحَاسَبَتُهُ عَلَيْهِ فِي مُلْكِهِ، وَفِيمَا لَدَيْهِ شَيْئًا، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ عِلْمُ مَا يَرْزُقُهُ، وَإِنَّمَا يُحَاسِبُ مَنْ يُعْطِي مَا يُعْطِيهِ، مَنْ يَخْشَى النُّقْصَانَ مِنْ مُلْكِهِ، [وَدُخُولَ النَّفَادِ عَلَيْهِ][41] بِخُرُوجِ مَا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ بِغَيْرِ حِسَابٍ مَعْرُوفٍ، وَمَنْ كَانَ جَاهِلًا بِمَا يُعْطَى عَلَى غَيْرِ حِسَابٍ!!.

٣٨- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾مَعْنَاهُ: عِنْدَ ذَلِكَ، أَيْ: عِنْدَ رُؤْيَةِ زَكَرِيَّا مَا رَأَى عِنْدَ مَرْيَمَ مِنْ رِزْقِ اللهِ الَّذِي رَزَقَهَا، وَفَضْلِهِ الَّذِي آتَاهَا مِنْ غَيْرِ تَسَبُّبِ أَحَدٍ مِنَ الْآدَمِيِّينَ فِي ذَلِكَ لَهَا...؛ طَمِعَ فِي الْوَلَدِ مَعَ كِبَرِ سِنِّهِ مِنَ الْمَرْأَةِ الْعَاقِرِ، فَرَجَا أَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ مِنْهَا الْوَلَدَ مَعَ الْحَالِ الَّتِي هُمَا بِهَا، كَمَا رَزَقَ مَرْيَمَ عَلَى تَخَلِّيهَا مِنَ النَّاسِ مَا رَزَقَهَا...فَرَغِبَ إِلَى اللهِ - جَلَّ ثناؤُهُ - فِي الْوَلَدِ، وَسَأَلَهُ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي بِالذُّرِّيَّةِ: النَّسْلَ، وَبِالطَّيِّبَةِ: الْمُبَارَكَةَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: مِنْ عِنْدِكَ.

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ مَعْنَاهُ: إِنَّكَ سَامِع الدُّعَاءِ.

---

[40] قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: قَوْلُهَا: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ اللهُ - تَعَالَى - يُنْزِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَيْهَا، بَلْ قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ بِتَسْخِيرِ اللهِ لَهَا مَنْ يَأْتِي لَهَا بِذَلِكَ الرِّزْقِ، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ يَأْتِيَ بِهِ جِبْرِيلُ!.

[41] قَارِن بِطَبْعَةِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر.

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ: فَعِنْدَ ذَلِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ؛ فَقَالَ: رَبِّ هَبْ لِي مِنْ عِنْدِكَ وَلَدًا مُبَارَكًا، إِنَّكَ ذُو سَمْعٍ دُعَاءَ مَنْ دَعَاكَ.

٣٩- ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾: الظَّاهِرُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ دُونَ الْوَاحِدِ.

﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾: فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ فِي حَالِ قِيَامِهِ مُصَلِّيًا: ﴿أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى[٤٢]﴾يَعْنِي: أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ - يَا زَكَرِيَّا - بِيَحْيَى ابْنًا لَكَ ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ﴾يَعْنِي: بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ.

﴿وَسَيِّدًا [٤٣]﴾يَعْنِي: وَشَرِيفًا فِي الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ، ﴿وَحَصُورًا[٤٤]﴾يَعْنِي: مُمْتَنِعًا مِنْ جِمَاعِ النِّسَاءِ.[٤٥]

---

[٤٢] **قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ:** وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: اسْمُهُ يَحْيَى، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي سَمَّاهُ، وَلَمْ يَكِلْ تَسْمِيَتَهُ إِلَى أَبِيهِ؛ وَفِي هَذَا مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِيَحْيَى! اهـ.

قُلْتُ: مِنْ فَضَائِلِ يَحْيَى - عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قَالَ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلَّا وَقَدْ أَخْطَأَ، أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ؛ لَيْسَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا**» [صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الكبير، والحاكم؛ وأورده الألباني في الصحيحة(٢٩٨٤)، وقال أحمد شاكر في تعليقه على المسند(٢٢٩٤): إسناده صحيح].

[٤٣] قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ: سَيِّدُ الْقَوْمِ: رَئِيسُهُمْ وَأَكْرَمُهُمْ.

[٤٤] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** حَصِرْتُ مِنْ كَذَا أُحْصَرُ: إِذَا امْتَنَعَ مِنْهُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: حَصِرَ فُلَانٌ فِي قِرَاءَتِهِ: إِذَا امْتَنَعَ مِنَ الْقِرَاءَةِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا، وَكَذَلِكَ حَصْرُ الْعَدُوِّ: حَبْسُهُمُ النَّاسَ وَمَنْعُهُمْ إِيَّاهُمُ التَّصَرُّفَ، وَلِذَلِكَ قِيلَ لِلَّذِي لَا يَخْرُجُ مَعَ نُدَمَائِهِ شَيْئًا: حَصُورٌ...وَأَصْلُ جَمِيعِ ذَلِكَ وَاحِدٌ؛ وَهُوَ: الْمَنْعُ وَالْحَبْسُ.

[٤٥] **قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ:** وَالتَّحْقِيقُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿**وَحَصُورًا**﴾، أَنَّهُ الَّذِي حَصَرَ نَفْسَهُ عَنِ النِّسَاءِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى إِتْيَانِهِنَّ تَبَتُّلًا مِنْهُ، وَانْقِطَاعًا لِعِبَادَةِ اللهِ، وَكَانَ ذَلِكَ جَائِزًا فِي شَرْعِهِ، وَأَمَّا سُنَّةُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ فَهِيَ التَّزْوِيجُ وَعَدَمُ التَّبَتُّلِ.

أَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْحَصُورَ فَعُولٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، وَأَنَّهُ مَحْصُورٌ عَنِ النِّسَاءِ؛ لِأَنَّهُ عِنِّينٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِتْيَانِهِنَّ؛ فَلَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لِأَنَّ الْعُنَّةَ عَيْبٌ وَنَقْصٌ فِي الرِّجَالِ، وَلَيْسَتْ مِنْ فِعْلِهِ حَتَّى يُثْنَى عَلَيْهِ بِهَا!! فَالصَّوَابُ - إِنْ شَاءَ اللهُ -: هُوَ مَا ذَكَرْنَا، وَاخْتَارَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ اهـ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ: أَنَّهُ كَانَ عَاجِزًا عَنْ إِتْيَانِ النِّسَاءِ؛ فَهُوَ قَوْلٌ فَاسِدٌ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ صِفَاتِ النُّقْصَانِ! وَذِكْرُ صِفَةِ النُّقْصَانِ فِي مَعْرِضِ الْمَدْحِ لَا يَجُوزُ!! وَلِأَنَّ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ لَا يَسْتَحِقُّ بِهِ ثَوَابًا وَلَا تَعْظِيمًا!.

﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾يَعْنِي: رَسُولًا لِرَبِّهِ إِلَى قَوْمِهِ؛ يُنْبِئُهُمْ عَنْهُ بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، وَيُبَلِّغُهُمْ عَنْهُ مَا أَرْسَلَهُ بِهِ إِلَيْهِمْ.

وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: مِنْ أَنْبِيَائِهِ الصَّالِحِينَ.

٤٠- ﴿قَالَ﴾يَعْنِي: أَنَّ زَكَرِيَّا قَالَ - إِذْ نَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ: ﴿أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ -: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ[٤٦] وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ[٤٧]﴾؟ يَعْنِي: مَنْ بَلَغَ مِنَ السِّنِّ مَا بَلَغْتُ؛ لَمْ يُولَدْ لَهُ! ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾وَالْعَاقِرُ مِنَ النِّسَاءِ: الَّتِي لَا تَلِدُ.[٤٨]

[٤٦] قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ فِي التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ: وَقَوْلُهُ: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ اسْتِفْهَامٌ مُرَادٌ مِنْهُ التَّعَجُّبُ، قُصِدَ مِنْهُ تَعَرُّفُ إِمْكَانِ الْوَلَدِ، لِأَنَّهُ لَمَّا سَأَلَ الْوَلَدَ فَقَدْ تَهَيَّأَ لِحُصُولِ ذَلِكَ فَلَا يَكُونُ قَوْلُهُ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ إِلَّا تَطَلُّبًا لِمَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ ذَلِكَ عَلَى وَجْهٍ يُحَقِّقُ لَهُ الْبِشَارَةَ، وَلَيْسَ مِنَ الشَّكِّ فِي صِدْقِ الْوَعْدِ، وَهُوَ كَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ اهـ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ مَنْ كَانَ آيِسًا مِنَ الشَّيْءِ مُسْتَبْعِدًا لِحُصُولِهِ وَوُقُوعِهِ إِذَا اتَّفَقَ أَنْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ الْمَقْصُودُ فَرُبَّمَا صَارَ كَالْمَدْهُوشِ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ؛ فَيَقُولُ: كَيْفَ حَصَلَ هَذَا؟! وَمِنْ أَيْنَ وَقَعَ هَذَا؟! كَمَنْ يَرَى إِنْسَانًا وَهَبَهُ أَمْوَالًا عَظِيمَةً، يَقُولُ: كَيْفَ وَهَبْتَ هَذِهِ الْأَمْوَالَ!!؟ وَمِنْ أَيْنَ سَمَحَتْ نَفْسُكَ بِهِبَتِهَا!!؟ فَكَذَا هَاهُنَا: لَمَّا كَانَ زَكَرِيَّا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مُسْتَبْعِدًا لِذَلِكَ، ثُمَّ اتَّفَقَ إِجَابَةُ اللهِ - تَعَالَى - إِلَيْهِ؛ صَارَ مِنْ عِظَمِ فَرَحِهِ وَسُرُورِهِ قَالَ ذَلِكَ الْكَلَامَ!!.

[٤٧] **قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ:** ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾، لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا الْقَدْرَ الَّذِي بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي سُورَةِ (مَرْيَمَ) أَنَّهُ بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - عَنْهُ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ وَالْعِتِيُّ: الْيُبْسُ وَالْقُحُولُ فِي الْمَفَاصِلِ وَالْعِظَامِ مِنْ شِدَّةِ الْكِبَرِ.

[٤٨] **قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ:** وَقَدْ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى أَنَّهُ أَزَالَ عَنْهَا الْعُقْمَ، وَأَصْلَحَهَا، فَجَعَلَهَا وَلُودًا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ عَاقِرًا فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾، فَهَذَا الْإِصْلَاحُ هُوَ كَوْنُهَا صَارَتْ تَلِدُ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ عَقِيمًا.

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ إِصْلَاحَهَا الْمَذْكُورَ هُوَ جَعْلُهَا حَسَنَةَ الْخُلُقِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ سَيِّئَةَ الْخُلُقِ؛ لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ؛ لِجَوَازِ أَنْ يَجْمَعَ لَهُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فِيهَا، مَعَ أَنَّ كَوْنَ الْإِصْلَاحِ هُوَ جَعْلُهَا وَلُودًا بَعْدَ الْعُقْمِ هُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَغَيْرِهِمْ، وَالْقَوْلُ الثَّانِي يُرْوَى عَنْ عَطَاءٍ.

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾يَعْنِي جَلَّ ثناؤُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ اللهُ﴾أَيْ: هُوَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ أَنَّهُ هَيِّنٌ عَلَيْهِ أَنْ يَخْلُقَ وَلَدًا مِنَ الْكَبِيرِ الَّذِي قَدْ يَئِسَ مِنَ الْوَلَدِ، وَمِنَ الْعَاقِرِ الَّتِي لَا يُرْجَى مِنْ مِثْلِهَا الْوِلَادَةُ، كَمَا خَلَقَكَ يَا زَكَرِيَّا – مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الْوَلَدِ مِنْكَ – وَلَمْ تَكُ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ اللهُ الَّذِي لَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ خَلْقُ شَيْءٍ أَرَادَهُ! وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فِعْلُ شَيْءٍ شَاءَهُ؛ لِأَنَّ قُدْرَتَهُ الْقُدْرَةُ الَّتِي لَا يُشْبِهُهَا قُدْرَةٌ!!.

٤١- ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً[٤٩] قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾يَعْنِي: قَالَ اللهُ – جَلَّ ثناؤُهُ – لِزَكَرِيَّا: يَا زَكَرِيَّا! آيَتُكَ أَنْ لَا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا بِغَيْرِ خَرَسٍ، وَلَا عَاهَةٍ، وَلَا مَرَضٍ.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا[٥٠]﴾فَإِنَّكَ لَا تُمْنَعُ ذِكْرَهُ، وَلَا يُحَالُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ تَسْبِيحِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ ذِكْرِهِ.

﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾يَعْنِي: عَظِّمْ رَبَّكَ بِعِبَادَتِهِ بِالْعَشِيِّ، وَالْعَشِيُّ: مِنْ حِينِ تَزُولُ الشَّمْسُ إِلَى أَنْ تَغِيبَ.

وَأَمَّا الْإِبْكَارُ: مِنْ بَيْنِ مَطْلَعِ الْفَجْرِ إِلَى وَقْتِ الضُّحَى.

٤٢- ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ﴾يَعْنِي: اخْتَارَكِ وَاجْتَبَاكِ لِطَاعَتِهِ، وَمَا خَصَّكِ بِهِ مِنْ كَرَامَتِهِ. ﴿وَطَهَّرَكِ﴾يَعْنِي: طَهَّرَ دِينَكِ مِنَ الرِّيَبِ وَالْأَدْنَاسِ الَّتِي فِي أَدْيَانِ نِسَاءِ بَنِي آدَمَ!.

---

[٤٩] **قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ(سُورَة مَرْيَم)**: الْمُرَادُ بِالْـ(آيَةِ) هُنَا: الْعَلَامَةُ، أَي: اجْعَلْ لِي عَلَامَةً أَعْلَمُ بِهَا وُقُوعَ مَا بُشِّرْتُ بِهِ مِنَ الْوَلَدِ، قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: طَلَبَ الْآيَةَ عَلَى ذَلِكَ لِتَتِمَّ طُمَأْنِينَتُهُ بِوُقُوعِ مَا بُشِّرَ بِهِ...وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْعَلَّامَةِ: أَنْ يَعْرِفَ ابْتِدَاءَ حَمْلِ امْرَأَتِهِ؛ لِأَنَّ الْحَمْلَ فِي أَوَّلِ زَمَنِهِ يَخْفَى.

قَالَ الْإِمَامُ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿**قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً**﴾أَيْ: عَلَامَةً أَعْلَمُ بِهَا وَقْتَ حَمْلِ امْرَأَتِي.

[٥٠] قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: اعْلَمْ أَنَّ قُدْرَةَ زَكَرِيَّا – عَلَيْهِ السَّلَامُ – عَلَى التَّكَلُّمِ بِالتَّسْبِيحِ وَالذِّكْرِ، وَعَجْزَهُ عَنِ التَّكَلُّمِ بِأُمُورِ الدُّنْيَا: مِنْ أَعْظَمِ الْمُعْجِزَاتِ!.

﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾يَعْنِي: اخْتَارَكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ فِي زَمَانِكَ، بِطَاعَتِكِ إِيَّاهُ، فَفَضَّلَكِ عَلَيْهِمْ؛ كَمَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، أَنَّهُ قَالَ: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ».[51]

يَعْنِي بِقَوْلِهِ: «خَيْرُ نِسَائِهَا»: خَيْرُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَعٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ».[52]

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ: إِلَّا مَرْيَمُ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ».[53]

٤٣- ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾يَعْنِي: أَخْلِصِي الطَّاعَةَ لِرَبِّكِ وَحْدَهُ.

﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾يَعْنِي: وَاخْشَعِي لِطَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ مَعَ مَنْ خَشَعَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ؛ شُكْرًا لَهُ عَلَى مَا أَكْرَمَكِ بِهِ مِنَ الِاصْطِفَاءِ وَالتَّطْهِيرِ مِنَ الْأَدْنَاسِ، وَالتَّفْضِيلِ عَلَى نِسَاءِ عَالَمِ دَهْرِكِ.

٤٤- ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾يَعْنِي جَلَّ ثناؤُهُ بِقَوْلِهِ ﴿ذَلِكَ﴾: الْأَخْبَارَ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا عِبَادَهُ عَنِ امْرَأَةِ عِمْرَانَ وَابْنَتِهَا مَرْيَمَ، وَزَكَرِيَّا وَابْنِهِ يَحْيَى، وَسَائِرَ مَا قَصَّ فِي الْآيَاتِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللهَ

---

[51] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي؛ وغيرهم.

[52] صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، والطبراني في الكبير؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٣٣٢٨)، والتعليقات الحسان (٦٩١٢).

[53] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي، وابن ماجة؛ وغيرهم.

اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا﴾ثُمَّ جَمَعَ جَمِيعَ ذَلِكَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ﴾، فَقَالَ: هَذِهِ الْأَنْبَاءُ ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾أَيْ: مِنْ أَخْبَارِ الْغَيْبِ. وَيَعْنِي بِالْغَيْبِ: أَنَّهَا مِنْ خَفِيِّ أَخْبَارِ الْقَوْمِ الَّتِي لَمْ تَطَّلِعْ أَنْتَ – يَا مُحَمَّدُ – عَلَيْهَا وَلَا قَوْمُكَ، وَلَمْ يَعْلَمْهَا إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ أَحْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ وَرُهْبَانِهِمْ.

ثُمَّ أَخْبَرَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ أَوْحَى ذَلِكَ إِلَيْهِ: حُجَّةً عَلَى نُبُوَّتِهِ، وَتَحْقِيقًا لِصِدْقِهِ، وَقَطْعًا مِنْهُ بِهِ عُذْرَ مُنْكِرِي رِسَالَتِهِ مِنْ كُفَّارِ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ، الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَصِلْ إِلَى عِلْمِ هَذِهِ الْأَنْبَاءِ – مَعَ خَفَائِهَا –، وَلَمْ يُدْرِكْ مَعْرِفَتَهَا – مَعَ خُمُولِهَا عِنْدَ أَهْلِهَا –؛ إِلَّا بِإِعْلَامِ اللهِ ذَلِكَ إِيَّاهُ، إِذْ كَانَ مَعْلُومًا عِنْدَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أُمِّيٌّ لَا يَكْتُبُ فَيَقْرَأُ الْكُتُبَ، فَيَصِلُ إِلَى عِلْمِ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ الْكُتُبِ، وَلَا صَاحَبَ أَهْلَ الْكِتَابِ فَيَأْخُذُ عِلْمَهُ مِنْ قِبَلِهِمْ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾فَإِنَّ تَأْوِيلَهُ: نُنَزِّلُهُ إِلَيْكَ.

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾يَعْنِي: وَمَا كُنْتَ – يَا مُحَمَّدُ – عِنْدَهُمْ، فَتَعْلَمَ مَا نُعَلِّمُكَهُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ الَّتِي لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَكِنَّكَ إِنَّمَا تَعْلَمُ ذَلِكَ فَتُدْرِكُ مَعْرِفَتَهُ، بِتَعْرِيفِنَاكَهُ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِذْ يُلْقُونَ﴾: حِينَ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ.[٥٤]

وَأَمَّا أَقْلَامَهُمْ: فَسِهَامُهُمُ الَّتِي اسْتَهَمَ بِهَا الْمُتسَهِمُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى كَفَالَةِ مَرْيَمَ.

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾يَعْنِي: وَمَا كُنْتَ – يَا مُحَمَّدُ – عِنْدَ قَوْمِ مَرْيَمَ، إِذْ يَخْتَصِمُونَ فِيهَا أَيُّهُمْ أَحَقُّ بِهَا وَأَوْلَى.

---

[٥٤] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: اقْتَرَعُوا فَجَرَتِ الْأَقْلَامُ مَعَ الْجِرْيَةِ، وَعَالَ قَلَمُ زَكَرِيَّا الْجِرْيَةَ، فَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا [رواه البخاري معلقا بصيغة الجزم، والبيهقي في الكبرى].

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْفَتْحِ: وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمُ اقْتَرَعُوا عَلَى كَفَالَةِ مَرْيَمَ أَيُّهُمْ يَكْفُلُهَا، فَأَخْرَجَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَلَمًا وَأَلْقَوْهَا كُلَّهَا فِي الْمَاءِ، فَجَرَتْ أَقْلَامُ الْجَمِيعِ مَعَ الْجِرْيَةِ إِلَى أَسْفَلَ وَارْتَفَعَ قَلَمُ زَكَرِيَّا فَأَخَذَهَا.

وَذَلِكَ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – وَإِنْ كَانَ خِطَابًا لِنَبِيِّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَتَوْبِيخٌ مِنْهُ – عَزَّ وَجَلَّ – لِلْمُكَذِّبِينَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ.

يَقُولُ: كَيْفَ يَشُكُّ أَهْلُ الْكُفْرِ بِكَ مِنْهُمْ وَأَنْتَ تُنْبِئُهُمْ هَذِهِ الْأَنْبَاءَ وَلَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ يَوْمَ فَعَلُوا هَذِهِ الْأُمُورَ، وَلَسْتَ مِمَّنْ قَرَأَ الْكُتُبَ فَعَلِمَ نَبَأَهُمْ، وَلَا جَالِسَ أَهْلَهَا فَسَمِعَ خَبَرَهُمْ؟!.

٤٥– ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ يَعْنِي: وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ – أَيْضًا – إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَا مَرْيَمُ! إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ. وَالتَّبْشِيرُ: إِخْبَارُ الْمَرْءِ بِمَا يَسُرُّهُ مِنْ خَبَرٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ يَعْنِي: بِرِسَالَةٍ مِنَ اللهِ، وَخَبَرٍ مِنْ عِنْدِهِ.

فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: وَمَا كُنْتَ – يَا مُحَمَّدُ – عِنْدَ الْقَوْمِ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمَ: يَا مَرْيَمُ! إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِبُشْرَى مِنْ عِنْدِهِ، هِيَ وَلَدٌ لَكِ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ.

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿وَجِيهًا﴾: ذَا وَجْهٍ وَمَنْزِلَةٍ عَالِيَةٍ عِنْدَ اللهِ، وَشَرَفٍ وَكَرَامَةٍ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي: أَنَّهُ مِمَّنْ يُقَرِّبُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُسْكِنُهُ فِي جِوَارِهِ، وَيُدْنِيهِ مِنْهُ.

٤٦– ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ مَعْنَاهُ: أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَجِيهًا عِنْدَ اللهِ، وَمُكَلِّمًا النَّاسَ فِي الْمَهْدِ.

وَأَمَّا الْمَهْدُ: فَإِنَّهُ يَعْنِي بِهِ: مَضْجَعَ الصَّبِيِّ فِي رَضَاعِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَكَهْلًا[٥٥]﴾ فَإِنَّهُ: وَمُحْتَنِكًا[٥٦] فَوْقَ الْغُلُومَةِ، وَدُونَ الشَّيْخُوخَةِ.

---

[٥٥] قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ: الْكَهْلُ: مَنْ جَاوَزَ الثَّلَاثِينَ وَوَخَطَهُ الشَّيْبُ، وَقِيلَ: مَنْ بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ.

[٥٦] الْمُحْتَنَكُ وَالْمُحَنَّكُ: الرَّجُلُ التَّامُّ الْعَقْلِ حَنَّكَتْهُ التَّجَارِبُ وَالسِّنُّ [المحيط في اللغة].

وَإِنَّمَا عَنَى جَلَّ ثناؤُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا[٥٧]﴾: وَيُكَلِّمُ النَّاسَ طِفْلًا فِي الْمَهْدِ، دَلَالَةً عَلَى بَرَاءَةِ أُمِّهِ مِمَّا قَرَفَهَا بِهِ الْمُفْتَرُونَ عَلَيْهَا! وَحُجَّةً لَهُ عَلَى نُبُوَّتِهِ، وَبَالِغًا كَبِيرًا بَعْدَ احْتِنَاكِهِ، بِوَحْيِ اللهِ الَّذِي يُوحِيهِ إِلَيْهِ، وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَمَا يَنْزِلُ[٥٨] عَلَيْهِ مِنْ كِتَابِهِ.

وَأَمَّا قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: مِنْ عِدَادِهِمْ وَأَوْلِيَائِهِمْ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الصَّلَاحِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ فِي الدِّينِ وَالْفَضْلِ.

٤٧- ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثناؤُهُ: قَالَتْ مَرْيَمُ – إِذْ قَالَتْ لَهَا الْمَلَائِكَةُ: إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ –: رَبِّ! أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ: مِنْ أَيِّ وَجْهٍ يَكُونُ لِي وَلَدٌ؟ أَمِنْ قِبَلِ زَوْجٍ أَتَزَوَّجُهُ وَبَعْلٍ أَنْكِحُهُ؟ أَمْ تَبْتَدِئُ فِيَّ خَلْقه مِنْ غَيْرِ بَعْلٍ وَلَا فَحْلٍ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَمَسَّنِي بِشَرٌ؟

---

[٥٧] **قَالَ الْإِمَامُ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** قِيلَ لِلْحُسَيْنِ بْنِ الْفَضْلِ: هَلْ تَجِدُ نُزُولَ عِيسَى فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ نَعَمْ: ﴿**وَكَهْلًا**﴾ وَلَمْ يَكْتَهِلْ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: وَكَهْلًا بَعْدَ نُزُولِهِ مِنَ السَّمَاءِ اهـ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ** (وَفِي رِوَايَةٍ: **لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**) **حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ! حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا!!**»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿**وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا**﴾[صحيح: رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجة؛ وغيرهم].

وَعَنْهُ – أيضًا – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**[أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ]، وَإِنَّهُ نَازِلٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ: رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ؛ وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ! فَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَيُهْلِكُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يُتَوَفَّى فَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ**» [رواه أحمد، وأبو داود – واللفظ له –، وابن حبان في صحيحه – وما بين المعقوفين له ولأحمد –؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٢١٨٢)، وصحيح الجامع(٥٣٨٩)، والتعليقات الحسان(٦٧٨٢)، وصحيح أبي داود(٤٣٢٤)].

قُلْتُ: فَهَذَانَ الْحَدِيثَانِ الصَّحِيحَانِ فِيهِمَا الدَّلَالَةُ – الْوَاضِحَةُ الْقَاطِعَةُ – عَلَى أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ – عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – سَيَنْزِلُ إِلَى الْأَرْضِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ بَعْدَ إِذْ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ.

[٥٨] قَارِن بِطَبْعَةِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر.

فَقَالَ اللهُ لَهَا: ﴿كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾يَعْنِي: هَكَذَا يَخْلُقُ اللهُ مِنْكِ وَلَدًا لَكِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمَسَّكِ بشَرٌ، فَيَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَعِبْرَةً، فَإِنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَصْنَعُ مَا يُرِيدُ، فَيُعْطِي الْوَلَدَ مَنْ شَاءَ مِنْ غَيْرِ فَحْلٍ وَمِنْ فَحْلٍ، وَيَحْرِمُ ذَلِكَ مَنْ يَشَاءُ مِنَ النِّسَاءِ وَإِنْ كَانَتْ ذَاتَ بَعْلٍ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ خَلْقُ شَيْءٍ أَرَادَ خَلْقَهُ! إِنَّمَا هُوَ أَنْ يَأْمُرَ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا مَا ...، فَيَقُولُ لَهُ: (كُنْ)؛ فَيَكُونُ مَا شَاءَ، مِمَّا يَشَاءُ، وَكَيْفَ شَاءَ.

٤٨- ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾هَذَا ابْتِدَاءُ خَبَرٍ مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لِمَرْيَمَ مَا هُوَ فَاعِلٌ بِالْوَلَدِ الَّذِي بَشَّرَهَا بِهِ مِنَ الْكَرَامَةِ وَرِفْعَةِ الْمَنْزِلَةِ وَالْفَضِيلَةِ، فَقَالَ: كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مِنْكِ وَلَدًا، مِنْ غَيْرِ فَحْلٍ وَلَا بَعْلٍ، فَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ: وَهُوَ الْخَطُّ الَّذِي يُخُطُّهُ بِيَدِهِ، وَالْحِكْمَةَ: وَهِيَ السُّنَّةُ الَّتِي يُوحِيهَا إِلَيْهِ فِي غَيْرِ كِتَابٍ، وَالتَّوْرَاة: وَهِيَ التَّوْرَاةُ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى، كَانَتْ فِيهِمْ مِنْ عَهْدِ مُوسَى، وَالْإِنْجِيل: إِنْجِيلُ عِيسَى، وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ، وَلَكِنَّ اللهَ أَخْبَرَ مَرْيَمَ قَبْلَ خَلْقِ عِيسَى أَنَّهُ مُوحِيهِ إِلَيْهِ.

٤٩- ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾يَعْنِي: وَنَجْعَلُهُ رَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنَّهُ نَبِيِّي وَبَشِيرِي وَنَذِيرِي؛ وَحُجَّتِي عَلَى صِدْقِي عَلَى ذَلِكَ: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾يَعْنِي: بِعَلَامَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ تُحَقِّقُ قَوْلِي، وَتُصَدِّقُ خَبَرِي أَنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّكُمْ إِلَيْكُمْ.

ثُمَّ بَيَّنَ عَنِ الْآيَةِ مَا هِيَ، فَقَالَ: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ﴾.[٥٩]

[٥٩] كَانَ يُصَوِّرُ مِنَ الطِّينِ شَكْلَ طَيْرٍ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ، فَيَطِيرُ عِيَانًا بِإِذْنِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - [قاله ابن كثير].

﴿وَأُبْرِئُ﴾يَعْنِي: وَأُشْفِي ﴿الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ[٦٠]﴾. وَالْمَعْرُوفُ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ مَعْنَى الْكَمَهِ: الْعَمَى.[٦١]

وَإِنَّمَا أَخْبَرَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – عَنْ عِيسَى – صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ –، أَنَّهُ يَقُولُ ذَلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ؛ احْتِجَاجًا مِنْهُ بِهَذِهِ الْعِبَرِ وَالْآيَاتِ عَلَيْهِمْ فِي نُبُوَّتِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْكَمَهَ وَالْبَرَصَ لَا عِلَاجَ لَهُمَا، فَيَقْدِرَ عَلَى إِبْرَائِهِ ذُو طِبٍّ بِعِلَاجٍ، فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَدِلَّتِهِ عَلَى صِدْقِ قِيلِهِ: إِنَّهُ لِلَّهِ رَسُولٌ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ، مَعَ سَائِرِ الْآيَاتِ الَّتِي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهَا دَلَالَةً عَلَى نُبُوَّتِهِ.

﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ[٦٢]﴾وَكَانَ إِحْيَاءُ عِيسَى الْمَوْتَى بِدُعَاءِ اللهِ، يَدْعُو لَهُمْ، فَيَسْتَجِيبُ لَهُ.

﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: وَأُخْبِرُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ مِمَّا لَمْ أُعَايِنْهُ وَأُشَاهِدْهُ مَعَكُمْ فِي وَقْتِ أَكْلِكُمُوهُ ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾يَعْنِي: وَمَا تَرْفَعُونَهُ فَتُخَبِّئُونَهُ وَلَا تَأْكُلُونَهُ.

---

[٦٠] **(الْبَرَصُ)**: بَيَاضٌ يَظْهَرُ فِي ظَاهِرِ الْبَدَنِ لِفَسَادِ مِزَاجٍ، وَهُوَ مَرَضٌ غَيْرُ مُعْدٍ [القاموس المحيط، وغيره].

[٦١] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: فَأَمَّا مَا قَالَ عِكْرِمَةُ: مِنْ أَنَّ الْكَمَهَ الْعَمَشُ، وَمَا قَالَهُ مُجَاهِدٌ: مِنْ أَنَّهُ سُوءُ الْبَصَرِ بِاللَّيْلِ، فَلَا مَعْنَى لَهُمَا؛ لِأَنَّ اللهَ لَا يَحْتَجُّ عَلَى خَلْقِهِ بِحُجَّةٍ تَكُونُ لَهُمُ السَّبِيلُ إِلَى مُعَارَضَتِهِ فِيهَا، وَلَوْ كَانَ مِمَّا احْتَجَّ بِهِ عِيسَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي نُبُوَّتِهِ أَنَّهُ يُبْرِئُ الْأَعْمَشَ، أَوِ الَّذِي يُبْصِرُ بِالنَّهَارِ وَلَا يُبْصِرُ بِاللَّيْلِ؛ لَقَدَرُوا عَلَى مُعَارَضَتِهِ، بِأَنْ يَقُولُوا: وَمَا فِي هَذَا لَكَ مِنَ الْحُجَّةِ، وَفِينَا خَلْقٌ مِمَّا يُعَالِجُ ذَلِكَ وَلَيْسُوا لِلَّهِ أَنْبِيَاءَ وَلَا رُسُلًا؟! **فَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ بَيِّنَةٌ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْنَا مِنْ أَنَّ الْأَكْمَهَ: هُوَ الْأَعْمَى الَّذِي لَا يُبْصِرُ شَيْئًا؛ لَا لَيْلًا وَلَا نَهَارًا**، وَهُوَ بِمَا قَالَ قَتَادَةُ: مِنْ أَنَّهُ الْمَوْلُودُ كَذَلِكَ أَشْبَهُ؛ لِأَنَّ عِلَاجَ مِثْلِ ذَلِكَ لَا يَدَّعِيهِ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ؛ إِلَّا مَنْ أَعْطَاهُ اللهُ مِثْلَ الَّذِي أَعْطَى عِيسَى، وَكَذَلِكَ عِلَاجُ الْأَبْرَصِ.

[٦٢] **مَعْنَاهُ**: إِخْرَاجُهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ أَحْيَاءً بِمَشِيئَةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: **﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾**.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: بَعَثَ اللهُ كُلَّ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِمُعْجِزَةٍ تُنَاسِبُ أَهْلَ زَمَانِهِ، فَكَانَ الْغَالِبُ عَلَى زَمَانِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – السِّحْرُ وَتَعْظِيمُ السَّحَرَةِ، فَبَعَثَهُ اللهُ بِمُعْجِزَةٍ بَهَرَتِ الْأَبْصَارَ وَحَيَّرَتْ كُلَّ سَحَّارٍ! فَلَمَّا اسْتَيْقَنُوا أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ الْعَظِيمِ الْجَبَّارِ؛ انْقَادُوا لِلْإِسْلَامِ، وَصَارُوا مِنَ الْأَبْرَارِ.

وَأَمَّا عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –: فَبُعِثَ فِي زَمَنِ الْأَطِبَّاءِ وَأَصْحَابِ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ، فَجَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ بِمَا لَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَيْهِ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُؤَيَّدًا مِنَ الَّذِي شَرَعَ الشَّرِيعَةَ! فَمِنْ أَيْنَ لِلطَّبِيبِ قُدْرَةٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْجَمَادِ! أَوْ عَلَى مُدَاوَاةِ الْأَكْمَهِ، وَالْأَبْرَصِ، وَبَعْثِ مَنْ هُوَ فِي قَبْرِهِ رَهِينٌ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ؟!!. وَكَذَلِكَ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: بَعَثَهُ اللهُ فِي زَمَنِ الْفُصَحَاءِ وَالْبُلَغَاءِ وَنَحَارِيرِ الشُّعَرَاءِ، فَأَتَاهُمْ بِكِتَابٍ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – لَوِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، أَوْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِنْ مِثْلِهِ، أَوْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ؛ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَبَدًا؛ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا!! وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ كَلَامَ الرَّبِّ لَا يُشْبِهُهُ كَلَامَ الْخَلْقِ أَبَدًا.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ﴾يَعْنِي: إِنَّ فِي خَلْقِي مِنَ الطِّينِ الطَّيْرَ بِإِذْنِ اللهِ، وَفِي إِبْرَائِي الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَإِحْيَائِي الْمَوْتَى، وَإِنْبَائِي إِيَّاكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ – ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ وَتَنْجِيمٍ، وَلَا كَهَانَةٍ وَعِرَافَةٍ – لَعِبْرَةً لَكُمْ وَمُتَفَكَّرًا، تَتَفَكَّرُونَ فِي ذَلِكَ، فَتَعْتَبِرُونَ بِهِ أَنِّي مُحِقٌّ فِي قَوْلِي لَكُمْ: إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّكُمْ إِلَيْكُمْ، وَتَعْلَمُونَ بِهِ أَنِّي فِيمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ – مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ – صَادِقٌ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾يَعْنِي: إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِينَ حُجَجَ اللهِ وَآيَاتِهِ، مُقِرِّينَ بِتَوْحِيدِهِ، وَبِنَبِيِّهِ مُوسَى وَالتَّوْرَاةِ الَّتِي جَاءَكُمْ بِهَا.

٥٠– ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾يَعْنِي: وَبِأَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَجِئْتُكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ.

وَإِنَّمَا قِيلَ: ﴿وَمُصَدَّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾؛ لِأَنَّ عِيسَى – صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ – كَانَ مُؤْمِنًا بِالتَّوْرَاةِ مُقِرًّا بِهَا، وَأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَكَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ كُلُّهُمْ، يُصَدِّقُونَ بِكُلِّ مَا كَانَ قَبْلَهُمْ مِنْ كُتُبِ اللهِ وَرُسُلِهِ، وَإِنِ اخْتَلَفَ بَعْضُ شَرَائِعِ أَحْكَامِهِمْ، لِمُخَالَفَةِ اللهِ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ.

مَعَ أَنَّ عِيسَى كَانَ – فِيمَا بَلَغَنَا – عَامِلًا بِالتَّوْرَاةِ، لَمْ يُخَالِفْ شَيْئًا مِنْ أَحْكَامِهَا، إِلَّا مَا خَفَّفَ اللهُ عَنْ أَهْلِهَا فِي الْإِنْجِيلِ مِمَّا كَانَ مُشَدَّدًا عَلَيْهِمْ فِيهَا.

﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾يَعْنِي: وَجِئْتُكُمْ بِحُجَّةٍ وَعِبْرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، تَعْلَمُونَ بِهَا حَقِيقَةَ مَا أَقُولُ لَكُمْ.

﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ – يَا مَعْشَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ – فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُوسَى، فَأَوْفُوا بِعَهْدِهِ الَّذِي عَاهَدْتُمُوهُ فِيهِ، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فِيمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ مِنْ تَصْدِيقِي فِيمَا أَرْسَلَنِي بِهِ إِلَيْكُمْ، رَبِّي وَرَبُّكُمْ.

٥١- ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾يَعْنِي: أَطِيعُونِ فِيمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ مِنْ تَصْدِيقِي فِيمَا أَرْسَلَنِي بِهِ إِلَيْكُمْ، رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، فَإِنَّهُ بِذَلِكَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ، وَبِإِحْلَالِ بَعْضِ مَا كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِكُمْ، وَذَلِكَ هُوَ الطَّرِيقُ الْقَوِيمُ، وَالْهُدَى الْمَتِينُ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ.

٥٢- ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾يَعْنِي: فَلَمَّا وَجَدَ عِيسَى - مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ - جُحُودًا لِنُبُوَّتِهِ، وَتَكْذِيبًا لِقَوْلِهِ، وَصَدًّا عَمَّا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ اللهِ؛ ﴿قَالَ﴾: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ[٦٣] ﴾يَعْنِي: قَالَ عِيسَى: مَنْ أَعْوَانِي عَلَى الْمُكَذِّبِينَ بِحُجَّةِ اللهِ، وَالْمُوَلِّينَ عَنْ دِينِهِ، وَالْجَاحِدِينَ نُبُوَّةَ نَبِيِّهِ إِلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -؟.[٦٤]

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ[٦٥]نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ صِفَتُهُمْ مَا ذَكَرْنَا مِنْ تَبْيِيضِهِمُ الثِّيَابَ: ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾: صَدَّقْنَا بِاللهِ، ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾يعني: وَاشْهَدْ أَنْتَ يَا عِيسَى بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ.

---

[٦٣] وَهَذَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ، فَيَقُولُ: «**أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؟ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي!**» [صحيح: رواه أحمد، والبخاري في خلق أفعال العباد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في الصحيحة(١٩٤٧)، وغيرها].

[٦٤] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿**إِلَى اللهِ**﴾ مَعَ اللهِ، وَإِنَّمَا حَسُنَ أَنْ يُقَالَ: إِلَى اللهِ، بِمَعْنَى: مَعَ اللهِ؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْعَرَبِ إِذَا ضَمُّوا الشَّيْءَ إِلَى غَيْرِهِ، ثُمَّ أَرَادُوا الْخَبَرَ عَنْهُمَا بِضَمِّ أَحَدِهِمَا مَعَ الْآخَرِ إِذَا ضُمَّ إِلَيْهِ، جَعَلُوا مَكَانَ (مَعَ)، (إِلَى) أَحْيَانًا.

[٦٥] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَشْبَهُ الْأَقْوَالِ الَّتِي ذَكَرْنَا فِي مَعْنَى الْحَوَارِيِّينَ، قَوْلُ مَنْ قَالَ: سُمُّوا بِذَلِكَ: لِبَيَاضِ ثِيَابِهِمْ، وَلِأَنَّهُمْ كَانُوا غَسَّالِينَ، وَذَلِكَ أَنَّ الْحَوَرَ عِنْدَ الْعَرَبِ: شِدَّةُ الْبَيَاضِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْحُوَّارَى مِنَ الطَّعَامِ حُوَّارَى: لِشِدَّةِ بَيَاضِهِ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلرَّجُلِ الشَّدِيدِ الْبَيَاضِ مُقْلَةِ الْعَيْنَيْنِ: أَحْوَرُ، وَلِلْمَرْأَةِ: حَوْرَاءُ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَوَارِيُّو عِيسَى كَانُوا سُمُّوا بِالَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ تَبْيِيضِهِمُ الثِّيَابَ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا قَصَّارِينَ، فَعُرِفُوا بِصُحْبَةِ عِيسَى، وَاخْتِيَارِهِ إِيَّاهُمْ لِنَفْسِهِ أَصْحَابًا وَأَنْصَارًا، فَجَرَى ذَلِكَ الِاسْمُ لَهُمْ، وَاسْتُعْمِلَ، حَتَّى صَارَ كُلُّ خَاصَّةٍ لِلرَّجُلِ مِنْ أَصْحَابِهِ وَأَنْصَارِهِ حَوَارِيَّهُ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ، وَحَوَارِيَّ: الزُّبَيْرُ**» يَعْنِي خَاصَّتَهُ اهـ. [قُلْتُ: الْحَدِيثُ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو جَعْفَرٍ، هُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا].

قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ: لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا الْحِكْمَةَ فِي ذِكْرِ قِصَّةِ الْحَوَارِيِّينَ مَعَ عِيسَى، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي سُورَةِ (الصَّفِّ) أَنَّ حِكْمَةَ ذِكْرِ قِصَّتِهِمْ هِيَ أَنْ تَتَأَسَّى بِهِمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي نُصْرَةِ اللهِ وَدِينِهِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ**﴾ الْآيَةَ.

وَهَذَا خَبَرٌ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينُهُ الَّذِي ابْتَعَثَ بِهِ عِيسَى وَالْأَنْبِيَاءَ قَبْلَهُ؛ لَا النَّصْرَانِيَّةَ وَلَا الْيَهُودِيَّةَ! وَتُبْرِئَةٌ مِنَ اللهِ لِعِيسَى مِمَّنِ انْتَحَلَ النَّصْرَانِيَّةَ وَدَانَ بِهَا، كَمَا بَرَأَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ سَائِرِ الْأَدْيَانِ غَيْرِ الْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ احْتِجَاجٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – لِنَبِيِّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَى وَفْدِ نَجْرَانَ.[٦٦]

٥٣– ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾وَهَذَا خَبَرٌ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – عَنِ الْحَوَارِيِّينَ، أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾أَيْ: صَدَّقْنَا ﴿بِمَا أَنْزَلْتَ﴾عَلَى نَبِيِّكَ عِيسَى مِنْ كِتَابِكَ ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾يَعْنِي: صِرْنَا أَتْبَاعَ عِيسَى عَلَى دِينِكَ الَّذِي ابْتَعَثْتَهُ بِهِ، وَأَعْوَانَهُ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ بِهِ إِلَى عِبَادِكَ؛ ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ[٦٧]﴾يَقُولُ: فَأَثْبِتْ أَسْمَاءَنَا مَعَ أَسْمَاءِ الَّذِينَ شَهِدُوا بِالْحَقِّ، وَأَقَرُّوا لَكَ بِالتَّوْحِيدِ، وَصَدَّقُوا رُسُلَكَ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَكَ وَنَهْيَكَ، فَاجْعَلْنَا فِي عِدَادِهِمْ وَمَعَهُمْ فِيمَا تُكْرِمُهُمْ بِهِ مِنْ كَرَامَتِكَ، وَأَحِلَّنَا مَحَلَّهُمْ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِمَّنْ كَفَرَ بِكَ، وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِكَ، وَخَالَفَ أَمْرَكَ وَنَهْيَكَ.

يُعَرِّفُ خَلْقَهُ – جَلَّ ثناؤُهُ – بِذَلِكَ سَبِيلَ الَّذِينَ رَضِيَ أَقْوَالَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ؛ لِيَحْتَذُوا طَرِيقَهُمْ، وَيَتَّبِعُوا مِنْهَاجَهُمْ، فَيَصِلُوا إِلَى مِثْلِ الَّذِي وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ دَرَجَاتِ كَرَامَتِهِ.

وَيُكَذِّبُ بِذَلِكَ الَّذِينَ انْتَحَلُوا مِنَ الْمِلَلِ غَيْرَ الْحَنِيفِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ، فِي دَعْوَاهُمْ عَلَى أَنْبِيَاءِ اللهِ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى غَيْرِهَا.

وَيَحْتَجُّ بِهِ عَلَى الْوَفْدِ الَّذِينَ حَاجُّوا رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ: بِأَنَّ قِيلَ مَنْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ أَتْبَاعِ عِيسَى كَانَ خِلَافَ قِيلِهِمْ، وَمِنْهَاجُهُمْ غَيْرُ مِنْهَاجِهِمْ!.

---

[٦٦] (**نَجْرَانُ**): مَدِينَةٌ بِالْحِجَازِ مِنْ شِقِّ الْيَمَنِ مَعْرُوفَةٌ، سُمِّيَتْ بِاسْمِ بَانِيهَا: نَجْرَانَ بْنِ زَيْدِ بْنِ يَشْجُبَ بْنِ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطَانَ [معجم ما استعجم، والمصباح المنير].

[٦٧] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، فِي قَوْلِهِ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿**فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ قَالَ: «مَعَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَأُمَّتُهُ شَهِدُوا لَهُ بِالْبَلَاغِ، وَشَهِدُوا لِلرُّسُلِ أَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا» [أخرجه الطبراني في الكبير، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي، والضياء في المختارة].

٥٤- ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ[٦٨]﴾ يَعْنِي: وَمَكَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُمُ الَّذِينَ ذَكَرَ اللهُ أَنَّ عِيسَى أَحَسَّ مِنْهُمُ الْكُفْرَ.

وَكَانَ مَكْرُهُمُ الَّذِي وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ: مُوَاطَأَةَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا عَلَى الْفَتْكِ بِعِيسَى وَقَتْلِهِ!.

وَأَمَّا مَكْرُ اللهِ بِهِمْ: فَإِنَّهُ إِلْقَاؤُهُ شَبَهَ عِيسَى عَلَى بَعْضِ أَتْبَاعِهِ، حَتَّى قَتَلَهُ الْمَاكِرُونَ بِعِيسَى، وَهُمْ يَحْسَبُونَهُ عِيسَى! وَقَدْ رَفَعَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عِيسَى قَبْلَ ذَلِكَ.

---

[٦٨] ﴿**وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ يَعْنِي: أَعْظَمُهُمْ وَأَسْرَعُهُمْ مَكْرًا. فَاللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - خَيْرُ الْمَاكِرِينَ؛ لأَنَّ مَكْرَهُ نَصْرٌ لِلْحَقِّ، وَإِعْزَازٌ لِأَهْلِهِ، وَخِذْلَانٌ لِلْبَاطِلِ وَحِزْبِهِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِثْبَاتُ صِفَةِ الْمَكْرِ للهِ - تَعَالَى - عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ؛ لِأَنَّهُ مَكْرٌ بِحَقٍّ، وَفِي مُقَابَلَةِ مَكْرِ الْمَاكِرِينَ.

وَطَرِيقَةُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا: إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ، أَوْ أَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي صَحِيحِ سُنَّتِهِ؛ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ؛ وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى: وَيَعْلَمُونَ - يَعْنِي السَّلَفَ - أَنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَيُنَزِّهُونَ اللهَ عَنْ صِفَاتِ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ، وَيُثْبِتُونَ لَهُ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ كُفُؤٌ أَحَدٌ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، قَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الْخُزَاعِيُّ: مَنْ شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِهِ؛ فَقَدْ كَفَرَ! وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ؛ فَقَدْ كَفَرَ! وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهًا. وَاللهُ أَعْلَمُ اهـ.

"إِذَنْ نَقُولُ: يَجِبُ أَنْ نَصِفَ اللهَ بِمَا وَصَفَ بِه نَفْسَهُ مِنَ الْمَكْرِ فِي الْحَالِ الَّتِي وَصَفَ اللهُ نَفْسَهُ فِيهَا بِالْمَكْرِ، وَذَلِكَ فِي مُقَابَلَةِ مَكْرِ أَعْدَائِهِ" [قاله ابن عثيمين].

قُلْتُ: وَقَدْ فسَّر بَعْضُ السَّلَفِ مَكْرَ اللهِ بِعِبَادِهِ بِأَنَّهُ اسْتِدْرَاجُهُمْ بالنِّعم مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، فَكُلَّما أَحْدَثُوا ذَنْبًا؛ أَحْدَثَ لَهُمْ نِعْمَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ**﴾، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ؛ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ**» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ**﴾ [صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الكبير والأوسط؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٤١٣)، وصحيح الجامع(٥٦١)، والمشكاة(٥٢٠١)].

قُلْتُ: وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ...**» [صحيح: رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، والنسائي في الكبرى، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٣٤٨٥)، وصحيح الأدب المفرد(٥١٧)، والتعليقات الحسان(٩٤٣)، وقال أحمد شاكر في تعليقه على المسند (١٩٩٧): إسناده صحيح].

٥٥- ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ[٦٩]﴾ يَعْنِي: وَمَكَرَ اللهُ بِالْقَوْمِ الَّذِينَ حَاوَلُوا قَتْلَ عِيسَى – مَعَ كُفْرِهِمْ بِاللهِ، وَتَكْذِيبِهِمْ عِيسَى فِيمَا أَتَاهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ – إِذْ قَالَ اللهُ – جَلَّ ثناؤُهُ –: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ فَتَوَفَّاهُ وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى (الْوَفَاةِ) الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

وَأَوْلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِالصِّحَّةِ عِنْدَنَا؛ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ: إِنِّي قَابِضُكَ مِنَ الْأَرْضِ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ[٧٠]؛ لِتَوَاتُرِ الْأَخْبَارِ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ قَالَ: «يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيُقْتَلُ الدَّجَّالَ» ثُمَّ يَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ مُدَّة ذَكَرَهَا – اخْتَلَفَتِ الرِّوَايَةُ فِي مَبْلَغِهَا –، ثُمَّ يَمُوتُ، فَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَيَدْفِنُونَهُ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ؛ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى أُمَّتِي، وَإِنَّهُ نَازِلٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ: فَإِنَّهُ رَجُلٌ مَرْبُوعُ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، سَبْطُ

---

[٦٩] وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾ دَلِيلٌ عَلَى عُلُوِّ اللهِ – تَعَالَى – وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ حَقِيقَةً، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ وَالْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ السُّنَّةِ بِالْقَبُولِ وَالْإِيمَانِ وَالتَّسْلِيمِ [قاله الإمام السعدي في تفسيره، مع تصرف يسير].

[٧٠] فَالْحَقُّ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ الْبَيِّنَةُ، وَتَظَاهَرَتْ عَلَيْهِ الْبَرَاهِينُ: أَنَّ عِيسَى – عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ حَيًّا، وَأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ؛ بَلْ لَمْ يَزَلْ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – حَيًّا فِي السَّمَاءِ، إِلَى أَنْ يَنْزِلَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَعْنِ بِذَلِكَ الْمَوْتَ؛ إِذْ لَوْ أَرَادَ بِذَلِكَ الْمَوْتَ؛ لَكَانَ عِيسَى فِي ذَلِكَ كَسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ! فَإِنَّ اللهَ يَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمْ وَيَعْرُجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَعُلِمَ أَنْ لَيْسَ فِي ذَلِكَ خَاصِّيَّةٌ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿**وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ وَلَوْ كَانَ قَدْ فَارَقَتْ رُوحُهُ جَسَدَهُ لَكَانَ بَدَنُهُ فِي الْأَرْضِ كَبَدَنِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ**﴾ فَقَوْلُهُ هُنَا: ﴿**بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ**﴾ يُبَيِّنُ أَنَّهُ رَفَعَ بَدَنَهُ وَرُوحَهُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ يَنْزِلُ بَدَنُهُ وَرُوحُهُ؛ إِذْ لَوْ أُرِيدَ مَوْتُهُ؛ لَقَالَ: وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ؛ بَلْ مَاتَ! فَقَوْلُهُ: ﴿**بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ**﴾ يُبَيِّنُ أَنَّهُ رَفَعَ بَدَنَهُ وَرُوحَهُ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ يَنْزِلُ بَدَنُهُ وَرُوحُهُ. وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنَ الْعُلَمَاءِ: ﴿**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ**﴾ أَيْ: قَابِضُكَ، أَيْ: قَابِضُ رُوحِكَ وَبَدَنِكَ.

الشَّعْرِ؛ كَأَنَّ شَعْرَهُ يَقْطُرُ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ! بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ، يَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيُفِيضُ الْمَالَ، وَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الْإِسْلَامِ؛ حَتَّى يُهْلِكَ اللهُ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا، وَيُهْلِكَ اللهُ فِي زَمَانِهِ مَسِيحَ الضَّلَالَةِ الْكَذَّابَ الدَّجَّالَ! وَتَقَعُ فِي الْأَرْضِ الْأَمَنَةُ حَتَّى تَرْتَعَ الْأُسُودُ مَعَ الْإِبِلِ، وَالنَّمِرُ مَعَ الْبَقَرِ، وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ، وَتَلْعَبُ الْغِلْمَانُ بِالْحَيَّاتِ، لَا يَضُرُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا!! فَيَثْبُتُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يُتَوَفَّى وَيُصَلِّي الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ وَيَدْفِنُونَهُ».[٧١]

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَوْ كَانَ قَدْ أَمَاتَهُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –، لَمْ يَكُنْ بِالَّذِي يُمِيتُهُ مِيتَةً أُخْرَى، فَيَجْمَعُ عَلَيْهِ مِيتَتَيْنِ؛ لِأَنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – إِنَّمَا أَخْبَرَ عِبَادَهُ أَنَّهُ يَخْلُقُهُمْ ثُمَّ يُمِيتُهُمْ، ثُمَّ يُحْيِيهِمْ، كَمَا قَالَ – جَلَّ ثناؤُهُ –: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ إِذًا: قَالَ اللهُ لِعِيسَى: يَا عِيسَى! إِنِّي قَابِضُكَ مِنَ الْأَرْضِ، وَرَافِعُكَ إِلَيَّ، وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَجَحَدُوا نُبُوَّتَكَ.

وَهَذَا الْخَبَرُ وَإِنْ كَانَ مَخْرَجُهُ مَخْرَجَ خَبَرٍ؛ فَإِنَّ فِيهِ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – احْتِجَاجًا عَلَى الَّذِينَ حَاجُّوا رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي عِيسَى مِنْ وَفْدِ نَجْرَانَ بِأَنَّ عِيسَى لَمْ يُقْتَلْ وَلَمْ يُصْلَبْ كَمَا زَعَمُوا! وَأَنَّهُمْ وَالْيَهُودَ – الَّذِينَ أَقَرُّوا بِذَلِكَ وَادَّعُوا عَلَى عِيسَى – كَذَبَةٌ فِي دَعْوَاهُمْ وَزَعْمِهِمْ!!.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَعْنِي: مُنَظِّفُكَ، فَمُخَلِّصُكَ مِمَّنْ كَفَرَ بِكَ، وَجَحَدَ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ مِنَ الْيَهُودِ وَسَائِرِ الْمِلَلِ غَيْرِهَا.

---

[٧١] صحيح: رواه أحمد، وأبو داود ، وابن حبان في صحيحه؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٢١٨٢)، وانظر: قصة المسيح الدجال، له. غَرِيبُ الْحَدِيثِ: (**رَجُلٌ مَرْبُوعٌ**) أَيْ: مُعْتَدِلُ الْقَامَةِ؛ لَا طَوِيلًا وَلَا قَصِيرًا، (**إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ**)أَيْ: مَائِلًا لَوْنُهُ إِلَيْهِمَا، فَلَمْ يَكُنْ شَدِيدَ الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ؛ بَلْ كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْبَيَاضِ الْمُشْرَبِ بِالْحُمْرَةِ، (**سَبْطُ الشَّعْرِ**)السَّبْطُ: الشَّعْرُ الْمُسْتَرْسِلُ الَّذِي لَا جُعُودَةَ فِيهِ، (**بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ**)قَالَ فِي النِّهَايَةِ: الْمُمَصَّرَةُ مِنَ الثِّيَابِ: الَّتِي فِيهَا صُفْرَةٌ خَفِيفَةٌ، أَيْ: يَنْزِلُ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – بَيْنَ ثَوْبَيْنِ فِيهِمَا صُفْرَةٌ خَفِيفَةٌ.

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾يَعْنِي: وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ عَلَى مِنْهَاجِكَ وَمِلَّتِكَ مِنَ الْإِسْلَامِ وَفِطْرَتِهِ، فَوْقَ الَّذِينَ جَحَدُوا نُبُوَّتَكَ، وَخَالَفُوا بِسَبِيلِهِمْ جَمِيعَ أَهْلِ الْمِلَلِ، فَكَذَّبُوا بِمَا جِئْتَ بِهِ وَصَدُّوا عَنِ الْإِقْرَارِ بِهِ، فَمُصَيِّرُهُمْ فَوْقَهُمْ ظَاهِرِينَ عَلَيْهِمْ.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ﴾يَعْنِي: ثُمَّ إِلَى اللهِ – أَيُّهَا الْمُخْتَلِفُونَ فِي عِيسَى – ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾يَعْنِي: مَصِيرُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾يَقُولُ: فَأَقْضِي حِينَئِذٍ بَيْنَ جَمِيعِكُمْ فِي أَمْرِ عِيسَى بِالْحَقِّ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾مِنْ أَمْرِهِ.

٥٦- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾يَعْنِي: فَأَمَّا الَّذِينَ جَحَدُوا نُبُوَّتَكَ – يَا عِيسَى –، وَخَالَفُوا مِلَّتَكَ، وَكَذَّبُوا بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، وَقَالُوا فِيكَ الْبَاطِلَ، وَأَضَافُوكَ إِلَى غَيْرِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُضِيفُوكَ إِلَيْهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَسَائِرِ أَصْنَافِ الْأَدْيَانِ؛ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا!!.

أَمَّا فِي الدُّنْيَا: فَبِالْقَتْلِ وَالسِّبَاءِ وَالذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ: فَبِنَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا!!.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾يَقُولُ: وَمَا لَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ مَانِعٌ، وَلَا عَنْ أَلِيمِ عِقَابِهِ لَهُمْ دَافِعٌ بِقُوَّةٍ وَلَا شَفَاعَةٍ؛ لِأَنَّهُ الْعَزِيزُ ذُو الِانْتِقَامِ.

٥٧- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ[٧٢]﴾يَعْنِي: وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ يَا عِيسَى – يَقُولُ: صَدَّقُوكَ – فَأَقَرُّوا بِنُبُوَّتِكَ، وَبِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ مِنْ عِنْدِي، وَدَانُوا بِالْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثْتُكَ بِهِ،

---

[٧٢] الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ: تَشْمَلُ كُلَّ عَمَلٍ صَالِحٍ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ – كَمَحَبَّةِ اللهِ، وَخَشْيَتِهِ، وَرَجَائِهِ –، وَأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ – كَالصَّلَاةِ، وَنَحْوِهَا –.

وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ: تَشْمَلُ الْوَاجِبَاتُ، وَالْمُسْتَحَبَّاتُ. وَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ صَالِحًا مَقْبُولًا عِنْدَ اللهِ – تَعَالَى –؛ إِلَّا بِشَرْطَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِوَجْهِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –، وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

فَمَتَى فَقَدَ الْعَمَلُ وَاحِدًا مِنْ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ؛ بَطَلَ وَحَبِطَ!!.

وَعَمِلُوا بِمَا فَرَضْتُ مِنْ فَرَائِضِي عَلَى لِسَانِكَ، وَشَرعْتُ مِنْ شَرَائِعِي، وَسَنَنْتُ مِنْ سُنَنِي ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ يَقُولُ: فَيُعْطِيهِمْ جَزَاءَ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ كَامِلًا لَا يُبْخَسُونَ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا يُنْقَصُونَهُ.

﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ يَعْنِي: وَاللهُ لَا يُحِبُّ مَنْ ظَلَمَ غَيْرَهُ حَقًّا لَهُ، أَوْ وَضَعَ شَيْئًا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. فَنَفَى – جَلَّ ثناؤُهُ – عَنْ نَفْسِهِ بِذَلِكَ أَنْ يَظْلِمَ عِبَادَهُ، فَيُجَازِي الْمُسِيءَ مِمَّنْ كَفَرَ جَزَاءَ الْمُحْسِنِينَ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ! أَوْ يُجَازِي الْمُحْسِنَ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَ أَمْرَهُ وَانْتَهَى عَمَّا نَهَاهُ عَنْهُ فَأَطَاعَهُ، جَزَاءَ الْمُسِيئِينَ مِمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ!!.

فَقَالَ: إِنِّي لَا أُحِبُّ الظَّالِمِينَ، فَكَيْفَ أَظْلِمُ خَلْقِي؟!.

٥٨- ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ يَعْنِي: هَذِهِ الْأَنْبَاءَ الَّتِي أَنْبَأَ بِهَا نَبِيَّهُ عَنْ عِيسَى وَأُمِّهِ مَرْيَمَ، ... وَزَكَرِيَّا وَابْنِهِ يَحْيَى، وَمَا قَصَّ مِنْ أَمْرِ الْحَوَارِيِّينَ، وَالْيَهُودِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ – يَا مُحَمَّدُ –.

يَقُولُ: نَقْرَؤُهَا عَلَيْكَ – يَا مُحَمَّدُ – عَلَى لِسَانِ جِبْرِيلَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، بِوَحْيِنَاهَا إِلَيْكَ.

﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ يَقُولُ: مِنَ الْعِبَرِ وَالْحُجَجِ عَلَى مَنْ حَاجَّكَ مِنْ وَفْدِ نَصَارَى نَجْرَانَ وَيَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَذَّبُوكَ وَكَذَّبُوا مَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ مِنْ عِنْدِي.

﴿وَالذِّكْرِ﴾ يَعْنِي: وَالْقُرْآنِ ﴿الْحَكِيمِ﴾ يَعْنِي: ذِي الْحِكْمَةِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ نَاسِبِي الْمَسِيحِ إِلَى غَيْرِ نَسَبِهِ!.

٥٩- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾يَعْنِي: إِنَّ شَبَهَ عِيسَى فِي خَلْقِي إِيَّاهُ مِنْ غَيْرِ فَحْلٍ – فَأَخْبِرْ بِهِ يَا مُحَمَّدُ الْوَفْدَ مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ – عِنْدِي، كَشَبَهِ آدَمَ الَّذِي خَلَقْتُهُ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: (كُنْ)؛ فَكَانَ مِنْ غَيْرِ فَحْلٍ وَلَا ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى.[٧٣] يَقُولُ: فَلَيْسَ خَلْقِي عِيسَى مِنْ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ فَحْلٍ، بِأَعْجَبَ مِنْ خَلْقِي آدَمَ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى، فَكَانَ لَحْمًا!. يَقُولُ: ...، فَكَذَلِكَ خَلْقِي عِيسَى: أَمَرْتُهُ أَنْ يَكُونَ فَكَانَ.

٦٠- ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾يَعْنِي: الَّذِي أَنْبَأْتُكَ بِهِ – مِنْ خَبَرِ عِيسَى، وَأَنَّ مَثَلَهُ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: كُنْ – هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، يَقُولُ: هُوَ الْخَبَرُ الَّذِي هُوَ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ؛ ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾يَعْنِي: فَلَا تَكُنْ مِنَ الشَّاكِّينَ فِي أَنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ.

٦١- ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾يَعْنِي: فَمَنْ جَادَلَكَ – يَا مُحَمَّدُ – فِي الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾يَعْنِي: مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي قَدْ بَيَّنْتُهُ لَكَ فِي عِيسَى أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾هَلُمُّوا فَلْـ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا ثُمَّ نَبْتَهِلْ[٧٥]﴾يَقُولُ: ثُمَّ نَلْتَعِنْ.

---

[٧٣] هَذَا مِنْ تَشْبِيهِ الْغَرِيبِ بِالْأَغْرَبِ؛ لِيَكُونَ أَقْطَعَ لِلْخَصْمِ، وَأَحْسَمَ لِمَادَّةِ شُبْهَتِهِ، إِذَا نَظَرَ فِيمَا هُوَ أَغْرَبُ مِمَّا اسْتَغْرَبَهُ!!.

[٧٤] عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿**فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ**﴾دَعَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلِيًّا، وَفَاطِمَةَ، وَحَسَنًا، وَحُسَيْنًا؛ فَقَالَ: «**اللهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، والترمذي؛ وغيرهم].

[٧٥] بَاهَلَ الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَتَبَاهَلُوا وَابْتَهَلُوا: تَلَاعَنُوا، وَالْمُبَاهَلَةُ: الْمُلَاعَنَةُ، يُقَالُ: بَاهَلْتُ فُلَانًا؛ أَي: لَاعَنْتُهُ، وَمَعْنَى الْمُبَاهَلَةِ: أَنْ يَجْتَمِعَ الْقَوْمُ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ فَيَقُولُوا: لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِ مِنَّا، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿**ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾أَيْ: يُخْلِصْ وَيَجْتَهِدْ كُلٌّ مِنَّا فِي الدُّعَاءِ وَاللَّعْنِ عَلَى الْكَاذِبِ مِنَّا [النهاية في غريب الحديث والأثر، ولسان العرب].

فَائِدَةٌ: الْفَرْقُ بَيْنَ اللَّعْنِ وَالْبَهْلِ: أَنَّ اللَّعْنَ: هُوَ الدُّعَاءُ عَلَى الرَّجُلِ بِالْبُعْدِ، وَالْبَهْلُ: الِاجْتِهَادُ فِي اللَّعْنِ [معجم الفروق اللغوية؛ لأبي هلال العسكري].

﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ[٧٦] ﴾مِنَّا وَمِنْكُمْ فِي أَنَّهُ عِيسَى.[٧٧]

٦٢- ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾يَعْنِي: إِنَّ هَذَا الَّذِي أَنْبَأْتُكَ بِهِ - يَا مُحَمَّدُ - مِنْ أَمْرِ عِيسَى، فَقَصَصْتُهُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهِ، وَأَنَّهُ عَبْدِي وَرَسُولِي وَكَلِمَتِي أَلْقَيْتُهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنِّي، لَهُوَ الْقَصَصُ وَالنَّبَأُ الْحَقُّ، فَاعْلَمْ ذَلِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْخَلْقِ مَعْبُودٌ يَسْتَوْجِبُ عَلَيْهِمُ الْعِبَادَةَ بِمُلْكِهِ إِيَّاهُمْ إِلَّا مَعْبُودَكَ الَّذِي تَعْبُدُهُ؛ وَهُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿الْعَزِيزُ﴾: الْعَزِيزُ فِي انْتِقَامِهِ مِمَّنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ، وَادَّعَى مَعَهُ إِلَهًا غَيْرَهُ، أَوْ عَبَدَ رَبًّا سِوَاهُ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي تَدْبِيرِهِ، لَا يَدْخُلُ مَا دَبَّرَهُ وَهَنٌ وَلَا يَلْحَقُهُ خَلَلٌ.

---

[٧٦] عَنْ جَابِرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: أَنَّ وَفْدَ نَجْرَانَ أَتَوُا النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَقَالُوا: مَا تَقُولُ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ: «**هُوَ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ وَعَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**» قَالُوا لَهُ: هَلْ لَكَ أَنْ نُلَاعِنَكَ أَنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ؟ قَالَ: «**وَذَاكَ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ؟!**» قَالُوا: نَعَمْ! قَالَ: «**فَإِذَا شِئْتُمْ!**»، فَجَاءَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَجَمَعَ وَلَدَهُ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، فَقَالَ رَئِيسُهُمْ: لَا تُلَاعِنُوا هَذَا الرَّجُلَ! فَوَاللهِ لَئِنْ لَاعَنْتُمُوهُ؛ لَيُخْسَفَنَّ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ!!. فَجَاءُوا فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ! إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُلَاعِنَكَ سُفَهَاؤُنَا(!) وَإِنَّا نُحِبُّ أَنْ تُعْفِيَنَا! قَالَ: «**قَدْ أَعْفَيْتُكُمْ**» ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الْعَذَابَ قَدْ أَظَلَّ نَجْرَانَ!!**» [أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، قَالَ: جَاءَ الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ - صَاحِبَا نَجْرَانَ - إِلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُرِيدَانِ أَنْ يُلَاعِنَاهُ، قَالَ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَا تَفْعَلْ؛ فَوَاللهِ! لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَاعَنَّا؛ لَا نُفْلِحُ نَحْنُ وَلَا عَقِبُنَا مِنْ بَعْدِنَا!! [فَأَتَيَاهُ، فَـ]قَالَا: [لَا نُلَاعِنُكَ، وَلَكِنَّا] نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا، وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا، وَلَا تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا، فَقَالَ: «**لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ**»، فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَقَالَ: «**قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ**» فَلَمَّا قَامَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ!**»[صحيح: رواه البخاري - واللفظ له -، ومسلم، وأحمد - وما بين المعقوفين له -؛ وغيرهم].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، قَالَ: «...**وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ مَالًا وَلَا أَهْلًا!!**» [صحيح: رواه أحمد، والنسائي في الكبرى، وأبو يعلى في مسنده؛ والضياء في المختارة؛ وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند(٢٢٢٥)، وانظر الصحيحة(٣٢٩٦)].

[٧٧] يَعْنِي: فِي أَنَّهُ عَبْدٌ للهِ وَلَيْسَ بِإِلَهٍ - تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الْمُفْتَرُونَ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا -.

٦٣- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾يَعْنِي: فَإِنْ أَدْبَرَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ حَاجُّوكَ فِي عِيسَى، عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ فِي عِيسَى وَغَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ مَا آتَاكَ اللهُ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ، فَأَعْرَضُوا عَنْهُ وَلَمْ يَقْبَلُوهُ؛ ﴿فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾يَقُولُ: فَإِنَّ اللهَ ذُو عِلْمٍ بِالَّذِينَ يَعْصُونَ رَبَّهُمْ، وَيَعْمَلُونَ فِي أَرْضِهِ وَبِلَادِهِ بِمَا نَهَاهُمْ عَنْهُ، وَذَلِكَ هُوَ إِفْسَادُهُمْ.

٦٤- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾يَعْنِي: قُلْ - يَا مُحَمَّدُ - لِأَهْلِ الْكِتَابِ - وَهُمْ أَهْلُ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ -: ﴿تَعَالَوْا﴾ هَلُمُّوا ﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾يَعْنِي: إِلَى كَلِمَةٍ عَدْلٍ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ وَالْكَلِمَةُ الْعَدْلُ: هِيَ أَنْ نُوَحِّدَ اللهَ فَلَا نَعْبُدَ غَيْرَهُ، وَنَبْرَأَ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ؛ فَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا. ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا[٧٨]﴾يَقُولُ: وَلَا يَدِينُ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ بِالطَّاعَةِ فِيمَا أَمَرَ بِهِ مِنْ مَعَاصِي اللهِ، وَيُعَظِّمُهُ بِالسُّجُودِ لَهُ، كَمَا يَسْجُدُ لِرَبِّهِ!.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾يَقُولُ: فَإِنْ أَعْرَضُوا عَمَّا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْكَلِمَةِ السَّوَاءِ الَّتِي أَمَرْتُكَ بِدُعَائِهِمْ إِلَيْهَا، فَلَمْ يُجِيبُوكَ إِلَيْهَا؛ ﴿فَقُولُوا﴾ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لِلْمُتَوَلِّينَ عَنْ ذَلِكَ -:

---

[٧٨] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿**وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا**﴾، فَإِنَّ اتِّخَاذَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا؛ هُوَ مَا كَانَ بِطَاعَةِ الْأَتْبَاعِ الرُّؤَسَاءَ فِيمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ مِنْ مَعَاصِي اللهِ وَتَرْكِهِمْ مَا نَهَوْهُمْ عَنْهُ مِنْ طَاعَةِ اللهِ، كَمَا قَالَ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا**﴾ اهـ.

قُلْتُ: عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ! فَقَالَ: «**يَا عَدِيُّ! اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ!**»؛ [فَطَرَحْتُهُ]، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ**﴾[حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ]، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ**»، [قُلْتُ: بَلَى! قَالَ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ!**]» [حديث حسن: رواه الترمذي، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير - وما بين المعقوفين له -؛ وحسنه الألباني في الصحيحة(٣٢٩٣)، وصحيح سنن الترمذي(٣٠٩٥)].

﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ[٧٩]﴾يَعْنِي: اشْهَدُوا عَلَيْنَا بِأَنَّا – بِمَا تَوَلَّيْتُمْ عَنْهُ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ وَإِخْلَاصِ الْعُبُودِيَّةِ لَهُ، وَأَنَّهُ الْإِلَهُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ – مُسْلِمُونَ، يَعْنِي: خَاضِعُونَ لِلَّهِ بِهِ، مُتَذَلِّلُونَ لَهُ بِالْإِقْرَارِ بِذَلِكَ بِقُلُوبِنَا وَأَلْسِنَتِنَا.

٦٥– ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾يَعْنِي: يَا أَهْلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴿لِمَ تُحَاجُّونَ﴾ لِمَ تُجَادِلُونَ ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ وَتُخَاصِمُونَ فِيهِ، يَعْنِي: فِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ – صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ –.

وَكَانَ حِجَاجُهُمْ فِيهِ: ادِّعَاءُ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْ أَهْلِ هَذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُ كَانَ يَدِينُ دِينَ أَهْلِ نِحْلَتِهِ، فَعَابَهُمُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – بِادِّعَائِهِمْ ذَلِكَ، وَدَلَّ عَلَى مُنَاقَضَتِهِمْ وَدَعْوَاهُمْ، فَقَالَ: وَكَيْفَ تَدَّعُونَ أَنَّهُ كَانَ عَلَى مِلَّتِكُمْ وَدِينِكُمْ، وَدِينُكُمْ إِمَّا يَهُودِيَّةٌ أَوْ نَصْرَانِيَّةٌ، وَالْيَهُودِيُّ مِنْكُمْ يَزْعُمُ أَنَّ دِينَهُ إِقَامَةُ التَّوْرَاةِ وَالْعَمَلُ بِمَا فِيهَا، وَالنَّصْرَانِيُّ مِنْكُمْ يَزْعُمُ أَنَّ دِينَهُ إِقَامَةُ الْإِنْجِيلِ وَمَا فِيهِ،

---

[٧٩] قَالَ فِي تَفْسِيرِ الْمَنَارِ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وَأَعْرَضُوا عَنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَأَبَوْا إِلَّا أَنْ يَعْبُدُوا غَيْرَ اللهِ بِاتِّخَاذِ الشُّرَكَاءِ الَّذِينَ يُسَمُّونَهُمْ وُسَطَاءَ وَشُفَعَاءَ! وَاتِّخَاذِ الْأَرْبَابِ الَّذِينَ يُحِلُّونَ لَهُمْ وَيُحَرِّمُونَ! ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: نَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ؛ لَا نَدْعُو سِوَاهُ، وَلَا نَتَوَجَّهُ إِلَى غَيْرِهِ فِي طَلَبِ نَفْعٍ وَلَا دَفْعِ ضُرٍّ، وَلَا نُحِلُّ إِلَّا مَا أَحَلَّهُ، وَلَا نُحَرِّمُ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ!...

فَمَا جَرَى عَلَيْهِ الْمُقَلِّدُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْأَخْذِ بِآرَاءِ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ، فِي الْعِبَادَاتِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ؛ هُوَ عَيْنُ مَا أَنْكَرَهُ كِتَابُ اللهِ – تَعَالَى – عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، وَجَعَلَهُ مُنَافِيًا لِلْإِسْلَامِ؛ بَلْ جَعَلَ مُخَالَفَتَهُمْ فِيهِ هِيَ عَيْنَ الْإِسْلَامِ! فَلْيَعْتَبِرِ الْمُعْتَبِرُونَ!! فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَسَاسُ الدِّينِ الْمَتِينِ وَأَصْلُهُ الْأَصِيلُ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدْعُو بِهَا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَى الْإِسْلَامِ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي كُتُبِهِ إِلَى هِرَقْلَ وَالْمُقَوْقِسِ وَغَيْرِهِمَا.

وَهَذَا نَصُّ كِتَابِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى هِرَقْلَ – عَاهِلِ الرُّومِ – كَمَا فِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ –:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ؛ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ وَ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي].

وَهَذَانِ كِتَابَانِ لَمْ يَنْزِلَا إِلَّا بَعْدَ حِينٍ مِنْ مَهْلِكِ إِبْرَاهِيمَ وَوَفَاتِهِ؟ فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْكُمْ؟! فَمَا وَجْهُ اخْتِصَامِكُمْ فِيهِ وَادِّعَائِكُمْ أَنَّهُ مِنْكُمْ، وَالْأَمْرُ فِيهِ عَلَى مَا قَدْ عَلِمْتُمْ؟!.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يَعْنِي: (أَفَلَا تَعْقِلُونَ)، تَفْقَهُونَ خَطَأَ قِيلِكُمْ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ حَدَثَتْ مِنْ بَعْدِ مَهْلِكِهِ بِحِينٍ؟!.

٦٦- ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي: هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ الْقَوْم الَّذِينَ خَاصَمْتُمْ وَجَادَلْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمُ الَّذِي وَجَدْتُمُوهُ فِي كُتُبِكُمْ، وَأَتَتْكُمْ بِهِ رُسُلُ اللهِ مِنْ عِنْدِهِ، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أُوتِيتُمُوهُ، وَثَبَتَتْ عِنْدَكُمْ صِحَّتُهُ، (فَلِمَ تُحَاجُّونَ)يَقُولُ: فَلِمَ تُجَادِلُونَ وَتُخَاصِمُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ؟ يَعْنِي: فِي الَّذِي لَا عِلْمَ لَكُمْ بِهِ مِنْ أَمْرِ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِهِ، وَلَمْ تَجِدُوهُ فِي كُتُبِ اللهِ، وَلَا أَتَتْكُمْ بِهِ أَنْبِيَاؤُكُمْ، وَلَا شَاهَدْتُمُوهُ فَتَعْلَمُوهُ.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ مَا غَابَ عَنْكُمْ فَلَمْ تُشَاهِدُوهُ وَلَمْ تَرَوْهُ، وَلَمْ تَأْتِكُمْ بِهِ رُسُلُهُ مِنْ أَمْرِ إِبْرَاهِيمَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأُمُورِ وَمِمَّا تُجَادِلُونَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ عِلْمُ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا عَايَنْتُمْ فَشَاهَدْتُمْ، أَوْ أَدْرَكْتُمْ عِلْمَهُ بِالْإِخْبَارِ وَالسَّمَاعِ!.

٦٧- ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَهَذَا تَكْذِيبٌ مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - دَعْوَى الَّذِينَ جَادَلُوا فِي إِبْرَاهِيمَ وَمِلَّتِهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَادَّعَوْا أَنَّهُ كَانَ عَلَى مِلَّتِهِمْ، وَتَبْرِئَةٌ لَهُمْ مِنْهُ، وَأَنَّهُمْ لِدِينِهِ مُخَالِفُونَ، وَقَضَاءٌ مِنْهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ وَلِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُ دِينِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِهِ وَشَرَائِعِهِ، دُونَ سَائِرِ أَهْلِ الْمِلَلِ وَالْأَدْيَانِ غَيْرِهِمْ.

يَقُولُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ أَوْ مَخْلُوقًا دُونَ خَالِقِهِ الَّذِي هُوَ إِلَهُ الْخَلْقِ وَبَارِئُهُمْ.

﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾ يَعْنِي: مُتَّبِعًا أَمْرَ اللهِ وَطَاعَتَهُ، مُسْتَقِيمًا عَلَى مَحَجَّةِ الْهُدَى الَّتِي أُمِرَ بِلُزُومِهَا.

﴿مُسْلِمًا﴾ يَعْنِي: خَاشِعًا لِلَّهِ بِقَلْبِهِ، مُتَذَلِّلًا لَهُ بِجَوَارِحِهِ، مُذْعِنًا لِمَا فَرَضَ عَلَيْهِ وَأَلْزَمَهُ مِنْ أَحْكَامِهِ.

عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، لَا أَرَاهُ إِلَّا يُحَدِّثُهُ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ[80] خَرَجَ إِلَى الشَّامِ يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ، وَيَتْبَعُهُ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ الْيَهُودِ، فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِ، وَقَالَ: إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ، فَأَخْبِرْنِي عَنْ دِينِكُمْ، فَقَالَ لَهُ الْيَهُودِيُّ: إِنَّكَ لَنْ تَكُونَ عَلَى

---

[80] زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ: هُوَ ابْنُ عَمِّ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بْنِ نُفَيْلٍ، وَهُوَ وَالِدُ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ أَحَدِ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ، وَكَانَ مِمَّنْ طَلَبَ التَّوْحِيدَ وَخَلَعَ الْأَوْثَانَ وَجَانَبَ الشِّرْكَ، عَاصَرَ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَشَاهَدَهُ، وَلَكِنَّهُ مَاتَ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّجَاةِ؛ فَقَدْ شَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِأَنَّهُ: «**يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ**» [رواه أحمد، وغيره؛ وهو في صحيح السيرة للألباني، وقال أحمد شاكر في تعليقه على المسند(١٦٤٨): إسناده صحيح].

وَعَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا –، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَرَأَيْتُ لِزَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ دَرَجَتَيْنِ**» [السلسلة الصحيحة(١٤٠٦)، وصحيح الجامع(٣٣٦٧)].

مِنْ مَنَاقِبِهِ:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَقِيَ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلْدَح، [وَذَلِكَ] قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْوَحْيُ، فَقُدِّمَتْ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – سُفْرَةٌ[فِيهَا لَحْمٌ]، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ زَيْدٌ: «**إِنِّي لَسْتُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ! وَلاَ آكُلُ إِلَّا مَا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ!**» وَأَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو كَانَ يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ، وَيَقُولُ: «**الشَّاةُ خَلَقَهَا اللهُ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللهِ؟!**» إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ! [صحيح: رواه البخاري، وأحمد، والنسائي في الكبرى، وابن حبان في صحيحه، والطبراني في الكبير؛ وغيرهم].

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَتْ: لَقَدْ رَأَيْتُ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ قَائِمًا مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ، يَقُولُ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! مَا مِنْكُمُ الْيَوْمَ أَحَدٌ عَلَى دِيْنِ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي!!**» ، وَكَانَ يُحْيِي الْمَوْءُودَةَ، يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ: «**مَهْلًا! لَا تَقْتُلْهَا!! أَنَا أَكْفِيكَ مَئُونَتَهَا**»؛ فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا تَرَعْرَعَتْ، قَالَ لِأَبِيهَا: «**إِنْ شِئْتَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ؛ وَإِنْ شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَئُونَتَهَا!**» [صحيح: أخرجه البخاري معلقا بصيغة الجزم، والحاكم في المستدرك، وأبو نعيم في معرفة الصحابة؛ وقال الألباني في مختصر البخاري(٢/٥٣٠): هذا معلق عند المصنف – رحمه الله تعالى –، وقد وصله ابن إسحاق، وأبو بكر بن أبي داود في "حديث زغبة"، والنسائي، وأبو نعيم في "المستخرج" من طرق، عن هشام بن عروة، عن أبيه عنها؛ وسنده صحيح].

دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضِبِ اللهِ! قَالَ زَيْدٌ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ غَضِبِ اللهِ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ غَضِبِ اللهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَا أَسْتَطِيعُ، فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى دِينٍ لَيْسَ فِيهِ هَذَا؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ: وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ، لَمْ يَكُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَكَانَ لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللهَ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَى، فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِ، فَقَالَ: إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ، فَأَخْبِرْنِي عَنْ دِينِكُمْ، قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ اللهِ! قَالَ: لَا أَحْتَمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللهِ شَيْئًا، وَلَا مِنْ غَضِبِ اللهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَا أَسْتَطِيعُ، فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى دِينٍ لَيْسَ فِيهِ هَذَا؟ فَقَالَ لَهُ نَحْوًا مِمَّا قَالَهُ الْيَهُودِيُّ: لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ، وَقَدْ رَضِيَ الَّذِي أَخْبَرَاهُ وَالَّذِي اتَّفَقَا عَلَيْهِ مِنْ شَأْنِ إِبْرَاهِيمَ، فَلَمْ يَزَلْ رَافِعًا يَدَيْهِ إِلَى اللهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ.[٨١]

٦٨- ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾يَعْنِي: إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ وَنُصْرَتِهِ وَوِلَايَتِهِ، ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾يَعْنِي: الَّذِينَ سَلَكُوا طَرِيقَهُ وَمِنْهَاجَهُ، فَوَحَّدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَسَنُّوا سُنَنَهُ، وَشَرَعُوا شَرَائِعَهُ، وَكَانُوا لِلَّهِ حُنَفَاءَ مُسْلِمَيْن غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾يَعْنِي: مُحَمَّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾يَعْنِي: وَالَّذِينَ صَدَّقُوا مُحَمَّدًا، وَبِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ. ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾يَقُولُ: وَاللهُ نَاصِرُ الْمُؤْمِنِينَ بِمُحَمَّدٍ، الْمُصَدِّقِينَ لَهُ فِي نُبُوَّتِهِ وَفِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِهِ، عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ وَالْأَدْيَانِ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلَاةً مِنَ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ وَلِيِّيَ مِنْهُمْ: أَبِي وَخَلِيلُ رَبِّي»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.[٨٢]

---

[٨١] صحيح: رواه البخاري.

[٨٢] صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٢١٥٨)، والمشكاة(٥٧٦٩).

٦٩- ﴿وَدَّتْ﴾يَعْنِي: تَمَنَّتْ ﴿طَائِفَةٌ﴾يَعْنِي: جَمَاعَةً ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾وَهُمْ أَهْلُ التَّوْرَاةِ مِنَ الْيَهُودِ، وَأَهْلُ الْإِنْجِيلِ مِنَ النَّصَارَى ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾يَقُولُ: لَوْ يَصُدُّونَكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – عَنِ الْإِسْلَامِ، وَيَرُدُّونَكُمْ عَنْهُ إِلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ؛ فَيُهْلِكُونَكُمْ بِذَلِكَ!.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾: وَمَا يُهْلِكُونَ – بِمَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ مُحَاوَلَتِهِمْ صَدَّكُمْ عَنْ دِينِكُمْ – أَحَدًا غَيْرَ أَنْفُسِهِمْ.

يَعْنِي بِأَنْفُسِهِمْ: أَتْبَاعَهُمْ وَأَشْيَاعَهُمْ عَلَى مِلَّتِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ.

وَإِنَّمَا أَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَتْبَاعَهُمْ بِمَا حَاوَلُوا مِنْ ذَلِكَ؛ لِاسْتِيجَابِهِمْ مِنَ اللهِ بِفِعْلِهِمْ ذَلِكَ سَخَطَهُ، وَاسْتِحْقَاقِهِمْ بِهِ غَضَبَهُ وَلَعْنَتَهُ؛ لِكُفْرِهِمْ بِاللهِ، وَنَقْضِهِمُ الْمِيثَاقَ الَّذِي أَخَذَ اللهُ عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِمْ، فِي اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَتَصْدِيقِهِ، وَالْإِقْرَارِ بِنُبُوَّتِهِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ – جَلَّ ثناؤُهُ – عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ مَا يَفْعَلُونَ – مِنْ مُحَاوَلَةِ صَدِّ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالَةِ وَالرَّدَى – عَلَى جَهْلٍ مِنْهُمْ بِمَا اللهُ بِهِم مُحِلٌّ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَمُدَّخِرٌ لَهُمْ مِنْ أَلِيمِ عَذَابِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾أَنَّهُمْ لَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، بِمُحَاوَلَتِهِمْ إِضْلَالَكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ –.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: وَمَا يَدْرُونَ وَلَا يَعْلَمُونَ!!.

٧٠- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾يَعْنِي: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾يَقُولُ: لِمَ تَجْحَدُونَ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾يَعْنِي: بِمَا فِي كِتَابِ اللهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ عَلَى أَلْسُنِ أَنْبِيَائِكُمْ، مِنْ آيِهِ وَأَدِلَّتِهِ، ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾أَنَّهُ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ.

وَإِنَّمَا هَذَا مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – تَوْبِيخٌ لِأَهْلِ الْكِتَابَيْنِ عَلَى كُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَجُحُودِهِمْ نُبُوَّتَهُ، وَهُمْ يَجِدُونَهُ فِي كُتُبِهِمْ، مَعَ شَهَادَتِهِمْ أَنَّ مَا فِي كُتُبِهِمْ حَقٌّ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

٧١- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾يَعْنِي: يَا أَهْلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ﴾يَقُولُ: لِمَ تَخْلِطُونَ ﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾؟ وَكَانَ خَلْطُهُمُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ: إِظْهَارُهُمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنَ التَّصْدِيقِ بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، غَيْرَ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ.

﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾يَعْنِي: وَلِمَ تَكْتُمُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ الْحَقَّ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾أَنَّ الَّذِيَ تَكْتُمُونَهُ مِنَ الْحَقِّ حَقٌّ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟!.

وَهَذَا الْقَوْلُ مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - خَبَرٌ عَنْ تَعَمُّدِ أَهْلِ الْكِتَابِ الْكُفْرَ بِهِ، وَكِتْمَانَهُمْ مَا قَدْ عَلِمُوا مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَوَجَدُوهُ فِي كُتُبِهِمْ، وَجَاءَتْهُمْ بِهِ أَنْبِيَاؤُهُمْ.

٧٢- ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾يَعْنِي: مِنَ الْيَهُودِ الَّذِي يَقْرَأُونَ التَّوْرَاةَ: ﴿آمِنُوا﴾ صَدِّقُوا ﴿بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾وَذَلِكَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الدِّينِ الْحَقِّ وَشَرَائِعَهُ وَسُنَنِهِ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾يَعْنِي: أَوَّلَ النَّهَارِ.[٨٣] ﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾يَعْنِي: أَنَّهُمْ قَالُوا: وَاجْحَدُوا مَا صَدَّقْتُمْ بِهِ مِنْ دِينِهِمْ فِي وَجْهِ النَّهَارِ، فِي آخِرِ النَّهَارِ؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يَعْنِي: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَنْ دِينِهِمْ مَعَكُمْ وَيَدَعُونَهُ!.

٧٣- ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾يَعْنِي: وَلَا تُصَدِّقُوا إِلَّا مَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ فَكَانَ يَهُودِيًّا.

﴿قُلْ﴾ - يَا مُحَمَّدٍ - لِلْقَائِلِينَ مَا قَالُوا مِنَ الطَّائِفَةِ الَّتِي وَصَفْتُ لَكَ قَوْلَهَا لِتُبَّاعِهَا مِنَ الْيَهُودِ ﴿إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ﴾: إِنَّ التَّوْفِيقَ تَوْفِيقُ اللهِ، وَالْبَيَانَ بَيَانُهُ.

﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾يَعْنِي: وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ، وَلَا تُؤْمِنُوا أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ، بِمَعْنَى: لَا يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْل مَا أُوتِيتُمْ.

---

[٨٣] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَسُمِّيَ أَوَّلُهُ وَجْهًا لَهُ؛ لِأَنَّهُ أَحْسَنُهُ، وَأَوَّلُ مَا يُوَاجِهُ النَّاظِرَ فَيَرَاهُ مِنْهُ، كَمَا يُقَالُ لِأَوَّلِ الثَّوْبِ: وَجْهُهُ.

﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ بِمَعْنَى: أَوْ أَنْ يُحَاجَّكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَحَدٌ بِإِيمَانِكُمْ؛ لِأَنَّكُمْ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ بِمَا فَضَّلَكُمْ بِهِ عَلَيْهِمْ.

﴿قُلْ﴾ – يَا مُحَمَّدُ – لِهَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ وَصَفْتُ قَوْلَهُمْ لِأَوْلِيَائِهِمْ: ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ﴾: إِنَّ التَّوْفِيقَ لِلْإِيمَانِ وَالْهِدَايَةَ لِلْإِسْلَامِ، بِيَدِ اللهِ وَإِلَيْهِ، دُونَكُمْ وَدُونَ سَائِرِ خَلْقِهِ ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ مِنْ خَلْقِهِ.

يَعْنِي: يُعْطِيهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ عِبَادِهِ، تَكْذِيبًا مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – لَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ لِتُبَّاعِهِمْ: (لَا يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ)، فَقَالَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – لِنَبِيِّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: قُلْ لَهُمْ: لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْكُمْ! إِنَّمَا هُوَ إِلَى اللهِ الَّذِي بِيَدِهِ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا، وَإِلَيْهِ الْفَضْلُ، وَبِيَدِهِ، يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

﴿وَاللهُ وَاسِعٌ﴾ يَعْنِي: وَاللهُ ذُو سَعَةٍ بِفَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ، ﴿عَلِيمٌ﴾ ذُو عِلْمٍ بِمَنْ هُوَ مِنْهُمْ لِلْفَضْلِ أَهْلٌ.

٧٤- ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وَأَمَّا رَحْمَتُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: فَالْإِسْلَامُ وَالْقُرْآنُ، مَعَ النُّبُوَّةِ.

﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يَقُولُ: ذُو فَضْلٍ يَتَفَضَّلُ بِهِ عَلَى مَنْ أَحَبَّ وَشَاءَ مِنْ خَلْقِهِ.

ثُمَّ وَصَفَ فَضْلَهُ بِالْعِظَمِ؛ فَقَالَ: فَضْلُهُ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُشْبِهِه فِي عِظَمِ مَوْقِعِهِ مِمَّنْ أَفْضَلَهُ عَلَيْهِ إِفْضَالَ خَلْقِهِ، وَلَا يُقَارِبُهُ فِي جَلَالَةِ خَطَرِهِ[٨٤] وَلَا يُدَانِيهِ!.

٧٥- ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾.

وَهَذَا الْخَبَرُ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – أَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ – وَهُمُ الْيَهُودُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ – أَهْلَ أَمَانَةٍ يُؤَدُّونَهَا وَلَا يَخُونُونَهَا؛ وَمِنْهُمُ الْخَائِنُ أَمَانَتَهُ، الْفَاجِرُ فِي يَمِينِهِ الْمُسْتَحِلُّ!.

---

[٨٤] (**الْخَطَرُ**) فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الْمَنْزِلَةُ وَالْمَكَانَةُ، فَخَطَرُ الرَّجُلِ: مَنْزِلَتُهُ وَمَكَانَتُهُ.

فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِي إِنْ تَأْمَنْهُ – يَا مُحَمَّدُ – عَلَى عَظِيمٍ مِنَ الْمَالِ كَثِيرٍ، يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَلَا يَخُنْكَ فِيهِ، وَمِنْهُمُ الَّذِي إِنْ تَأْمَنْهُ عَلَى دِينَارٍ يَخُنْكَ فِيهِ، فَـ﴿لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ بِالْمُطَالَبَةِ وَالِاقْتِضَاءِ.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾يَعْنِي: أَنَّ مَنِ اسْتَحَلَّ الْخِيَانَةَ مِنَ الْيَهُودِ، وَجُحُودَ حُقُوقِ الْعَرَبِيِّ الَّتِي هِيَ لَهُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يُؤَدِّ مَا ائْتَمَنَهُ الْعَرَبِيُّ عَلَيْهِ إِلَيْهِ إِلَّا مَا دَامَ لَهُ مُتَقَاضِيًا مُطَالِبًا، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يَقُولُ: لَا حَرَجَ عَلَيْنَا فِيمَا أَصَبْنَا مِنْ أَمْوَالِ الْعَرَبِ وَلَا إِثْمَ؛ لِأَنَّهُمْ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ!.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾يَعْنِي: إِنَّ الْقَائِلِينَ مِنْهُمْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي أَمْوَالِ الْأُمِّيِّينَ مِنَ الْعَرَبِ حَرَجٌ أَنْ نَخْتَانَهُمْ إِيَّاهُ، يَقُولُونَ – بِقِيلِهِمْ إِنَّ اللهَ أَحَلَّ لَنَا ذَلِكَ، فَلَا حَرَجَ عَلَيْنَا فِي خِيَانَتِهِمْ إِيَّاهُ، وَتَرْكِ قَضَائِهِمْ – الْكَذِبَ عَلَى اللهِ عَامِدِينَ الْإِثْمَ بِقِيلِ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ، أَنَّهُ أَحَلَّ ذَلِكَ لَهُمْ. وَذَلِكَ قَوْلُهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

٧٦– ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – عَمَّا لِمَنْ أَدَّى أَمَانَتَهُ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا اتِّقَاءَ اللهِ وَمُرَاقَبَتَهُ عِنْدَهُ.

فَقَالَ جَلَّ ثناؤُهُ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْكَاذِبُونَ عَلَى اللهِ مِنَ الْيَهُودِ، مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِ الْأُمِّيِّينَ حَرَجٌ وَلَا إِثْمٌ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿بَلَى﴾ وَلَكِنْ ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾يَعْنِي: وَلَكِنَّ الَّذِي أَوْفَى بِعَهْدِهِ، وَذَلِكَ وَصِيَّتُهُ إِيَّاهُمْ الَّتِي أَوْصَاهُمْ بِهَا فِي التَّوْرَاةِ، مِنَ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَمَا جَاءَهُمْ بِهِ.

يَقُولُ: بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِ اللهِ الَّذِي عَاهَدَهُ فِي كِتَابِهِ، فَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَصَدَّقَ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللهِ؛ مِنْ أَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ اللهِ

وَنَهْيِهِ ﴿وَاتَّقَى﴾ يَقُولُ: وَاتَّقَى مَا نَهَاهُ اللهُ عَنْهُ مِنَ الْكُفْرِ بِهِ، وَسَائِرِ مَعَاصِيهِ الَّتِي حَرَّمَهَا عَلَيْهِ، فَاجْتَنَبَ ذَلِكَ مُرَاقَبَةَ وَعِيدِ اللهِ وَخَوْفَ عِقَابِهِ، ﴿فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ يَعْنِي: فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يَتَّقُونَهُ فَيَخَافُونَ عِقَابَهُ وَيَحْذَرُونَ عَذَابَهُ، فَيَجْتَنِبُونَ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ وَحَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ، وَيُطِيعُونَهُ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ.

٧٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يَعْنِي: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَبْدِلُونَ بِتَرْكِهِمْ عَهْدَ اللهِ الَّذِي عَهِدَ إِلَيْهِمْ، وَوَصِيَّتَهُ الَّتِي أَوْصَاهُمْ بِهَا فِي الْكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ إِلَى أَنْبِيَائِهِ بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ وَتَصْدِيقِهِ، وَالْإِقْرَارِ بِهِ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَبِأَيْمَانِهِمُ الْكَاذِبَةِ الَّتِي يَسْتَحِلُّونَ بِهَا مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ الَّتِي اؤْتُمِنُوا عَلَيْهَا ﴿ثَمَنًا﴾ يَعْنِي: عِوَضًا وَبَدَلًا خَسِيسًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا وَحُطَامِهَا. ﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ يَقُولُ: فَإِنَّ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي خَيْرَاتِ الْآخِرَةِ، وَلَا نَصِيبَ لَهُمْ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ، وَمَا أَعَدَّ اللهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا دُونَ غَيْرِهِمْ.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ يَعْنِي: وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ بِمَا يَسُرُّهُمْ ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يَقُولُ: وَلَا يَعْطِفُ عَلَيْهِمْ بِخَيْرٍ مَقْتًا مِنَ اللهِ! ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ يَعْنِي: وَلَا يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ ذُنُوبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يَعْنِي: وَلَهُمْ عَذَابٌ مُوجِعٌ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ؛ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ!» فَقَالَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ: فِيَّ وَاللهِ كَانَ ذَلِكَ! كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ، فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «أَلَكَ بَيِّنَةٌ»؟ قُلْتُ: لَا! فَقَالَ

لِلْيَهُودِيِّ: «احْلِفْ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِذَنْ يَحْلِفُ فَيَذْهَبُ مَالِي!! فَأَنْزَلَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.[٨٥]

عَنْ رَجَاءِ بْنِ حَيْوَةَ، وَالْعُرْسِ، أَنَّهُمَا حَدَّثَاهُ عَنْ أَبِيهِ عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ امْرِئِ الْقَيْسِ وَرَجُلٍ مِنْ حَضْرَمَوْتَ خُصُومَةٌ، فَارْتَفَعَا إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَ لِلْحَضْرَمِيِّ: «بَيِّنَتَكَ وَإِلَّا فَيَمِينُهُ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنْ حَلَفَ ذَهَبَ بِأَرْضِي!! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ لِيَقْتَطِعَ بِهَا حَقَّ أَخِيهِ؛ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ!!»، فَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ: يَا رَسُولَ اللهِ! فَمَا لِمَنْ تَرَكَهَا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهَا حَقٌّ؟ قَالَ: «الْجَنَّةُ!»، قَالَ: فَإِنِّي أُشْهِدُكَ أَنِّي قَدْ تَرَكْتُهَا.[٨٦]

٧٨– ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾يَعْنِي: وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ – وَهُمُ الْيَهُودُ الَّذِينَ

---

[٨٥] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم.

[٨٦] صحيح: رواه أحمد، والنسائي في الكبرى، والبيهقي في الكبرى والشعب، والطبراني في الكبير، وأبو نعيم في معرفة الصحابة، والهيثمي في المجمع، وقال: رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجالهما ثقات؛ وصححه الألباني في الإرواء، تحت الحديث(٢٦٣٨).

وَعَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «[**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**]: **رَجُلٌ كَانَ لَهُ فَضْلُ مَاءٍ بِالطَّرِيقِ، فَمَنَعَهُ مِنَ ابْنِ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لاَ يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا سَخِطَ! وَرَجُلٌ أَقَامَ سِلْعَتَهُ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَقَالَ: وَاللهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ لَقَدْ أُعْطَيْتُ بِهَا كَذَا وَكَذَا،**(وَفِي رِوَايَةٍ: **أَكْثَرَ مِمَّا أُعْطَى؛ وَهُوَ كَاذِبٌ!**) **فَصَدَّقَهُ رَجُلٌ**[**وَاشْتَرَاهَا مِنْهُ**]» ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا**﴾ [صحيح: رواه البخاري – واللفظ له –، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي – وما بين المعقوفين الأول له –، وابن ماجة، والبيهقي في الكبرى– وما بين المعقوفين الثاني له –].

وَعَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: كَانَتْ جَارِيَتَانِ تَخْرُزَانِ بِالطَّائِفِ، فَخَرَجَتْ إِحْدَاهُمَا وَيَدُهَا تَدْمَى! فَزَعَمَتْ أَنَّ صَاحِبَتَهَا أَصَابَتْهَا؛ وَأَنْكَرَتِ الْأُخْرَى! فَكَتَبْتُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ذَلِكَ؛ فَكَتَبَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَضَى «**أَنَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ أُعْطُوا بِدَعْوَاهُمْ؛ لَادَّعَى نَاسٌ أَمْوَالَ نَاسٍ وَدِمَاءَهُمْ!!**»، [ذَكِّرُوهَا بِاللهِ]، وَاتْلُ عَلَيْهَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ**﴾حَتَّى خَتَمَ الْآيَةَ، فَدَعَوْتُهَا، فَتَلَوْتُ عَلَيْهَا؛ فَاعْتَرَفَتْ بِذَلِكَ! [فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ] فَسَرَّهُ!! [صحيح: رواه البخاري– وما بين المعقوفين الأول له –، والنسائي – واللفظ له –، والطحاوي شرح مشكل الآثار – وما بين المعقوفين الثاني له –، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الكبرى؛ وغيرهم].

كَانُوا حَوَالَيْ مَدِينَةِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، عَلَى عَهْدِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ – ﴿لَفَرِيقًا﴾يَعْنِي: جَمَاعَةً ﴿يَلْوُونَ[٨٧]﴾يَعْنِي: يُحَرِّفُونَ ﴿أَلْسِنَتُهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي: لِتَظُنُّوا أَنَّ الَّذِيَ يُحَرِّفُونَهُ بِكَلَامِهِمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَتَنْزِيلِهِ.

يَقُولُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: وَمَا ذَلِكَ الَّذِي لَوَوْا بِهِ أَلْسِنَتَهُمْ فَحَرَّفُوهُ وَأَحْدَثُوهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ مَا لَوَوْا بِهِ أَلْسِنَتَهُمْ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالْكَذِبِ وَالْبَاطِلِ فَأَلْحَقُوهُ فِي كِتَابِ اللهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، يَقُولُ: مِمَّا أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ، (وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ) يَقُولُ: وَمَا ذَلِكَ الَّذِي لَوَوْا بِهِ أَلْسِنَتَهُمْ فَأَحْدَثُوهُ، مِمَّا أَنْزَلَهُ اللهُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، وَلَكِنَّهُ مِمَّا أَحْدَثُوهُ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ.

يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾يَعْنِي: أَنَّهُمْ يَتَعَمَّدُونَ قِيلَ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ، وَالشَّهَادَةَ عَلَيْهِ بِالْبَاطِلِ، وَالْإِلْحَاقَ بِكِتَابِ اللهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ؛ طَلَبًا لِلرِّيَاسَةِ وَالْخَسِيسِ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا!.

٧٩– ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾يَعْنِي: وَمَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ﴾يَقُولُ: أَنْ ينْزِلَ اللهُ عَلَيْهِ كِتَابَهُ، ﴿وَالْحُكْمَ﴾يَعْنِي: وَيُعَلِّمُهُ فَصْلَ الْحِكْمَةِ، ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾يَقُولُ: وَيُعْطِيهِ النُّبُوَّةَ، ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ﴾يَعْنِي: ثُمَّ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى عُبَادَةِ نَفْسِهِ دُونَ اللهِ، وَقَدْ آتَاهُ اللهُ – مَا آتَاهُ – مِنَ الْكِتَابِ وَالْحُكْمِ وَالنُّبُوَّةِ.

وَلَكِنْ إِذَا آتَاهُ اللهُ ذَلِكَ؛ فَإِنَّمَا يَدْعُوهُمْ إِلَى الْعِلْمِ بِاللهِ، وَيَحْدُوهُمْ[٨٨] عَلَى مَعْرِفَةِ شَرَائِعَ دِينِهِ، وَأَنْ يَكُونُوا رُؤَسَاءَ فِي الْمَعْرِفَةِ بِأَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ، وَأَئِمَّةً فِي طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، بِكَوْنِهِمْ مُعَلِّمِي النَّاسِ الْكِتَابَ، وَبِكَوْنِهِمْ دَارِسِيهِ.

---

[٨٧] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَأَصْلُ اللَّيِّ: الْفَتْلُ وَالْقَلْبُ، مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: لَوَى فُلَانٌ يَدَ فُلَانٍ: إِذَا فَتَلَهَا وَقَلَبَهَا.

[٨٨] يُقَالُ: حَدَوْتُهُ عَلَى كَذَا؛ أَيْ: سُقْتُهُ وَبَعَثْتُهُ عَلَيْهِ [مقاييس اللغة].

﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾يَعْنِي: وَلَكِنْ يَقُولُ لَهُمْ: كُونُوا رَبَّانِيِّينَ

الرَّبَّانِيُّونَ: هُمْ عِمَادُ النَّاسِ فِي الْفِقْهِ وَالْعِلْمِ وَأُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا.

وَالرَّبَّانِيُّ: الْجَامِعُ إِلَى الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ الْبَصَرَ بِالسِّيَاسَةِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْقِيَامِ بِأُمُورِ الرَّعِيَّةِ، وَمَا يُصْلِحُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَدِينِهِمْ.

﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾الْكِتَابُ: هُوَ الْقُرْآنُ، وَدِرَاسَتُهُمْ إِيَّاهُ: تِلَاوَتُهُ.

فَمَعْنَى الْآيَةِ: وَلَكِنْ يَقُولُ لَهُمْ: كُونُوا – أَيُّهَا النَّاسُ – سَادَةَ النَّاسِ، وَقَادَتَهُمْ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، رَبَّانِيِّينَ بِتَعْلِيمِكُمْ إِيَّاهُمْ كِتَابَ اللهِ وَمَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ وَحَرَامٍ، وَفَرْضٍ وَنَدْبٍ، وَسَائِرِ مَا حَوَاهُ مِنْ مَعَانِي أُمُورِ دِينِهِمْ، وَبِتَلَاوَتِكُمْ إِيَّاهُ وَدِرَاسَتِكُمُوهُ.

٨٠– ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾يَعْنِي: وَمَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ أَنْ يَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا، يَعْنِي بِذَلِكَ: آلِهَةً يُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، كَمَا لَيْسَ لَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ!.

ثُمَّ قَالَ – جَلَّ ثناؤُهُ – نَافِيًا عَنْ نَبِيِّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنْ يَأْمُرَ عِبَادَهُ بِذَلِكَ: ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ﴾ – أَيُّهَا النَّاسُ – نَبِيُّكُمْ، بِجُحُودِ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾يَعْنِي: بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ لَهُ مُنْقَادُونَ بِالطَّاعَةِ، مُتَذَلِّلُونَ لَهُ بِالْعُبُودَةِ، أَيْ: أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ كَائِنٍ مِنْهُ أَبَدًا!!.

٨١– ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ﴾يَعْنِي: وَاذْكُرُوا – يَا أَهْلَ الْكِتَابِ – إِذْ أَخَذَ اللهُ ﴿مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾يَعْنِي: حِينَ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ، وَمِيثَاقُهُمْ: مَا وَثَّقُوا بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ طَاعَةَ اللهِ فِيمَا أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ.

﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ﴾يَعْنِي: لَمَهْمَا آتَيْتُكُمْ – أَيُّهَا النَّبِيُّونَ – ﴿مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ مِنْ عِنْدِي ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾يَقُولُ: لَتُصَدِّقُنَّهُ ﴿وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾.

﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ﴾يَعْنِي: فَقَالَ لَهُمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ: أَأَقْرَرْتُمْ بِالْمِيثَاقِ الَّذِي وَاثَقْتُمُونِي عَلَيْهِ: مِنْ أَنَّكُمْ مَهْمَا أَتَاكُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِي مُصَدِّقٌ لَمَا مَعَكُمْ، لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴿وَأَخَذْتُمْ[89] عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾؟ يَقُولُ: وَأَخَذْتُمْ عَلَى مَا وَاثَقْتُمُونِي عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ الَّتِي تَأْتِيكُمْ بِتَصْدِيقِ مَا مَعَكُمْ مِنْ عِنْدِي وَالْقِيَامِ بِنُصْرَتِهِمْ ﴿إِصْرِي﴾يَعْنِي: عَهْدِي وَوَصِيَّتِي، وَقَبِلْتُمْ فِي ذَلِكَ مِنِّي وَرَضِيتُمُوهُ؟

﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾يَعْنِي: قَالَ النَّبِيُّونَ – الَّذِينَ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَهُمْ بِمَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ –: أَقْرَرْنَا بِمَا أَلْزَمْتَنَا مِنَ الْإِيمَانِ بِرُسُلِكَ الَّذِينَ تُرْسِلُهُمْ مُصَدِّقِينَ لِمَا مَعَنَا مِنْ كُتُبِكَ، وَبِنُصْرَتِهِمْ.

﴿قَالَ﴾ اللهُ: ﴿فَاشْهَدُوا﴾ – أَيُّهَا النَّبِيُّونَ – بِمَا أَخَذْتُ بِهِ مِيثَاقَكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِتَصْدِيقِ رُسُلِي الَّتِي تَأْتِيكُمْ بِتَصْدِيقِ مَا مَعَكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَنُصْرَتِهِمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَلَى أَتْبَاعِكُمْ مِنَ الْأُمَمِ إِذْ أَنْتُمْ أَخَذْتُمْ مِيثَاقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ عَلَيْكُمْ وَعَلَيْهِمْ بِذَلِكَ.

٨٢– ﴿فَمَنْ تَوَلَّى﴾يَعْنِي: فَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْإِيمَانِ بِرُسُلِي الَّذِينَ أَرْسَلْتُهُمْ بِتَصْدِيقِ مَا كَانَ مَعَ أَنْبِيَائِي مِنَ الْكُتُبِ وَالْحِكْمَةِ، وَعَنْ نُصْرَتِهِمْ، فَأَدْبَرَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِذَلِكَ، وَلَمْ يَنْصُرْ، وَنَكَثَ عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾يَعْنِي: بَعْدَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ عَلَيْهِ؛ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: أَنَّ الْمُتَوَلِّينَ عَنِ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ – الَّذِينَ وَصَفَ أَمْرَهُمْ – وَنُصْرَتِهِمْ بَعْدَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ اللَّذَيْنِ أُخِذَا عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾يَعْنِي بِذَلِكَ: الْخَارِجُونَ مِنْ دِينِ اللهِ، وَطَاعَةِ رَبِّهِمْ.

٨٣– ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾يَقُولُ: أَفَغَيْرَ طَاعَةِ اللهِ تَلْتَمِسُونَ وَتُرِيدُونَ، ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾يَقُولُ: وَلَهُ خَشَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَخَضَعَ لَهُ بِالْعُبُودَةِ، وَأَقَرَّ لَهُ

---

[89] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَالْأَخْذُ: هُوَ الْقَبُولُ – فِي هَذَا الْمَوْضِعِ – وَالرِّضَى، مِنْ قَوْلِهِمْ: أَخَذَ الْوَالِي عَلَيْهِ الْبَيْعَةَ، بِمَعْنَى: بَايَعَهُ وَقَبِلَ وِلَايَتَهُ وَرَضِيَ بِهَا.

بِإِفْرَادِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَانْقَادَ لَهُ بِإِخْلَاصِ التَّوْحِيدِ وَالْأُلُوهِيَّةِ ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾يقُولُ: أَسْلَمَ لِلَّهِ طَائِعًا مَنْ كَانَ إِسْلَامُهُ مِنْهُمْ لَهُ طَائِعًا؛ وَذَلِكَ كَالْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، فَإِنَّهُمْ أَسْلَمُوا لِلَّهِ طَائِعِينَ، (وَكَرْهًا) مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَارِهًا.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾يَعْنِي: وَإِلَيْهِ – يَا مَعْشَرَ مَنْ يَبْتَغِي غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَسَائِرَ النَّاسِ – (تُرْجَعُونَ)، يَقُولُ: إِلَيْهِ تَصِيرُونَ بَعْدَ مَمَاتِكُمْ، فَمُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ: الْمُحْسِنَ مِنْكُمْ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ.

وَهَذَا مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – تَحْذِيرٌ خَلْقَهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ فَيَصِيرُ إِلَيْهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ عَلَى غَيْرِ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ!!.

٨٤– ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ﴾يَعْنِي: أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ تَبْغُونَ – يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ –، وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، فَإِنِ ابْتَغَوْا غَيْرَ دِينِ اللهِ – يَا مُحَمَّدُ –، فَقُلْ لَهُمْ: آمَنَّا بِاللهِ.

قَوْلُهُ: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ﴾يَعْنِي: قُلْ لَهُمْ – يَا مُحَمَّدُ –: صَدَّقْنَا بِاللهِ أَنَّهُ رَبُّنَا وَإِلَهُنَا، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا نَعْبُدُ أَحَدًا سِوَاهُ؛ ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾يَقُولُ: وَقُلْ: وَصَدَّقْنَا – أَيْضًا – بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مِنْ وَحْيِهِ وَتَنْزِيلِهِ، فَأَقْرَرْنَا بِهِ ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾يَقُولُ: وَصَدَّقْنَا – أَيْضًا – بِمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ وَعَلَى ابْنَيْهِ ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَ﴾ابْنِ ابْنِهِ ﴿يَعْقُوبَ وَ﴾بِمَا أُنْزِلَ عَلَى ﴿الْأَسْبَاطِ﴾ – وَهُمْ وَلَدُ يَعْقُوبَ الِاثْنَا عَشَرَ –، ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾يَقُولُ: وَصَدَّقْنَا – أَيْضًا – مَعَ ذَلِكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَى مُوسَى وَعِيسَى مِنَ الْكُتُبِ وَالْوَحْيِ، ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وَبِمَا أَنْزَلَ عَلَى النَّبِيِّينَ مِنْ عِنْدِهِ.

وَالَّذِي آتَى اللهُ مُوسَى وَعِيسَى – مِمَّا أَمَرَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – مُحَمَّدًا بِتَصْدِيقِهِمَا فِيهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ –: التَّوْرَاةِ الَّتِي آتَاهَا مُوسَى، وَالْإِنْجِيلِ الَّذِي أَتَاهُ عِيسَى.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾يَقُولُ: لَا نُصَدِّقُ بَعْضَهُمْ وَنُكَذِّبُ بَعْضَهُمْ، وَلَا نُؤْمِنُ بِبَعْضِهِمْ وَنَكْفُرُ بِبَعْضِهِمْ، كَمَا كَفَرَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِبَعْضِ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَصَدَّقَتْ بَعْضًا، وَلَكِنَّا نُؤْمِنُ بِجميعِهِمْ، وَنُصَدِّقُهُمْ. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾يَعْنِي: وَنَحْنُ نَدِينُ لِلَّهِ بِالْإِسْلَامِ، لَا نَدِينُ غَيْرَهُ؛ بَلْ نَتَبَرَّأُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ دِينٍ سِوَاهُ، وَمِنْ كُلِّ مِلَّةٍ غَيْرِهِ.

وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾: وَنَحْنُ لَهُ مُنْقَادُونَ بِالطَّاعَةِ، مُتَذَلِّلُونَ بِالْعُبُودَةِ، مُقِرُّونَ لَهُ بِالْأُلُوهَةِ وَالرَّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ.

٨٥- ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾يَعْنِي: وَمَنْ يَطْلُبْ دِينًا غَيْرَ دِينِ الْإِسْلَامِ لِيَدِينَ بِهِ، فَلَنْ يَقْبَلَ اللهُ مِنْهُ، ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾يَقُولُ: مِنَ الْبَاخِسِينَ أَنْفُسَهُمْ حُظُوظَهَا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -.

٨٦- ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَسْلَمَ، ثُمَّ ارْتَدَّ وَلَحِقَ بِالشِّرْكِ، ثُمَّ نَدِمَ، فَأَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ: أَرْسِلُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: فَنَزَلَتْ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ قَوْمُهُ، فَأَسْلَمَ.[٩٠]

[٩٠] صحيح: رواه أحمد، النسائي، وابن حبان في صحيحه، والطحاوي في شرح مشكل الآثار، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والضياء في المختارة؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٣٠٦٦)، والتعليقات الحسان(٤٤٦٠)، وقال أحمد شاكر في تعليقه على المسند(٢٢١٨): إسناده صحيح.

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ إِذًا: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾يَعْنِي: كَيْفَ يُرْشِد اللهُ لِلصَّوَابِ وَيُوَفِّقُ لِلْإِيمَانِ، قَوْمًا جَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾أَيْ: بَعْدَ تَصْدِيقِهِمْ إِيَّاهُ، وَإِقْرَارِهِمْ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾يَقُولُ: وَبَعْدَ أَنْ أَقَرُّوا أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى خَلْقِهِ حَقًّا ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾يَعْنِي: وَجَاءَهُمُ الْحُجَجُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَالدَّلَائِلُ بِصِحَّةِ ذَلِكَ. ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾يَقُولُ: وَاللهُ لَا يُوَفِّقُ لِلْحَقِّ وَالصَّوَابِ الْجَمَاعَةَ الظَّلَمَةَ؛ وَهُمُ الَّذِينَ بَدَّلُوا الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ، فَاخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ!!.

٨٧– ﴿أُولَئِكَ﴾يَعْنِي: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، وَبَعْدَ أَنْ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ثَوَابُهُمْ مِنْ عَمَلِهِمُ الَّذِي عَمِلُوهُ ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ﴾يَعْنِي: أَنْ حَلَّ بِهِمْ مِنَ اللهِ الْإِقْصَاءُ وَالْبُعْدُ، وَمِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ الدُّعَاءُ[٩١] بِمَا يَسُوؤُهُمْ مِنَ الْعِقَابِ! ﴿أَجْمَعِينَ﴾يَعْنِي: مِنْ جَمِيعِهِمْ، لَا مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمَّاهُ – جَلَّ ثناؤُهُ – مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ، وَلَكِنْ مِنْ جَمِيعِهِمْ. وَإِنَّمَا جَعَلَ ذَلِكَ – جَلَّ ثناؤُهُ – ثَوَابَ عَمَلِهِمْ؛ لِأَنَّ عَمَلَهُمْ كَانَ بِاللهِ كُفْرًا!.

٨٨– ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾يَعْنِي: مَاكِثِينَ فِيهَا، يَعْنِي: فِي عُقُوبَةِ اللهِ ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾لَا يُنْقَصُونَ مِنَ الْعَذَابِ شَيْئًا فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ! وَلَا يُنَفَّسُونَ فِيهِ!! ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾يَعْنِي: وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ لِمَعْذِرَةٍ يَعْتَذِرُونَ!.

ثُمَّ اسْتَثْنَى جَلَّ ثناؤُهُ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، فَقَالَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –:

٨٩– ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾يَعْنِي: إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ارْتِدَادِهِمْ عَنْ إِيمَانِهِمْ، فَرَاجَعُوا الْإِيمَانَ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، وَصَدَّقُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ عِنْدِ

---

[٩١] قَارِن بِطَبْعَةِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر.

رَبِّهِمْ ﴿وَأَصْلَحُوا﴾يَعْنِي: وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾يَعْنِي: فَإِنَّ اللهَ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ كُفْرِهِ ﴿غَفُورٌ﴾يَعْنِي: سَاتِرٌ عَلَيْهِ ذَنْبَهُ الَّذِي كَانَ مِنْهُ مِنَ الرِّدَّةِ، فَتَارِكٌ عُقُوبَتَهُ عَلَيْهِ، وَفَضِيحَتَهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ! غَيْرُ مُؤَاخِذِهِ بِهِ إِذَا مَاتَ عَلَى التَّوْبَةِ مِنْهُ، ﴿رَحِيمٌ﴾مُتَعَطِّفٌ عَلَيْهِ بِالرَّحْمَةِ.

٩٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنَ الْيَهُودِ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عِنْدَ مَبْعَثِهِ ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ بِهِ قَبْلَ مَبْعَثِهِ، ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ بِمَا أَصَابُوا مِنَ الذُّنُوبِ فِي كُفْرِهِمْ وَمُقَامِهِمْ عَلَى ضَلَالَتِهِمْ، ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ[٩٢]﴾ مِنْ ذُنُوبِهِمُ الَّتِي أَصَابُوهَا فِي كُفْرِهِمْ، حَتَّى يَتُوبُوا مِنْ كُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَيُرَاجِعُوا التَّوْبَةَ مِنْهُ بِتَصْدِيقِهِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

٩١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾أَيْ: جَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَلَمْ يُصَدِّقُوا بِهِ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ مِنْ أَهْلِ كُلِّ مِلَّةٍ يَهُودُهَا وَنَصَارَاهَا وَمَجُوسُهَا وَغَيْرُهُمْ ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾يَعْنِي: وَمَاتُوا عَلَى ذَلِكَ مِنْ جُحُودِ نُبُوَّتِهِ، وَجُحُودِ مَا جَاءَ بِهِ ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾يَقُولُ: فَلَنْ يُقْبَلَ مِمَّنْ كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فِي الْآخِرَةِ جَزَاءٌ وَلَا رِشْوَةٌ عَلَى تَرْكِ عُقُوبَتِهِ عَلَى كُفْرِهِ، وَلَا جُعْلٌ عَلَى الْعَفْوِ عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ لَهُ مِنَ الذَّهَبِ قَدْرُ مَا يَمْلَأُ الْأَرْضَ

---

[٩٢] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿**لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**﴾إِنَّمَا هُوَ مَعْنِيٌّ بِهِ: لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ مِمَّا ازْدَادُوا مِنَ الْكُفْرِ عَلَى كُفْرِهِمْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، لَا مِنْ كُفْرِهِمْ؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – وَعَدَ أَنْ يَقْبَلَ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادِهِ، فَقَالَ: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**﴾ فَمُحَالٌ أَنْ يَقُولَ – عَزَّ وَجَلَّ –: (أَقْبَلُ) وَ(لَا أَقْبَلُ) فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ!!.

وَإِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ – وَكَانَ مِنْ حُكْمِ اللهِ فِي عِبَادِهِ أَنَّهُ قَابِلٌ تَوْبَةَ كُلِّ تَائِبٍ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، وَكَانَ الْكُفْرُ بَعْدَ الْإِيمَانِ أَحَدَ تِلْكَ الذُّنُوبِ الَّتِي وَعَدَ قَبُولَ التَّوْبَةِ مِنْهَا، بِقَوْلِهِ: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ – عُلِمَ أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي لَا تُقْبَلُ التَّوْبَةُ مِنْهُ، غَيْرُ الْمَعْنَى الَّذِي تُقْبَلُ التَّوْبَةُ مِنْهُ.

وَإِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ فَالَّذِي لَا تُقْبَلُ مِنْهُ التَّوْبَةُ: هُوَ الِازْدِيَادُ عَلَى الْكُفْرِ بَعْدَ الْكُفْرِ، لَا يَقْبَلُ اللهُ تَوْبَةَ صَاحِبِهِ مَا أَقَامَ عَلَى كُفْرِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ مُشْرِكٍ عَمَلًا مَا أَقَامَ عَلَى شِرْكِهِ وَضَلَالِهِ! فَأَمَّا إِنْ تَابَ مِنْ شِرْكِهِ وَكُفْرِهِ وَأَصْلَحَ؛ فَإِنَّ اللهَ – كَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ – غَفُورٌ رَحِيمٌ.

مِنْ مَشْرِقِهَا إِلَى مَغْرِبِهَا، فَرَشَا وَجَزَى عَلَى تَرْكِ عُقُوبَتِهِ وَفِي الْعَفْوِ عَنْهُ عَلَى كُفْرِهِ عِوَضًا مِمَّا اللهُ مُحِلٌّ بِهِ مِنْ عَذَابِهِ!! لِأَنَّ الرُّشَا إِنَّمَا يَقْبَلُهَا مَنْ كَانَ ذَا حَاجَةٍ إِلَى مَا رُشِيَ، فَأَمَّا مَنْ لَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ، فَكَيْفَ يَقْبَلُ الْفِدْيَةَ، وَهُوَ خَلَاقُ كُلِّ فِدْيَةٍ افْتَدَى بِهَا مُفْتَدٍ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ غَيْرِهِ؟!.

ثُمَّ أَخْبَرَ - عَزَّ وَجَلَّ - عَمَّا لَهُمْ عِنْدَهُ؛ فَقَالَ:

﴿أُولَئِكَ﴾يَعْنِي: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾يَقُولُ: لَهُمْ عِنْدَ اللهِ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ مُوجِعٌ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾يَعْنِي: وَمَا لَهُمْ مِنْ قَرِيبٍ وَلَا حَمِيمٍ وَلَا صَدِيقٍ يَنْصُرُهُ، فَيَسْتَنْقِذُهُ مِنَ اللهِ وَمِنْ عَذَابِهِ، كَمَا كَانُوا يَنْصُرُونَهُ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَنْ حَاوَلَ أَذَاهُ وَمَكْرُوهَهَ عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَقُولُ: «يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ! قَالَ: فَيُقَالُ: لَقَدْ سُئِلْتَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ»، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾.[٩٣]

٩٢- ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾يَعْنِي: لَنْ تُدْرِكُوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - الْبِرَّ؛ وَهُوَ الْبِرُّ مِنَ اللهِ الَّذِي يَطْلُبُونَهُ مِنْهُ بِطَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ وَعِبَادَتِهِمْ لَهُ، وَيَرْجُونَهُ مِنْهُ، وَذَلِكَ تَفَضُّلُهُ عَلَيْهِمْ بِإِدْخَالِهِمْ جَنَّتَهُ، وَصَرْفِ عَذَابِهِ عَنْهُمْ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: الْبِرُّ: الْجَنَّةُ؛ لِأَنَّ بِرَّ الرَّبِّ بِعَبْدِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَإِكْرَامَهُ إِيَّاهُ: بِإِدْخَالِهِ الْجَنَّةَ!.

---

[٩٣] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد؛ وغيرهم.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ - تَعَالَى - لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: [لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟]**»، فَيَقُولُ: نَعَمْ! فَيَقُولُ: «**أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا؛ فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي!!**» [صحيح: رواه البخاري - واللفظ له -، ومسلم - وما بين المعقوفين له -، وأحمد؛ وغيرهم].

فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: لَنْ تَنالُوا – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – جَنَّةَ رَبِّكُمْ، ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ[٩٤]﴾يَقُولُ: حَتَّى تَتَصَدَّقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَتَهْوَوْنَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ، مِنْ نَفِيسِ أَمْوَالِكُمْ.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾يَعْنِي: وَمَهْمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَتَتَصَدَّقُوا بِهِ مِنْ أَمْوَالِكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِمَا يَتَصَدَّقُ بِهِ الْمُتَصَدِّقُ مِنْكُمْ، فَيُنْفِقُهُ مِمَّا يُحِبُّ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿عَلِيمٌ﴾يَقُولُ: هُوَ ذُو عِلْمٍ بِذَلِكَ كُلِّهِ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْهُ، حَتَّى يُجَازِيَ صَاحِبهُ عَلَيْهِ جَزَاءَهُ فِي الْآخِرَةِ.

٩٣- ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ[٩٥] مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾يَعْنِي: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَرَّمَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ – وَهُمْ وَلَدُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ – شَيْئًا مِنَ الْأَطْعِمَةِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ، بَلْ كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ لَهُمْ حَلَالًا؛ إِلَّا مَا كَانَ يَعْقُوبُ حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ وَلَدَهُ حَرَّمُوهُ اسْتِنَانًا بِأَبِيهِمْ يَعْقُوبَ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيمِ اللهِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي وَحْيٍ وَلَا تَنْزِيلٍ، وَلَا عَلَى لِسَانِ رَسُولٍ لَهُ إِلَيْهِمْ، مِنْ قَبْلِ نُزُولِ التَّوْرَاةِ.

---

[٩٤] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ اللهَ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى –، يَقُولُ: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ! فَضَعْهَا – يَا رَسُولَ اللهِ – حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**بَخٍ! ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ!! وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ**» فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ، (وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَسَمَهَا بَيْنَ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ) [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي؛ وغيرهم].

[٩٥] قَالَتِ الْيَهُودُ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: فَأَخْبِرْنَا عَمَّا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ قَالَ: «**اشْتَكَى عِرْقَ النَّسَا فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلَائِمُهُ إِلَّا لُحُومَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا؛ فَلِذَلِكَ حَرَّمَهَا**» قَالُوا: صَدَقْتَ [صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي في الكبرى، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي(٣١١٧)، وقال أحمد شاكر في تعليقه على المسند(٢٤٨٣): إسناده صحيح].

﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾يَعْنِي: قُلْ – يَا مُحَمَّدُ – لِلزَّاعِمِينَ مِنَ الْيَهُودِ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَاةِ الْعُرُوقَ وَلُحُومَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا: ائْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا، يَقُولُ: قُلْ لَهُمْ: جِيئُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لِمَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ كَذِبُهُمْ وَقِيلُهُمُ الْبَاطِلَ عَلَى اللهِ مِنْ أَمْرِهِمْ: أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِمَّا أَنْزَلْتُهُ فِي التَّوْرَاةِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾يَقُولُ: إِنْ كُنْتُمْ مُحِقِّينَ فِي دَعْوَاكُمْ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ تَحْرِيمَ ذَلِكَ فِي التَّوْرَاةِ؛ فَأْتُونَا بِهَا، فَاتْلُوا تَحْرِيمَ ذَلِكَ عَلَيْنَا مِنْهَا!!.

٩٤- ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾يَعْنِي: فَمَنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ مِنَّا وَمِنْكُمْ، مِنْ بَعْدِ مَجِيئِكُمْ بِالتَّوْرَاةِ، وَتِلَاوَتِكُمْ إِيَّاهَا، وَعَدَمِكُمْ مَا ادَّعَيْتُمْ مِنْ تَحْرِيمِ اللهِ الْعُرُوقَ وَلُحُومَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا فِيهَا؛ ﴿فَأُولَئِكَ﴾يَعْنِي: فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾يَعْنِي: فَهُمُ الْكَافِرُونَ ، الْقَائِلُونَ عَلَى اللهِ الْبَاطِلَ.

٩٥- ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ[٩٦]﴾يَعْنِي: قُلْ – يَا مُحَمَّدُ –: صَدَقَ اللهُ فِيمَا أَخْبَرَنَا بِهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وَأَنَّ اللهَ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَى إِسْرَائِيلَ وَلَا عَلَى وَلَدِهِ الْعُرُوقَ وَلَا لُحُومَ

---

[٩٦] **فَائِدَةٌ:** قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي فَتَاوَى نُور عَلَى الدَّرْبِ: قَوْلُ (صَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ) بَعْدَ انْتِهَاءِ التِّلَاوَةِ فِي الصَّلَاةِ أَوْ فِي غَيْرِهَا: بِدْعَةٌ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلَا عَنْ أَصْحَابِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا انْتَهَوْا مِنَ الْقِرَاءَةِ قَالُوا: (صَدَقَ اللهُ). وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ: (صَدَقَ اللهُ): عِبَادَةٌ؛ لِأَنَّهُ ثَنَاءٌ عَلَى اللهِ بِالصِّدْقِ، وَإِذَا كَانَ عِبَادَة؛ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ نُشَرِّعَ مِنَ الْعِبَادَاتِ مَا لَمْ يَشْرَعْهُ اللهُ وَرَسُولُهُ! فَإِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ كَانَ بِدْعَةً، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ!!.

وَعَلَى هَذَا: فَالْقَارِئُ إِذَا انْتَهَى مِنْ قِرَاءَتِهِ يَسْكُتُ، وَلَا يَقُولُ: (صَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ) وَلَا غَيْرَهَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَرِدْ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلَا عَنْ أَصْحَابِهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ –.

وَقَدْ قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – عَلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – شَيْئًا مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ قَوْلَ اللهِ – تعالى –: (**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**)؛ قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**حَسْبُكَ!**»، قَالَ: فَالْتَفَتُّ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ – صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ – وَلَمْ يَقُلِ ابْنُ مَسْعُودٍ: (صَدَقَ اللهُ)، وَلَا أَمَرَهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِذَلِكَ!. [وَالْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا]

وَكَذَلِكَ قَرَأَ عِنْدَهُ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ سُورَةَ النَّجْمِ حَتَّى خَتَمَهَا - [وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا] - وَلَمْ يَقُلِ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَهُ: قُلْ (صَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ)، وَلَا قَالَهَا – أَيْضًا –، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ هَدِيِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَلَا هَدِيِ أَصْحَابِهِ أَنْ يَقُولُوا عِنْدَ انْتِهَاءِ الْقِرَاءَةِ: (صَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ)؛ لَا فِي الصَّلَاةِ، وَلَا خَارِجَ الصَّلَاةِ اهـ.

الْإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا، وَأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ شَيْئًا حَرَّمَهُ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ بِغَيْرِ تَحْرِيمِ اللهِ إِيَّاهُ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَاةِ، وَفِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ عِبَادَهُ مِنْ خَبَرٍ، دُونَكُمْ.

وَأَنْتُمْ – يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ – الْكَذَبَةُ فِي إِضَافَتِكُمْ تَحْرِيمَ ذَلِكَ إِلَى اللهِ عَلَيْكُمْ فِي التَّوْرَاةِ، الْمُفْتَرِيَةُ عَلَى اللهِ الْبَاطِلَ فِي دَعْوَاكُمْ عَلَيْهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾يَقُولُ: فَإِنْ كُنْتُمْ – أَيُّهَا الْيَهُودُ – مُحِقِّينَ فِي دَعْوَاكُمْ أَنَّكُمْ عَلَى الدِّينِ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ لِأَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ، فَإِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ دِينًا، وَابْتَعَثَ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ، وَذَلِكَ الْحَنِيفِيَّةُ – يَعْنِي: الِاسْتِقَامَةَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ – دُونَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمُشْرِكَةِ.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾يَقُولُ: لَمْ يَكُنْ يُشْرِكُ فِي عِبَادَتِهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ.

فَكَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيْضًا – أَيُّهَا الْيَهُودُ –، فَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ تُطِيعُونَهُمْ كَطَاعَةِ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ، وَأَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ! فَلَا تَتَّخِذُوا الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ أَرْبَابًا، وَلَا تَعْبُدُوا شَيْئًا مِنْ دُونِ اللهِ؛ فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ كَانَ دِينُهُ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِرَبِّهِ وَحْدَهُ، مِنْ غَيْرِ إِشْرَاكِ أَحَدٍ مَعَهُ فِيهِ.

٩٦– ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾يَعْنِي: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ مُبَارَكٍ وَهُدًى وُضِعَ لِلنَّاسِ، لَلَّذِي بِبَكَّةَ.

وَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ – أَيْ: لِعُبَادَةِ اللهِ فِيهِ – مُبَارَكًا وَهُدًى، يَعْنِي بِذَلِكَ: وَمَآبًا لِنُسكِ النَّاسِكِينَ وَطَوَافِ الطَّائِفِينَ، تَعْظِيمًا لِلَّهِ وَإِجْلَالًا لَهُ؛ لَلَّذِي بِبَكَّةَ؛ لِصِحَّةِ الْخَبَرِ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أَوَّلُ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ»، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى»، قَالَ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً.[٩٧]

فَقَدْ بَيَّنَ هَذَا الْخَبَرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ هُوَ أَوَّلُ مَسْجِدٍ وَضَعَهُ اللهُ فِي الْأَرْضِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ[٩٨] مُبَارَكًا﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي: لَلْبَيْتِ الَّذِي بِمُزْدَحِمِ النَّاسِ لِطَوَافِهِمْ فِي حَجِّهِمْ وَعُمَرِهِمْ.

وَقِيلَ: ﴿مُبَارَكًا﴾؛ لِأَنَّ الطَّوَافَ بِهِ مَغْفِرَةٌ لِلذُّنُوبِ.

٩٧– ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يَعْنِي: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ، لَلَّذِي بِبَكَّةَ، فِيهِ عَلَامَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ وَآثَارِ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، مِنْهُنَّ: أَثَرُ قَدَمِ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الْحَجَرِ الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ.

﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ مَعْنَى ذَلِكَ: وَمَنْ دَخَلَهُ مِنْ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَجَأَ إِلَيْهِ عَائِذًا بِهِ؛ كَانَ آمِنًا مَا كَانَ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ يُخْرَجُ مِنْهُ فَيُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ، إِنْ كَانَ أَصَابَ مَا يَسْتَوْجِبُهُ فِي غَيْرِهِ ثُمَّ لَجَأَ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ أَصَابَهُ فِيهِ أُقِيمَ عَلَيْهِ فِيهِ.

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ إِذًا: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، وَمَنْ يُدْخُلْهُ مِنَ النَّاسِ مُسْتَجِيرًا بِهِ، يَكُنْ آمِنًا مِمَّا اسْتَجَارَ مِنْهُ مَا كَانَ فِيهِ، حَتَّى يُخْرَجَ مِنْهُ.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ يَعْنِي: وَفَرْضٌ وَاجِبٌ لِلَّهِ – عَلَى مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْ أَهْلِ التَّكْلِيفِ السَّبِيلَ إِلَى حَجِّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ – الْحَجَّ إِلَيْهِ.

---

[٩٧] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد؛ وغيرهم.

[٩٨] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَصْلُ الْبَكِّ: الزَّحْمُ، يُقَالُ مِنْهُ: بَكَّ فُلَانٌ فُلَانًا: إِذَا زَحَمَهُ وَصَدَمَهُ فَهُوَ يَبُكُّهُ بَكًّا، وَهُمْ يَتَبَاكُّونَ فِيهِ: يَعْنِي بِهِ: يَتَزَاحَمُونَ وَيَتَصَادَمُونَ فِيهِ. فَكَأَنَّ بَكَّة: (فَعْلَةٌ) مِنْ بَكَّ فُلَانٌ فُلَانًا: زَحَمَهُ، سُمِّيَتِ الْبُقْعَةُ بِفِعْلِ الْمُزْدَحِمِينَ بِهَا.

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وَمَا السَّبِيلُ الَّتِي يَجِبُ مَعَ اسْتِطَاعَتِهَا فَرْضُ الْحَجِّ؟

وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا بِالصَّوَابِ: قَوْلُ مَنْ قَالَ: أَنَّ ذَلِكَ عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ؛ لِأَنَّ السَّبِيلَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الطَّرِيقُ، فَمَنْ كَانَ وَاجِدًا طَرِيقًا إِلَى الْحَجِّ لَا مَانِعَ لَهُ مِنْهُ مِنْ زَمَانَةٍ، أَوْ عَجْزٍ، أَوْ عَدُوٍّ، أَوْ قِلَّةِ مَاءٍ فِي طَرِيقِهِ، أَوْ زَادٍ، أَوْ ضَعْفٍ عَنِ الْمَشْيِ؛ فَعَلَيْهِ فَرْضُ الْحَجِّ لَا يُجْزِيهِ إِلَّا أَدَاؤُهُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَاجِدًا سَبِيلًا - أَعْنِي بِذَلِكَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُطِيقًا الْحَجَّ، بِتَعَذُّرِ بَعْضِ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي وَصَفْنَاهَا عَلَيْهِ - فَهُوَ مِمَّنْ لَا يَجِدُ إِلَيْهِ طَرِيقًا وَلَا يَسْتَطِيعُهُ؛ لِأَنَّ الِاسْتِطَاعَةَ إِلَى ذَلِكَ، هُوَ الْقُدْرَةُ عَلَيْهِ. وَمَنْ كَانَ عَاجِزًا عَنْهُ بِبَعْضِ الْأَسْبَابِ الَّتِي ذَكَرْنَا أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَهُوَ غَيْرُ مُطِيقٍ وَلَا مُسْتَطِيعٍ إِلَيْهِ السَّبِيلَ.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾يَعْنِي: وَمَنْ جَحَدَ مَا أَلْزَمَهُ اللهُ مِنْ فَرْضِ حَجِّ بَيْتِهِ، فَأَنْكَرَهُ وَكَفَرَ بِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْهُ وَعَنْ حَجِّهِ وَعَمَلِهِ، وَعَنْ سَائِرِ خَلْقِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ!.

٩٨- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾يَعْنِي: يَا مَعْشَرَ يَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ مَنْ يَنْتَحِلِ الدِّيَانَةَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ كُتُبِهِ، مِمَّنْ كَفَرَ بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَجَحَدَ نُبُوَّتَهُ؛ ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾؟

يَقُولُ: لِمَ تَجْحَدُونَ حُجَجَ اللهِ الَّتِي آتَاهَا مُحَمَّدًا فِي كُتُبِكُمْ وَغَيْرِهَا، الَّتِي قَدْ ثَبَتَتْ عَلَيْكُمْ بِصِدْقِهِ وَنُبُوَّتِهِ وَحُجَّتِهِ. وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ[٩٩]، يَقُولُ: لِمَ تَجْحَدُونَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقَهُ؟! فَأَخْبَرَ - جَلَّ ثناؤُهُ - عَنْهُمْ أَنَّهُمْ مُتَعَمِّدُونَ الْكُفْرَ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ، وَمَعْرِفَةٍ مِنْ كُفْرِهِمْ!.

---

[٩٩] قَالَ الْمُحَقِّقُ الْكَبِيرُ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر فِي تَعْلِيقِهِ عَلَى هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ تَفْسِيرِ الطَّبَرِيِّ: ظَاهِرٌ أَنَّ أَبَا جَعْفَرٍ وَهِمَ، وَتَرَكَ تَفْسِيرَ بَقِيَّةِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَفَسَّرَ مَكَانَهَا: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ وَهِيَ لَيْسَتْ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ فِي شَيْءٍ!.

٩٩- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾يَعْنِي: يَا مَعْشَرَ يَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَنْتَحِلُ التَّصْدِيقَ بِكُتُبِ اللهِ: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾يَقُولُ: لِمَ تَضِلُّونَ عَنْ طَرِيقِ اللهِ وَمَحَجَّتِهِ الَّتِي شَرَّعَهَا لِأَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ الْإِيمَانِ ﴿مَنْ آمَنَ﴾يَقُولُ: مَنْ صَدَّقَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾يَعْنِي: تَبْغُونَ لَهَا عِوَجًا.

يَعْنِي: تَبْغُونَ لِأَهْلِ دِينِ اللهِ، وَلِمَنْ هُوَ عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ، عِوَجًا، يَقُولُ: ضَلَالًا عَنِ الْحَقِّ، وَزَيْغًا عَنِ الِاسْتِقَامَةِ عَلَى الْهُدَى وَالْمَحَجَّةِ.

﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾يَعْنِي: شُهَدَاءَ عَلَى أَنَّ الَّذِيَ تَصُدُّونَ عَنْهُ مِنَ السَّبِيلِ حَقٌّ، تَعْلَمُونَهُ وَتَجِدُونَهُ فِي كُتُبِكُمْ ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾يَقُولُ: لَيْسَ اللهُ بِغَافِلٍ عَنْ أَعْمَالِكُمُ الَّتِي تَعْمَلُونَهَا مِمَّا لَا يَرْضَاهُ لِعِبَادِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، حَتَّى يُعَاجِلَكُمْ بِالْعُقُوبَةِ عَلَيْهَا مُعَجَّلَةً، أَوْ يُؤَخِّرَ ذَلِكَ لَكُمْ حَتَّى تَلْقَوْهُ فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا!!.

١٠٠- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾يَعْنِي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَقُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، وَأَقَرُّوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ عِنْدِ اللهِ، إِنْ تُطِيعُوا جَمَاعَةً مِمَّنْ يَنْتَحِلُ الْكِتَابَ مِنْ أَهْلِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، فَتَقْبَلُوا مِنْهُمْ مَا يَأْمُرُونَكُمْ بِهِ، يُضِلُّوكُمْ فَيَرُدُّوكُمْ بَعْدَ تَصْدِيقِكُمْ رَسُولَ رَبِّكُمْ، وَبَعْدَ إِقْرَارِكُمْ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ، كَافِرِينَ.

يَقُولُ: جَاحِدِينَ لِمَا قَدْ آمَنْتُمْ بِهِ وَصَدَّقْتُمُوهُ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَكُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ.

فَنَهَاهُمْ – جَلَّ ثناؤُهُ – أَنْ يَنْتَصِحُوهُمْ، وَيَقْبَلُوا مِنْهُمْ رَأْيًا أَوْ مَشُورَةً، وَيُعَلِّمُهُمْ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَنَّهُمْ لَهُمْ مُنْطَوُونَ عَلَى غِلٍّ وَغِشٍّ وَحَسَدٍ وَبُغْضٍ!!.

١٠١- ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - بَعْدَ إِيمَانِكُمْ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، فَتَرْتَدُّوا عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ﴾يَعْنِي: حُجَجُ اللهِ عَلَيْكُمُ الَّتِي أَنْزَلَهَا فِي كِتَابِهِ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ[١٠٠]﴾ حُجَّةٌ أُخْرَى عَلَيْكُمْ لِلَّهِ، مَعَ آيِ كِتَابِهِ، يَدْعُوكُمْ جَمِيع ذَلِكَ إِلَى الْحَقِّ، وَيُبَصِّرُكُمُ الْهُدَى وَالرَّشَادَ، وَيَنْهَاكُمْ عَنِ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ.

يَقُولُ لَهُمْ - تَعَالَى ذِكْرُهُ -: فَمَا وَجْهُ عُذْرِكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ فِي جُحُودِكُمْ نُبُوَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَارْتِدَادِكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ، وَرُجُوعِكُمْ إِلَى أَمْرِ جَاهِلِيَّتِكُمْ، إِنْ أَنْتُمْ رَاجَعْتُمْ ذَلِكَ وَكَفَرْتُمْ، وَفِيهِ هَذِهِ الْحُجَجُ الْوَاضِحَةُ وَالْآيَاتُ الْبَيِّنَةُ، عَلَى خَطَأِ فِعْلِكُمْ ذَلِكَ إِنْ فَعَلْتُمُوهُ؟!.

﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ﴾يَعْنِي: وَمَنْ يَتَعَلَّقْ بِأَسْبَابِ اللهِ، وَيَتَمَسَّكْ بِدِينِهِ وَطَاعَتِهِ؛ ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[١٠١]﴾يَقُولُ: فَقَدْ وُفِّقَ لِطَرِيقٍ وَاضِحٍ، وَمَحَجَّةٍ مُسْتَقِيمَةٍ غَيْرِ مُعْوَجَّةٍ، فَيَسْتَقِيمُ بِهِ إِلَى رِضَى اللهِ، وَإِلَى النَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَالْفَوْزِ بِجَنَّتِهِ.

١٠٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾يَعْنِي: يَا مَعْشَرَ مَنْ صَدَّقَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾خَافُوا اللهَ وَرَاقِبُوهُ بِطَاعَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾حَقَّ خَوْفِهِ؛ وَهُوَ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَيُشْكَرَ فَلَا

---

[١٠٠] قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ: «**أَيُّ الْخَلْقِ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيمَانًا؟**» قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ، قَالَ: «**وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟**»، قَالُوا: فَالنَّبِيُّونَ، قَالَ: «**وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟**»، قالوا: فَنَحْنُ، قَالَ: «**وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟**»، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**أَلَا إِنَّ أَعْجَبَ الْخَلْقِ إِلَيَّ إِيمَانًا؛ لَقَوْمٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ، يَجِدُونَ صُحُفًا فِيهَا كِتَابٌ، يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا!!**» [حسن: رواه الطبراني في الكبير، الطحاوي في شرح مشكل الآثار، والبيهقي في دلائل النبوة، وابن عرفة في جزئه، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة، والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث؛ وحسنه الألباني في الصحيحة(٣٢١٥)].

[١٠١] عنِ ابنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَطَبَ النَّاسَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ؛ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا: كِتَابُ اللهِ، وَسُنَّةُ نَبِيِّهِ**» [صحيح: أخرجه البيهقي في الكبرى، والحاكم، والمروزي في السنة؛ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٤٠)].

يُكْفَرَ، وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى.[102]

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ – ﴿إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ لِرَبِّكُمْ، مُذْعِنُونَ لَهُ بِالطَّاعَةِ، مُخْلِصُونَ لَهُ الْأُلُوهَةَ وَالْعِبَادَةَ.

١٠٣– ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ[103] جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا[104]﴾ يَعْنِي: وَتَعَلَّقُوا بِأَسْبَابِ اللهِ جَمِيعًا. يُرِيدُ بِذَلِكَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: وَتَمَسَّكُوا بِدِينِ اللهِ الَّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ، وَعَهْدِهِ الَّذِي عَهِدَهُ إِلَيْكُمْ فِي كِتَابِهِ إِلَيْكُمْ؛ مِنَ الْأُلْفَةِ وَالِاجْتِمَاعِ عَلَى كَلِمَةِ الْحَقِّ، وَالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِ اللهِ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «كِتَابُ اللهِ: هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ».[105]

---

[102] قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى: (**حَقَّ تُقَاتِهِ**): أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ، أَيْ: بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ – تَعَالَى – لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾.

[103] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَمَّا الْحَبْلُ: فَإِنَّهُ السَّبَبُ الَّذِي يُوصَلُ بِهِ إِلَى الْبُغْيَةِ وَالْحَاجَةِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْأَمَانُ (حَبْلًا)؛ لِأَنَّهُ سَبَبٌ يُوصَلُ بِهِ إِلَى زَوَالِ الْخَوْفِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الْجَزَعِ وَالذُّعْرِ.

[104] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، [وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ] وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ**» [صحيح: رواه مسلم، والبخاري في الأدب المفرد، وأحمد، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الكبرى والشعب؛ وغيرهم].

[105] صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الكبير؛ وغيرهما، وصححه الألباني في الصحيحة(٢٠٢٤).

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: كِتَابُ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –؛ هُوَ حَبْلُ اللهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ!**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد؛ وغيرهما].

وَعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَ: «**أَبْشِرُوا! أَبْشِرُوا!! أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟**»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا!**» [صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، وابن حبان في صحيحه، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب؛ وغيرهم، وصححه الألباني في الصحيحة(٧١٣)، وصحيح الجامع(٣٤)، وصحيح الترغيب والترهيب(٣٨)].

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾يَعْنِي: وَلَا تَتَفَرَّقُوا عَنْ دِينِ اللهِ وَعَهْدِهِ الَّذِي عَهِدَ إِلَيْكُمْ فِي كِتَابِهِ؛ مِنَ الِائْتِلَافِ وَالِاجْتِمَاعِ عَلَى طَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَالِانْتِهَاءِ إِلَى أَمْرِهِ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً»، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا هَذِهِ الْوَاحِدَةُ؟ قَالَ: فَقَبَضَ يَدَهُ، وَقَالَ: «الْجَمَاعَةُ».[١٠٦]

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾يَعْنِي: وَاذْكُرُوا مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ الْأُلْفَةِ وَالِاجْتِمَاعِ عَلَى الْإِسْلَامِ.

﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾وَاذْكُرُوا – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمُ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْكُمْ حِينَ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فِي شِرْكِكُمْ[١٠٧]، يَقْتُل بَعْضكُمْ بَعْضًا، عَصَبِيَّةً فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ وَلَا طَاعَةِ رَسُولِهِ، فَأَلَّفَ اللهُ بِالْإِسْلَامِ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ، فَجَعَلَ بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ إِخْوَانًا بَعْدَ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً تَتَوَاصَلُونَ بِأُلْفَةِ الْإِسْلَامِ وَاجْتِمَاعِ كَلِمَتِكُمْ عَلَيْهِ.

فَالنِّعْمَةُ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَى الْأَنْصَارِ الَّتِي أَمَرَهُمْ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَذْكُرُوهَا: هِيَ أُلْفَةُ الْإِسْلَامِ، وَاجْتِمَاعُ كَلِمَتِهِمْ عَلَيْهَا.

وَالْعَدَاوَةُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ، الَّتِي قَالَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾؛ فَإِنَّهَا عَدَاوَةُ الْحُرُوبِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ الْحَيَّيْنِ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، يَزْعُمُ الْعُلَمَاءُ بِأَيَّامِ الْعَرَبِ، أَنَّهَا تَطَاوَلَتْ بَيْنَهُمْ عِشْرِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ!!.

فَذَكَّرَهُمْ – جَلَّ ثناؤُهُ – إِذْ وَعَظَهُمْ – عَظِيمَ مَا كَانُوا فِيهِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالشَّقَاءِ بِمُعَادَاةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَقَتْلِ بَعْضهمْ بَعْضًا، وَخَوْفِ بَعْضهمْ مِنْ بَعْضٍ! وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ بِالْإِسْلَامِ وَاتِّبَاعِ

---

[١٠٦] صحيح: رواه ابن ماجة، والطبراني في الكبير والأوسط، وابن أبي عاصم في السنة؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٤٢)، وظلال الجنة(٦٤). وَعِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ – وَغَيْرِهِ –: قَالُوا: وَمَا هِيَ تِلْكَ الْفِرْقَةُ؟ قَالَ: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**».

[١٠٧] قَارِن بِطَبْعَةِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر.

الرَّسُولِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَالْإِيمَانِ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ؛ مِنَ الِائْتِلَافِ وَالِاجْتِمَاعِ، وَأَمْنِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، وَمَصِيرِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ إِخْوَانًا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: فَأَصْبَحْتُمْ بِتَأْلِيفِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – بَيْنَكُمْ بِالْإِسْلَامِ وَكَلِمَةِ الْحَقِّ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى نُصْرَةِ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَالتَّآزُرِ عَلَى مَنْ خَالَفَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ؛ إِخْوَانًا مُتَصَادِقِينَ، لَا ضَغَائِنَ بَيْنَكُمْ وَلَا تَحَاسُدَ!.

﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ[١٠٨]مِنَ النَّارِ﴾يَعْنِي: وَكُنْتُمْ – يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ – عَلَى حَرْفِ حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ.

وَإِنَّمَا ذَلِكَ مَثَلٌ لِكُفْرِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَهْدِيَهُمُ اللهُ لِلْإِسْلَامِ.

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَكُنْتُمْ عَلَى طَرَفِ جَهَنَّمَ بِكُفْرِكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يُنْعِمَ اللهُ عَلَيْكُمْ بِالْإِسْلَامِ، فَتَصِيرُوا بِائْتِلَافِكُمْ عَلَيْهِ إِخْوَانًا، لَيْسَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْوُقُوعِ فِيهَا إِلَّا أَنْ تَمُوتُوا عَلَى ذَلِكَ مِنْ كُفْرِكُمْ! فَتَكُونُوا مِنَ الْخَالِدِينَ فِيهَا! ﴿فَأَنْقَذَكُمْ﴾ اللهُ ﴿مِنْهَا﴾ بِالْإِيمَانِ الَّذِي هَدَاكُمْ لَهُ.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾يَعْنِي: كَمَا بَيَّنَ لَكُمْ رَبُّكُمْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ – مِنْ غِلِّ الْيَهُودِ الَّذِي يُضْمِرُونَهُ لَكُمْ، وَغِشِّهِمْ لَكُمْ، وَأَمْرِهِ إِيَّاكُمْ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ فِيهَا، وَنَهْيِهِ لَكُمْ عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ، وَالْحَالِ الَّتِي كُنْتُمْ عَلَيْهَا فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ، وَالَّتِي صِرْتُمْ إِلَيْهَا فِي إِسْلَامِكُمْ، مُعَرِّفَكُمْ فِي كُلِّ ذَلِكَ مَوَاقِعَ نِعَمِهِ قِبَلَكُمْ، وَصَنَائِعَهُ لَدَيْكُمْ! فَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ سَائِرَ حُجَجِهِ لَكُمْ فِي تَنْزِيلِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾يَعْنِي: لِتَهْتَدُوا إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ وَتَسْلُكُوهَا ، فَلَا تَضِلُّوا عَنْهَا.

١٠٤– ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ﴾ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – ﴿أُمَّةٌ﴾يَقُولُ: جَمَاعَةٌ ﴿يَدْعُونَ﴾ النَّاسَ ﴿إِلَى الْخَيْرِ[١٠٩]﴾يَعْنِي: إِلَى الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ الَّتِي شَرَّعَهَا اللهُ لِعِبَادِهِ.

---

[١٠٨] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَشَفَا الْحُفْرَةِ: طَرَفُهَا وَحَرْفُهَا.

[١٠٩] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي إِعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ**: وَالدَّاعُونَ إِلَى الْخَيْرِ: هُمُ الدَّاعُونَ إِلَى كِتَابِ اللهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ؛ لَا الدَّاعُونَ إِلَى رَأْيِ فُلَانٍ! وَفُلَانٍ!!.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ[110]﴾ يَقُولُ: يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَدِينِهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ[111]﴾ يَعْنِي: وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْكُفْرِ بِاللهِ وَالتَّكْذِيبِ بِمُحَمَّدٍ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، بِجِهَادِهِمْ بِالْأَيْدِي وَالْجَوَارِحِ، حَتَّى يَنْقَادُوا لَكُمْ بِالطَّاعَةِ.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يَعْنِي: الْمُنْجِحِينَ عِنْدَ اللهِ، الْبَاقُونَ فِي جَنَّاتِهِ وَنَعِيمِهِ.

---

[110] **الْمَعْرُوفُ فِي الشَّرْعِ**: كُلُّ مَا يَعْرِفُهُ الشَّرْعُ وَيَأْمُرُ بِهِ وَيَمْدَحُهُ وَيُثْنِي عَلَى أَهْلِهِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ جَمِيعُ الطَّاعَاتِ؛ وَفِي مُقَدِّمَتِهَا: تَوْحِيدُ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – وَالْإِيمَانُ بِهِ. [القول البين الأظهر في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ للعلّامة عبد العزيز الراجحي].

[111] **الْمُنْكَرُ فِي الشَّرْعِ**: كُلُّ مَا يُنْكِرُهُ الشَّرْعُ وَيَنْهَى عَنْهُ وَيَذُمُّهُ وَيَذُمُّ أَهْلَهُ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ جَمِيعُ الْمَعَاصِي وَالْبِدَعِ؛ وَفِي مُقَدِّمَتِهَا : الشِّرْكُ بِاللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –، وَإِنْكَارُ وَحْدَانِيَّتِهِ، أَوْ رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ أَسْمَائِهِ، أَوْ صِفَاتِهِ [المرجع السابق].

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ فِي الْمُحَلَّى: وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ: إِنْ قَدَرَ بِيَدِهِ؛ فَبِيَدِهِ، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ بِيَدِهِ؛ فَبِلِسَانِهِ، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ بِلِسَانِهِ؛ فَبِقَلْبِهِ – وَلَا بُدَّ –؛ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ! فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؛ فَلَا إِيمَانَ لَهُ!!.

وَمَنْ خَافَ الْقَتْلَ أَوِ الضَّرْبَ، أَوْ ذَهَابَ الْمَالِ؛ فَهُوَ عُذْرٌ يُبِيحُ لَهُ أَنْ يُغَيِّرَ بِقَلْبِهِ فَقَطْ، وَيَسْكُتَ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَعَنِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَقَطْ.

وَلَا يُبِيحُ لَهُ ذَلِكَ: الْعَوْنُ بِلِسَانٍ، أَوْ بِيَدٍ عَلَى تَصْوِيبِ الْمُنْكَرِ أَصْلًا؛ لِقَوْلِ اللهِ – تَعَالَى –: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ**﴾،

وَقَالَ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، يَقُولُ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا؛ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؛ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؛ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**» اهـ.

تَنْبِيهٌ مُهِمٌّ جِدًّا: قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي إِعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ: النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – شَرَعَ لِأُمَّتِهِ إِيجَابَ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ؛ لِيَحْصُلَ – بِإِنْكَارِهِ – مِنَ الْمَعْرُوفِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَإِذَا كَانَ إِنْكَارُ الْمُنْكَرِ يَسْتَلْزِمُ مَا هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ وَأَبْغَضُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَسُوغُ إِنْكَارُهُ – وَإِنْ كَانَ اللهُ يُبْغِضُهُ وَيَمْقُتُ أَهْلَهُ –، وَهَذَا كَالْإِنْكَارِ عَلَى الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ بِالْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُ أَسَاسُ كُلِّ شَرٍّ وَفِتْنَةٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ!!.

وَقَدِ اسْتَأْذَنَ الصَّحَابَةُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي قِتَالِ الْأُمَرَاءِ الَّذِينَ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا، وَقَالُوا: أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ فَقَالَ: «**لَا! مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ**»، وَقَالَ: «**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ مَا يَكْرَهُهُ؛ فَلْيَصْبِرْ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ**».

وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا جَرَى عَلَى الْإِسْلَامِ مِنَ الْفِتَنِ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ؛ رَآهَا مِنْ إِضَاعَةِ هَذَا الْأَصْلِ، وَعَدَمِ الصَّبْرِ عَلَى مُنْكَرٍ، فَطُلِبَ إِزَالَتُهُ، فَتَوَلَّدَ مِنْهُ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ!!. فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَرَى بِمَكَّةَ أَكْبَرَ الْمُنْكَرَاتِ وَلَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهَا! بَلْ لَمَّا فَتَحَ اللهُ مَكَّةَ وَصَارَتْ دَارَ إِسْلَامٍ؛ عَزَمَ عَلَى تَغْيِيرِ الْبَيْتِ وَرَدِّهِ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، وَمَنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ – مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ – خَشْيَةُ وُقُوعِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ: مِنْ عَدَمِ احْتِمَالِ قُرَيْشٍ لِذَلِكَ؛ لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَكَوْنِهِمْ حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ .

وَلِهَذَا لَمْ يَأْذَنْ فِي الْإِنْكَارِ عَلَى الْأُمَرَاءِ بِالْيَدِ؛ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ وُقُوعِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ! اهـ.

١٠٥ – ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ – يَا مَعْشَرَ الَّذِينَ آمَنُوا – ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ فِي دِينِ اللهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ مِنْ حُجَجِ اللهِ، فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَعَلِمُوا الْحَقَّ فِيهِ فَتَعَمَّدُوا خِلَافَهُ، وَخَالَفُوا أَمْرَ اللهِ، وَنَقَضُوا عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ جَرَاءَةً عَلَى اللهِ! ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾يَعْنِي: وَلِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ ﴿عَذَابٌ﴾ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴿عَظِيمٌ﴾.

يَقُولُ جَلَّ ثناؤُهُ: فَلَا تَتَفَرَّقُوا – يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ – فِي دِينِكُمْ تَفَرُّقَ هَؤُلَاءِ فِي دِينِهِمْ! وَلَا تَفْعَلُوا فِعْلَهُمْ! وَتَسْتَنُّوا فِي دِينِكُمْ بِسُنَّتِهِمْ؛ فَيَكُونَ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ الْعَظِيمِ مِثْلُ الَّذِي لَهُمْ!!.

١٠٦– ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾يَعْنِي: أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فِي يَوْمٍ تَبْيَضُّ وُجُوهُ قَوْمٍ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ آخَرِينَ!.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾، فَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَكَفَرْتُمْ﴾ أَجَحَدْتُمْ تَوْحِيدَ اللهِ وَعَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقْتُمُوهُ عَلَيْهِ، بِأَنْ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَتُخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾يَعْنِي: بَعْدَ تَصْدِيقِكُمْ بِهِ؟ ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾يَقُولُ: بِمَا كُنْتُمْ تُجْحَدُونَ فِي الدُّنْيَا مَا كَانَ اللهُ قَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ بِالْإِقْرَارِ بِهِ وَالتَّصْدِيقِ.

١٠٧– ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ مِمَّنْ ثَبَتَ عَلَى عَهْدِ اللهِ وَمِيثَاقِهِ، فَلَمْ يُبَدِّلْ دِينَهُ، وَلَمْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ بَعْدَ الْإِقْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالشَّهَادَةِ لِرَبِّهِ بِالْأُلُوهَةِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللهِ﴾يَقُولُ: فَهُمْ فِي رَحْمَةِ اللهِ، يَعْنِي: فِي جَنَّتِهِ وَنَعِيمِهَا، وَمَا أَعَدَّ اللهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾أَيْ: بَاقُونَ فِيهَا أَبَدًا بِغَيْرِ نِهَايَةٍ وَلَا غَايَةٍ!.

١٠٨- ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ﴾يَعْنِي: هَذِهِ آيَاتُ اللهِ، يَعْنِي: مَوَاعِظَ اللهِ، وَعِبَرَهُ وَحُجَجَهُ، ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ نَقْرَؤُهَا عَلَيْكَ وَنَقُصُّهَا ﴿بِالْحَقِّ﴾يَعْنِي: بِالصِّدْقِ وَالْيَقِينِ.

وَإِنَّمَا يَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ﴾: هَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي ذكرَ فِيهَا أُمُورَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْصَارِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأُمُورَ يَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، وَمَا هُوَ فَاعِلٌ بِأَهْلِ الْوَفَاءِ بِعَهْدِهِ، وَبِالْمُبَدِّلِينَ دِينَهُ، وَالنَّاقِضِينَ عَهْدَهُ بَعْدَ الْإِقْرَارِ بِهِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ - عَزَّ وَجَلَّ - نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ يَتْلُو ذَلِكَ عَلَيْهِ بِالْحَقِّ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ مَنْ عَاقَبَ مِنْ خَلْقِهِ بِمَا أَخْبَرَ أَنَّهُ مُعَاقِبُهُ: مِنْ تَسْوِيدِ وَجْهِهِ، وَتَخْلِيدِهِ فِي أَلِيمِ عَذَابِهِ وَعَظِيمِ عِقَابِهِ، وَمَنْ جَازَاهِ مِنْهُمْ بِمَا جَازَاهُ: مِنْ تُبْيِيضِ وَجْهِهِ وَتَكْرِيمِهِ وَتَشْرِيفِ مَنْزِلَتِهِ لَدَيْهِ، بِتَخْلِيدِهِ فِي دَائِمِ نَعِيمِهِ؛ فَبِغَيْرِ ظُلْمٍ مِنْهُ لِفَرِيقٍ مِنْهُمْ، بَلْ لِحَقٍّ اسْتَوْجَبُوهُ، وَأَعْمَالٍ لَهُمْ سَلَفَتْ جَازَاهُمْ عَلَيْهَا، فَقَالَ - تَعَالَى ذِكْرُهُ -: ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾يَعْنِي: وَلَيْسَ اللهُ - يَا مُحَمَّدُ - بِتَسْوِيدِ وُجُوهِ هَؤُلَاءِ، وَإِذَاقَتِهِمُ الْعَذَابَ الْعَظِيمَ، وَتَبْيِيضِ وُجُوهِ هَؤُلَاءِ، وَتَنْعِيمِهِ إِيَّاهُمْ فِي جَنَّتِهِ؛ طَالِبًا وَضْعَ شَيْءٍ مِمَّا فَعَلَ مِنْ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ الَّذِي هُوَ مَوْضِعُهُ.

إِعْلَامًا بِذَلِكَ عِبَادَهُ أَنَّهُ لَنْ يَصْلُح فِي حِكْمَتِهِ بِخَلْقِهِ غَيْرُ مَا وَعَدَ أَهْلَ طَاعَتِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ، وَغَيْرُ مَا أَوْعَدَ أَهْلَ مَعْصِيَتِهِ وَالْكُفْرِ بِهِ، وَإِنْذَارًا مِنْهُ هَؤُلَاءِ وَتَبْشِيرًا مِنْهُ هَؤُلَاءِ.

١٠٩- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾يَعْنِي: أَنَّهُ يُعَاقِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ بِمَا ذَكَرَ أَنَّهُ مُعَاقِبُهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ وَتَسْوِيدِ الْوُجُوهِ، وَيُثِيبُ أَهْلَ الْإِيمَانِ بِهِ الَّذِينَ ثَبَتُوا عَلَى التَّصْدِيقِ وَالْوَفَاءِ بِعُهُودِهِمُ الَّتِي عَاهَدُوا عَلَيْهَا، بِمَا وَصَفَ أَنَّهُ مُثِيبُهُمْ بِهِ مِنَ الْخُلُودِ فِي جِنَانِهِ، مِنْ غَيْرِ ظُلْمٍ مِنْهُ لِأَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ فِيمَا فَعَلَ؛ لِأَنَّهُ لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى الظُّلْمِ!.

وَذَلِكَ أَنَّ الظَّالِمَ إِنَّمَا يَظْلِمُ غَيْرَهُ لِيَزْدَادَ إِلَى عِزَّتِهِ عِزَّةً بِظُلْمِهِ إِيَّاهُ! وَإِلَى سُلْطَانِهِ سُلْطَانًا! وَإِلَى مُلْكِهِ مُلْكًا؛ لِنُقْصَانٍ فِي بَعْضِ أَسْبَابِهِ يُتَمِّمُ بِمَا ظَلَمَ غَيْرَهُ فِيهِ مَا كَانَ نَاقِصًا مِنْ أَسْبَابِهِ عَنِ التَّمَامِ!!.

فَأَمَّا مَنْ كَانَ لَهُ جَمِيعُ مَا بَيْنَ أَقْطَارِ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَلَا مَعْنَى لِظُلْمِهِ أَحَدًا، فَيَجُوزُ أَنْ يَظْلِمَ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَسْبَابِهِ شَيْءٌ نَاقِصٌ يَحْتَاجُ إِلَى تَمَامٍ! فَيُتِمُّ ذَلِكَ بِظُلْمِ غَيْرِهِ!! - تَعَالَى اللهُ عُلُوًّا كَبِيرًا -.

وَلِذَلِكَ قَالَ - جَلَّ ثناؤُهُ - عَقِيبَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: إِلَى اللهِ مَصِيرُ أَمْرِ جَمِيعِ خَلْقِهِ: الصَّالِحِ مِنْهُمْ وَالطَّالِحِ، وَالْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ، فَيُجَازِي كُلًّا عَلَى قَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِمْ مِنْهُ الْجَزَاءَ، بِغَيْرِ ظُلْمٍ مِنْهُ أَحَدًا مِنْهُمْ.

١١٠- ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، قَالَ: «أَنْتُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً؛ أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ».[١١٢]

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: تَأْمُرُونَ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَالْعَمَلِ بِشَرَائِعِهِ ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾يَعْنِي: وَتَنْهَوْنَ عَنِ الشِّرْكِ بِاللهِ، وَتَكْذِيبِ رَسُولِهِ، وَعَنِ الْعَمَلِ بِمَا نَهَى عَنْهُ.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾يَعْنِي: تُصَدِّقُونَ بِاللهِ، فَتُخْلِصُونَ لَهُ التَّوْحِيدَ وَالْعِبَادَةَ.

فَإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ، فَقَالَ: وَكَيْفَ قِيلَ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ وَقَدْ زَعَمْتَ أَنَّ تَأْوِيلَ الْآيَةِ: أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ خَيْرُ الْأُمَمِ الَّتِي مَضَتْ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ)، لِقَوْمٍ كَانُوا خِيَارًا فَتَغَيَّرُوا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ؟

[١١٢] حديث حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجة، والدارمي في سننه، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير والأوسط، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي؛ وحسنه الألباني في صحيح الجامع(٢٣٠١)، والمشكاة(٦٢٩٤).

قِيلَ: إِنَّ مَعْنَى ذَلِكَ بِخِلَافِ مَا ذَهَبْتَ إِلَيْهِ! وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: أَنْتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ، كَمَا قِيلَ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾، وَقَدْ قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾.

فَإِدْخَالُ (كَانَ) فِي مِثْلِ هَذَا وَإِسْقَاطُهَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ مَعْرُوفٌ مَعْنَاهُ.

﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾يَعْنِي: وَلَوْ صَدَّقَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ - مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى - بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ عِنْدَ اللهِ فِي عَاجِلِ دُنْيَاهُمْ وَآجِلِ آخِرَتِهِمْ ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾يَعْنِي: مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ - مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى - الْمُؤْمِنُونَ الْمُصَدِّقُونَ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ - وَهُمْ: عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ وَأَخُوهُ، وَثَعْلَبَةُ بْنُ سَعْيَةَ وَأَخُوهُ، وَأَشْبَاهُهُمْ مِمَّنْ آمَنُوا بِاللهِ، وَصَدَّقُوا بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَاتَّبَعُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ -. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾يَعْنِي: الْخَارِجُونَ عَنْ دِينِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ مِنْ دِينِ الْيَهُودِ اتِّبَاعُ مَا فِي التَّوْرَاةِ، وَالتَّصْدِيقُ بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَمِنْ دِينِ النَّصَارَى اتِّبَاعُ مَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَالتَّصْدِيقُ بِهِ وَبِمَا فِي التَّوْرَاةِ، وَفِي كِلَا الْكِتَابَيْنِ صِفَةُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَنَعْتُهُ وَمَبْعَثُهُ، وَأَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ. وَكِلْتَا الْفِرْقَتَيْنِ - أَعْنِي الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى - مُكَذِّبَةٌ؛ فَذَلِكَ فِسْقُهُمْ وَخُرُوجُهُمْ عَنْ دِينِهِمُ الَّذِي يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَدِينُونَ بِهِ، الَّذِي قَالَ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

١١١- ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ﴾يَعْنِي: لَنْ يَضُرَّكُمْ - يَا أَهْلَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ - هَؤُلَاءِ الْفَاسِقُونَ - مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ - بِكُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ نَبِيَّكُمْ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - شَيْئًا ﴿إِلَّا أَذًى﴾يَعْنِي بِذَلِكَ: وَلَكِنَّهُمْ يُؤْذُونَكُمْ بِشِرْكِهِمْ، وَإِسْمَاعِكُمْ كُفْرَهُمْ، وَقَوْلِهِمْ فِي عِيسَى وَأُمِّهِ وَعُزَيْرٍ، وَدُعَائِهِمْ إِيَّاكُمْ إِلَى الضَّلَالَةِ، وَلَا يَضُرُّوكُمْ بِذَلِكَ.

﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾يَعْنِي: وَإِنْ يُقَاتِلْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ – مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى – يُهْزَمُوا عَنْكُمْ، فَيُوَلُّوكُمْ أَدْبَارَهُمُ انْهِزَامًا.[١١٣]

﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾يَعْنِي: ثُمَّ لَا يَنْصُرُهُمُ اللهُ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – عَلَيْكُمْ؛ لِكُفْرِهِمْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَإِيمَانِكُمْ بِمَا آتَاكُمْ نَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ لِأَنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – قَدْ أَلْقَى الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَيَّدَكُمْ[١١٤] – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – بِنَصْرِكُمْ.

١١٢– ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ[١١٥]﴾يَعْنِي: أُلْزِمُوا الذِّلَّةَ ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾يَعْنِي: حَيْثُمَا لُقُوا.

يَقُولُ جَلَّ ثناؤُهُ: أُلْزِمَ الْيَهُودُ – الْمُكَذِّبُونَ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الذِّلَّةَ أَيْنَمَا كَانُوا مِنَ الْأَرْضِ، وَبِأَيِّ مَكَانٍ كَانُوا مِنْ بِقَاعِهَا، مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ؛ ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾.

وَأَمَّا الْحَبْلُ – الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ –: فَإِنَّهُ السَّبَبُ الَّذِي يَأْمَنُونَ بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَعَلَى أَمْوَالِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ، مِنْ عَهْدٍ وَأَمَانٍ تَقَدَّمَ لَهُمْ عَقْدُهُ قَبْلَ أَنْ يُثْقَفُوا فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾يَعْنِي: وَتَحَمَّلُوا غَضَبَ اللهِ فَانْصَرَفُوا بِهِ مُسْتَحِقِّيهِ وَمَعْنَى الْمَسْكَنَةِ: ذُلُّ الْفَاقَةِ وَالْفَقْرِ وَخُشُوعُهُمَا.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾يَعْنِي جَلَّ ثناؤُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ﴾أَيْ: بَوْءُهُمُ الَّذِي بَاءُوا بِهِ مِنْ غَضَبِ اللهِ، وَضَرْبُ الذِّلَّةِ عَلَيْهِمْ؛ بَدَلًا مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ.

---

[١١٣] تَوْلِيَةُ الْأَدْبَارِ: كِنَايَةٌ عَنِ الِانْهِزَامِ؛ لِأَنَّ الْمُنْهَزِمَ يُحَوِّلُ ظَهْرَهُ إِلَى جِهَةِ مُقَاتِلِهِ وَيَسْتَدْبِرُهُ فِي هَرَبِهِ مِنْهُ، فَيَكُونُ دُبُرُهُ – أَيْ: قَفَاهُ – إِلَى جِهَةِ وَجْهِ مَنِ انْهَزَمَ هُوَ مِنْهُ [تفسير المنار].

[١١٤] قَارِن بِطَبْعَةِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر.

[١١٥] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَالذِّلَّةُ: الْفِعْلَةُ مِنَ الذُّلِّ.

يَقُولُ: مِمَّا كَانُوا يَجْحَدُونَ أَعْلَامَ اللهِ وَأَدِلَّتَهُ عَلَى صِدْقِ أَنْبِيَائِهِ، وَمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَرَائِضِهِ.

﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يَقُولُ: وَبِمَا كَانُوا يَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَهُمْ وَرُسُلَ اللهِ إِلَيْهِمْ، اعْتِدَاءً عَلَى اللهِ، وَجُرْأَةً عَلَيْهِ بِالْبَاطِلِ، وَبِغَيْرِ حَقٍّ اسْتَحَقُّوا مِنْهُمُ الْقَتْلَ.

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَعَلْنَا بِهِمْ ذَلِكَ: بِكُفْرِهِمْ، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ، وَمَعْصِيَتِهِمْ رَبَّهُمْ، وَاعْتِدَائِهِمْ أَمْرَ رَبِّهِمْ.

فَأَعْلَمَ رَبُّنَا – جَلَّ ثناؤُهُ – عِبَادَهُ، مَا فَعَلَ بِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: مِنْ إِحْلَالِ الذِّلَّةِ وَالْخِزْيِ بِهِمْ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا، مَعَ مَا ذَخَرَ[116]لَهُمْ فِي الْأَجَلِ مِنَ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ وَأَلِيمِ الْعَذَابِ!! إِذْ تَعَدَّوْا حُدُودَ اللهِ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُ!.

تَذْكِيرًا مِنْهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – لَهُمْ، وَتَنْبِيهًا عَلَى مَوْضِعِ الْبَلَاءِ الَّذِي مِنْ قِبَلِهِ أتوا؛ لِيُنِيبُوا وَيَذَّكَّرُوا! وَعِظَةً مِنْهُ لِأُمَّتِنَا أَنْ لَا يَسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِمْ وَيَرْكَبُوا مِنْهَاجَهُمْ، فَيُسْلَكَ بِهِمْ مَسَالِكَهُمْ، وَيُحِلَّ بِهِمْ مِنْ نِقَمِ اللهِ وَمَثُلَاتِهِ مَا أَحَلَّ بِهِمْ!.

١١٣– ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾يَعْنِي: لَيْسَ فَرِيقَا أَهْلِ الْكِتَابِ، أَهْلُ الْإِيمَانِ مِنْهُمْ وَالْكُفْرِ: سَوَاءً.

يَعْنِي بِذَلِكَ: أَنَّهُمْ غَيْرُ مُتَسَاوِينَ، يَقُولُ: لَيْسُوا مُتَعَادِلِينَ، وَلَكِنَّهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ!.

﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾يَعْنِي: مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ جَمَاعَةٌ مُعْتَصِمَةٌ بِكِتَابِ اللهِ، مُتَمَسِّكَةٌ بِهِ، ثَابِتَةٌ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا فِيهِ، وَمَا سَنَّ لَهُمْ رَسُولُهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ، وَثَعْلَبَةُ بْنُ سَعْيَةَ، وَأُسَيْدُ بْنُ سَعْيَةَ، وَأَسَدُ بْنُ عُبَيْدٍ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودَ مَعَهُمْ، فَآمَنُوا، وَصَدَّقُوا، وَرَغِبُوا فِي الْإِسْلَامِ وَرَسَخُوا فِيهِ؛ قَالَتْ أَحْبَارُ يَهُودَ وَأَهْلُ الْكُفْرِ مِنْهُمْ: مَا آمَنَ بِمُحَمَّدٍ وَلَا تَبِعَهُ إِلَّا أَشْرَارُنَا، وَلَوْ كَانُوا مِنْ خِيَارِنَا مَا تَرَكُوا دِينَ

[116] (ذَخَرَ): خَبَّأَ.

آبَائِهِمْ وَذَهَبُوا إِلَى غَيْرِهِ!! فَأَنْزَلَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.[١١٧]

﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ﴾يَعْنِي: يَقْرَءُونَ كِتَابَ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ.

وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿آيَاتِ اللهِ﴾: مَا أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ مِنَ الْعِبَرِ وَالْمَوَاعِظِ.

يَقُولُ: يَتْلُونَ ذَلِكَ آنَاءَ اللَّيْلِ، يَقُولُ: فِي سَاعَاتِ اللَّيْلِ، فَيَتَدَبَّرُونَهُ وَيَتَفَكَّرُونَ فِيهِ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَنَحْنُ نَنْتَظِرُ الْعِشَاءَ – يُرِيدُ الْعَتَمَةَ –، فَقَالَ لَنَا: «مَا عَلَى الْأَرْضِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ يَنْتَظِرُ هَذِهِ الصَّلَاةَ فِي هَذَا الْوَقْتِ غَيْرُكُمْ» قَالَ: فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.[١١٨]

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾مَعْنَى الْكَلَامِ: مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ، يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ فِي صَلَاتِهِمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَسْجُدُونَ فِيهَا. فَالسُّجُودُ: هُوَ السُّجُودُ الْمَعْرُوفُ فِي الصَّلَاةِ.

١١٤– ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾يَعْنِي: يُصَدِّقُونَ بِاللهِ وَبِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَمَاتِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ مُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ؛ وَلَيْسُوا كَالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَجْحَدُونَ وَحْدَانِيَّةَ اللهِ، وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَيُكَذِّبُونَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَمَاتِ، وَيُنْكِرُونَ الْمُجَازَاةَ عَلَى الْأَعْمَالِ وَالثَّوَابَ وَالْعِقَابَ.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾يَقُولُ: يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَتَصْدِيقِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَمَا جَاءَهُمْ بِهِ. ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾يَقُولُ: وَيَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ الْكُفْرِ بِاللهِ، وَتَكْذِيبِ مُحَمَّدٍ وَمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

---

[١١٧] صحيح: رواه الطبراني في الكبير، والبيهقي في الدلائل، وأبو نعيم في معرفة الصحابة، والضياء في المختارة، والهيثمي في المجمع، وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات؛ وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول، للإمام الوادعي صـ٥٥.

[١١٨] صحيح: رواه أحمد، والنسائي في الكبرى، وابن حبان في صحيحه، والطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية، وفي معرفة الصحابة؛ وحسنه الألباني في التعليقات الحسان(١٥٢٨)، وقال أحمد شاكر في تعليقه على المسند(٣٧٦٠): إسناده صحيح.

يَعْنِي بِذَلِكَ: أَنَّهُمْ لَيْسُوا كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْكُفْرِ وَتَكْذِيبِ مُحَمَّدٍ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ، وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَهُوَ تَصْدِيقُ مُحَمَّدٍ فِيمَا أَتَاهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يَقُولُ: وَيَبْتَدِرُونَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ خَشْيَةَ أَنْ يَفُوتَهُمْ ذَلِكَ قَبْلَ مُعَاجَلَتِهِمْ مَنَايَاهُمْ.

﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أَخْبَرَ جَلَّ ثناؤُهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هَذِهِ صِفَتُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ هُمْ مِنْ عِدَادِ الصَّالِحِينَ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ فَاسِقًا، قَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ لِكُفْرِهِ بِاللهِ وَآيَاتِهِ، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَعِصْيَانِهِ رَبَّهُ وَاعْتِدَائِهِ فِي حُدُودِهِ.

١١٥- ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ يَعْنِي: وَمَا تَفْعَلْ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ خَيْرٍ، وَتَعْمَلْ مِنْ عَمَلٍ لِلَّهِ فِيهِ رِضًى؛ فَلَنْ يَكْفُرَهُمُ اللهُ ذَلِكَ، يَعْنِي بِذَلِكَ: فَلَنْ يُبْطِلَ اللهُ ثَوَابَ عَمَلِهِمْ ذَلِكَ، وَلَا يَدَعَهُمْ بِغَيْرِ جَزَاءٍ مِنْهُ لَهُمْ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ يُجْزِلُ لَهُمُ الثَّوَابَ عَلَيْهِ، وَيُسْنِي لَهُمُ الْكَرَامَةَ وَالْجَزَاءَ.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ يَقُولُ: وَاللهُ ذُو عِلْمٍ بِمَنِ اتَّقَاهُ، بِطَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ، وَحَافِظٌ أَعْمَالَهُمُ الصَّالِحَةَ حَتَّى يُثِيبَهُمْ عَلَيْهَا وَيُجَازِيَهُمْ بِهَا.

١١٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ جَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَكَذَّبُوا بِهِ وَبِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ يَعْنِي: لَنْ تَدْفَعَ أَمْوَالُهُ الَّتِي جَمَعَهَا فِي الدُّنْيَا، وَأَوْلَادُهُ الَّذِينَ رَبَّاهُمْ فِيهَا، شَيْئًا مِنْ عُقُوبَةِ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنْ أَخَّرَهَا لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا فِي الدُّنْيَا إِنْ عَجَّلَهَا لَهُمْ فِيهَا.

وَإِنَّمَا خَصَّ أَوْلَادَهُ وَأَمْوَالَهُ؛ لِأَنَّ أَوْلَادَ الرَّجُلِ أَقْرَبُ أَنْسِبَائِهِ إِلَيْهِ، وَهُوَ عَلَى مَالِهِ أَقْدَرُ[١١٩] مِنْهُ عَلَى مَالِ غَيْرِهِ، وَأَمْرُهُ فِيهِ أَجْوَزُ مِنْ أَمْرِهِ فِي مَالِ غَيْرِهِ.

---

[١١٩] قَارِن بِطَبْعَةِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر.

فَإِذَا لَمْ يُغْنِ عَنْهُ وَلَدُهُ لِصُلْبِهِ، وَمَالُهُ الَّذِي هُوَ نَافِذُ الْأَمْرِ فِيهِ؛ فَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَقْرِبَائِهِ وَسَائِرِ أَنْسِبَائِهِ وَأَمْوَالِهِمْ، أَبْعَدُ مِنْ أَنْ تُغْنِيَ عَنْهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا؟!.

ثُمَّ أَخْبَرَ – جَلَّ ثناؤُهُ – أَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا؛ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وَإِنَّمَا جَعَلَهُمْ أَصْحَابُهَا؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُهَا الَّذِينَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا يُفَارِقُونَهَا، كَصَاحِبِ الرَّجُلِ الَّذِي لَا يُفَارِقُهُ، وَقَرِينِهِ الَّذِي لَا يُزَايِلُهُ!.[120]

ثُمَّ وَكَّدَ ذَلِكَ بِإِخْبَارِهِ عَنْهُمْ أَنَّـ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، أَنَّ صُحْبَتَهُمْ إِيَّاهَا صُحْبَة لَا انْقِطَاعَ لَهَا، إِذْ كَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا يُفَارِقُ صَاحِبَهُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، وَيُزَايِلُهُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، وَلَيْس كَذَلِكَ صُحْبَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا النَّارَ الَّتِي أُصْلُوهَا! وَلَكِنَّهَا صُحْبَةٌ دَائِمَةٌ لَا نِهَايَةَ لَهَا وَلَا انْقِطَاعَ!! نَعُوذُ بِاللهِ مِنْهَا وَمِمَّا قَرَّبَ مِنْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ!!.

١١٧– ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾يَعْنِي: شَبَهُ مَا يُنْفِقُ الَّذِينَ كَفَرُوا – أَيْ: شَبَهُ مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ الْكَافِرُ مِنْ مَالِهِ، فَيُعْطِيهِ مَنْ يُعْطِيهِ عَلَى وَجْهِ الْقُرْبَةِ إِلَى رَبِّهِ وَهُوَ لِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ جَاحِدٌ، وَلِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُكَذِّبٌ، فِي أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ نَافِعِهِ مَعَ كُفْرِهِ، وَأَنَّهُ مُضْمَحِلٌّ عِنْدَ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ! ذَاهِبٌ بَعْدَ الَّذِي كَانَ يَرْجُو مِنْ عَائِدَةِ نَفْعِهِ عَلَيْهِ – كَشَبْهِ رِيحٍ فِيهَا بَرْدٌ شَدِيدٌ ﴿أَصَابَتْ﴾هَذِهِ الرِّيحُ الَّتِي فِيهَا الْبَرْدُ الشَّدِيدُ ﴿حَرْثَ قَوْمٍ﴾يَعْنِي: زَرْعَ قَوْمٍ قَدْ أَمَّلُوا إِدْرَاكَهُ، وَرَجَوْا رَيْعَهُ وَعَائِدَةَ نَفْعِهِ! ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾يَعْنِي: أَصْحَابَ الزَّرْعِ، عَصَوُا اللهَ، وَتَعَدَّوْا حُدُودَهُ ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾يَعْنِي: فَأَهْلَكَتِ الرِّيحُ الَّتِي فِيهَا الصِّرُّ زَرْعَهُمْ ذَلِكَ، بَعْدَ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَمَلِ وَرَجَاءَ عَائِدَةِ نَفْعِهِ عَلَيْهِمْ.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾يَعْنِي: وَمَا فَعَلَ اللهُ بِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مَا فَعَلَ بِهِمْ، مِنْ إِحْبَاطِهِ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ، وَإِبْطَالِهِ أُجُورَهَا ظُلْمًا مِنْهُ لَهُمْ، يَعْنِي: وَضْعًا مِنْهُ لِمَا فَعَلَ بِهِمْ مِنْ ذَلِكَ

---

[120] (لَا يُزَايِلُهُ): لَا يُفَارِقُهُ.

فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، بَلْ وَضَعَ فِعْلَهُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ، وَفَعَلَ بِهِمْ مَا هُمْ أَهْلُهُ؛ لِأَنَّ عَمَلَهُمُ الَّذِي عَمِلُوهُ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ وَهُمْ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ دَائِنُونَ، وَلِأَمْرِهِ مُتَّبِعُونَ، وَلِرُسُلِهِ مُصَدِّقُونَ، بَلْ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَهُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ، وَلِأَمْرِهِ مُخَالِفُونَ، وَلِرُسُلِهِ مُكَذِّبُونَ، بَعْدَ تَقَدُّمٍ مِنْهُ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ عَمَلًا مِنْ عَامِلٍ إِلَّا مَعَ إِخْلَاصِ التَّوْحِيدِ لَهُ، وَالْإِقْرَارِ بِنُبُوَّةِ أَنْبِيَائِهِ، وَتَصْدِيقِ مَا جَاءُوهُمْ بِهِ، وَتَوْكِيدِهِ الْحُجَجَ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ!.

فَلَمْ يَكُنْ بِفِعْلِهِ مَا فَعَلَ بِمَنْ كَفَرَ بِهِ وَخَالَفَ أَمْرَهُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِ مِنْ إِحْبَاطِ وَافِرِ عَمَلِهِ لَهُ ظَالِمًا، بَلِ الْكَافِرُ هُوَ الظَّالِمُ نَفْسَهُ؛ لِإِكْسَابِهَا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ وَخِلَافِ أَمْرِهِ، مَا أَوْرَدَهَا بِهِ نَارَ جَهَنَّمَ، وَأَصْلَاهَا بِهِ سَعِيرَ سَقَرَ!.

١١٨- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾يَعْنِي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، وَأَقَرُّوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾يَقُولُ: لَا تَتَّخِذُوا أَوْلِيَاءَ وَأَصْدِقَاءَ لِأَنْفُسِكُمْ ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾يَقُولُ: مِنْ دُونِ أَهْلِ دِينِكُمْ وَمِلَّتِكُمْ، يَعْنِي: مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَإِنَّمَا جَعَلَ الْبِطَانَةَ مَثَلًا لِخَلِيلِ الرَّجُلِ فَشَبَّهَهُ بِمَا وَلِيَ بَطْنَهُ مِنْ ثِيَابِهِ؛ لِحُلُولِهِ مِنْهُ فِي اطِّلَاعِهِ عَلَى أَسْرَارِهِ، وَمَا يَطْوِيهِ عَنْ أَبَاعِدِهِ وَكَثِيرٍ مِنْ أَقَارِبِهِ، مَحَلَّ مَا وَلِيَ جَسَدَهُ مِنْ ثِيَابَهُ!.

فَنَهَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنَ الْكُفَّارِ بِهِ أَخِلَّاءَ وَأَصْفِيَاءَ.

ثُمَّ عَرَّفَهُمْ مَا هُمْ عَلَيْهِ لَهُمْ مُنْطَوُونَ مِنَ الْغِشِّ وَالْخِيَانَةِ، وَبَغْيِهِمْ إِيَّاهُمُ الْغَوَائِلَ، فَحَذَّرَهُمْ بِذَلِكَ مِنْهُمْ مِنْ مُخَالَّتِهِمْ[١٢١]، فَقَالَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾يَعْنِي لَا يَسْتَطِيعُونَكُمْ شَرًّا.

وَإِنَّمَا يَعْنِي جَلَّ ذِكْرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: الْبِطَانَةَ الَّتِي نَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِهَا مِنْ دُونِهِمْ؛ فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْبِطَانَةَ لَا تَتْرُكُكُمْ طَاقَتُهَا خَبَالًا، أَيْ: لَا تَدَعُ جَهْدَهَا فِيمَا أَوْرَثَكُمُ الْخَبَالَ

[١٢١] قَارِنْ بِطَبْعَةِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾يَعْنِي: وَدُّوا عَنَتَكُمْ، يَقُولُ: يَتَمَنَّوْنَ لَكُمُ الْعَنَتَ وَالشَّرَّ فِي دِينِكُمْ وَمَا يَسُوءُكُمْ وَلَا يَسُرُّكُمْ!.

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ[١٢٢]﴾يَعْنِي: قَدْ بَدَتْ بَغْضاءُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَهَيْتُكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – أَنْ تَتَّخِذُوهُمْ بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَكُمْ، بِأَفْوَاهِهِمْ، يَعْنِي: بِأَلْسِنَتِهِمْ.

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾يَعْنِي: وَالَّذِي تُخْفِي صُدُورُهُمْ – يَعْنِي: صُدُورَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَهَاهُمْ عَنِ اتِّخَاذِهِمْ بِطَانَةً – فَتُخْفِيهِ عَنْكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – أَكْبَرُ، يَقُولُ: أَكْبَرُ مِمَّا قَدْ بَدَا لَكُمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ مِنَ الْبَغْضَاءِ وَأَعْظَمُ!.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ﴾ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – ﴿الْآيَاتِ﴾يَعْنِي بِالْآيَاتِ: الْعِبَرَ.

قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ مِنْ أَمْرِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ – الَّذِينَ نَهَيْنَاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوهُمْ بِطَانَةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ – مَا تَعْتَبِرُونَ وَتَتَّعِظُونَ بِهِ مِنْ أَمْرِهِمْ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾يَعْنِي: إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ عَنِ اللهِ مَوَاعِظَهُ وَأَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَتَعْرِفُونَ مَوَاقِعَ نَفْعِ ذَلِكَ مِنْكُمْ، وَمَبْلَغَ عَائِدَتِهِ عَلَيْكُمْ.

١١٩– ﴿هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾يَعْنِي: هَا أَنْتُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ.

يَقُولُ: تُحِبُّونَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ الَّذِينَ نَهَيْتُكُمْ عَنِ اتِّخَاذِهِمْ بِطَانَةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، فَتَوَدُّونَهُمْ وَتُوَاصِلُونَهُمْ ﴿وَ﴾هُمْ ﴿لَا يُحِبُّونَكُمْ﴾، بَلْ يُبْطِنُونَ[١٢٣]لَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْغِشَّ، ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾مَعْنَاهُ: بِالْكُتُبِ كُلِّهَا: كِتَابِكُمُ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ، وَكِتَابِهِمُ الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَيْهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَى عِبَادِهِ.

---

[١٢٢] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ**: قَوْلُهُ: ﴿**قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ**﴾ هِيَ شِدَّةُ الْبُغْضِ، كَالضَّرَّاءِ: لِشِدَّةِ الضُّرِّ. وَالْأَفْوَاهُ: جَمْعُ فَمٍ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهَا قَدْ ظَهَرَتِ الْبَغْضَاءُ فِي كَلَامِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا خَامَرَهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْبُغْضِ وَالْحَسَدِ أَظْهَرَتْ أَلْسِنَتُهُمْ مَا فِي صُدُورِهِمْ! فَتَرَكُوا التَّقِيَّةَ، وَصَرَّحُوا بِالتَّكْذِيبِ!.

أَمَّا الْيَهُودُ: فَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ وَاضِحٌ! وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ: فَكَانَ يَظْهَرُ مِنْ فَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ مَا يَكْشِفُ عَنْ خُبْثِ طَوِيَّتِهِمْ!!.

[١٢٣] قَارِن بِطَبْعَةِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ[١٢٤]﴾يَعْنِي: إِذَا لَقُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، أَعْطَوْهُمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ تَقِيَّةً، حَذَرًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْهُمْ، فَقَالُوا لَهُمْ: قَدْ آمَنَّا وَصَدَّقْنَا بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَإِذَا هُمْ خَلَوْا – فَصَارُوا فِي خَلَاءٍ حَيْثُ لَا يَرَاهُمُ الْمُؤْمِنُونَ – عَضُّوا – عَلَى مَا يَرَوْنَ مِنَ ائْتِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ، وَاجْتِمَاعِ كَلِمَتِهِمْ، وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ – أَنَامِلَهُمْ – وَهِيَ أَطْرَافُ أَصَابِعِهِمْ –؛ تَغَيُّظًا مِمَّا بِهِمْ مِنَ الْمَوْجِدَةِ عَلَيْهِمْ، وَأَسًى عَلَى ظَهْرٍ يسْنِدُونَ إِلَيْهِ لِمُكَاشَفَتِهِمُ الْعَدَاوَةَ وَمُنَاجَزَتِهِمُ الْمُحَارَبَةَ.

﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ وَصَفْتُ لَكَ صِفَتَهُمْ، وَأَخْبَرْتُكَ أَنَّهُمْ إِذَا لَقُوا أَصْحَابَكَ، قَالُوا: آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ: ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ الَّذِي بِكُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ؛ لِاجْتِمَاعِ كَلِمَتِهِمْ، وَائْتِلَافِ جَمَاعَتِهِمْ.

﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾يَعْنِي: إِنَّ اللهَ ذُو عِلْمٍ بِالَّذِي فِي صُدُورِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ إِذَا لَقُوا الْمُؤْمِنِينَ، قَالُوا: آمَنَّا، وَمَا يَنْطَوُونَ لَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْغِلِّ وَالْغَمِّ! وَيَعْتَقِدُونَ لَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ ، وَبِمَا فِي صُدُورِ جَمِيعِ خَلْقِهِ، حَافِظٌ عَلَى جَمِيعِهِمْ مَا هُوَ عَلَيْهِ مُنْطَوٍ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، حَتَّى يُجَازَى جَمِيعُهُمْ عَلَى مَا قَدَّمَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَاعْتَقَدَ مِنْ إِيمَانٍ وَكُفْرٍ، وَانْطَوَى عَلَيْهِ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَصِيحَةٍ، أَوْ غِلٍّ وَغِمْرٍ.[١٢٥]

١٢٠– ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾يَعْنِي: إِنْ تَنَالُوا – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – سُرُورًا بِظُهُورِكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ، وَتَتَابُعِ النَّاسِ فِي الدُّخُولِ فِي دِينِكُمْ، وَتَصْدِيقِ نَبِيِّكُمْ، وَمُعَاوَنَتِكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ؛ يَسُؤْهُمْ.

---

[١٢٤] عَضُّ الْأَنَامِلِ: كِنَايَةٌ عَنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ، مَعَ عَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى إِنْفَاذِهِ!.

[١٢٥] قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ: (**الْغِمْرُ**): الْحِقْدُ.

وَإِنْ تَنَلْكُمْ مَسَاءَةٌ بِإِخْفَاقِ سَرِيَّةٍ لَكُمْ، أَوْ بِإِصَابَةِ عَدُوٍّ لَكُمْ مِنْكُمْ، أَوِ اخْتِلَافٍ يَكُونُ بَيْنَ جَمَاعَتِكُمْ؛ يَفْرَحُوا بِهَا.

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَاتِّبَاعِ أَمْرِهِ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَاجْتِنَابِ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ: مِنِ اتِّخَاذِ بِطَانَةٍ لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ وَصَفَ اللهُ صِفَتَهُمْ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ مَا نَهَاكُمْ، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ رَبَّكُمْ، فَتَخَافُوا التَّقَدُّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ فِيمَا أَلْزَمَكُمْ وَأَوْجَبَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ؛ ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾أَيْ: كَيْدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَفَ صِفَتَهُمْ.

وَيَعْنِي بِكَيْدِهِمْ: غَوَائِلَهُمُ الَّتِي يَبْتَغُونَهَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَمَكْرَهُمْ بِهِمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ الْهُدَى وَسَبِيلِ الْحَقِّ.

﴿إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾يَقُولُ جَلَّ ثناؤُهُ: إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّار فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ مِنَ الْفَسَادِ وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَالْعَدَاوَةِ لِأَهْلِ دِينِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَاصِي اللهِ، مُحِيطٌ بِجَمِيعِهِ، حَافِظٌ لَهُ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْهُ، حَتَّى يُوَفِّيَهُمْ جَزَاءَهُمْ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ، وَيُذِيقَهُمْ عُقُوبَتَهُ عَلَيْهِ!.

١٢١– ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ[١٢٦]مِنْ أَهْلِكَ[١٢٧]تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ[١٢٨]لِلْقِتَالِ﴾يَعْنِي: وَاذْكُرْ إِذْ غَدَوْتَ – يَا مُحَمَّدُ – مِنْ أَهْلِكَ تَتَّخِذُ لِلْمُؤْمِنِينَ مُعَسْكَرًا وَمَوْضِعًا لِقِتَالِ عَدُوِّهِمْ.

عَنَى بِذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ؛ لِأَنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – يَقُولُ فِي الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾وَلَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ أَنَّهُ عَنَى بِالطَّائِفَتَيْنِ: بَنُو سَلِمَةَ، وَبَنُو حَارِثَةَ.

وَلَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ السِّيَرِ وَالْمَعْرِفَةِ بِمَغَازِي رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّ الَّذِيَ ذَكَرَ اللهُ مِنْ أَمْرِهِمَا إِنَّمَا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ.

---

[١٢٦] (**الْغُدُوُّ**): هُوَ السَّيْرُ أَوَّلَ النَّهَارِ، مَا بَيْنَ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ.

[١٢٧] أَيْ: مِنْ عِنْدِ أَهْلِكَ مِنَ الْمَدِينَةِ.

[١٢٨] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَالْمَقَاعِدُ: جَمْعُ مَقْعَدٍ؛ وَهُوَ الْمَجْلِسُ.

﴿وَاللهُ سَمِيعٌ﴾ لِمَا يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ لَكَ فِيمَا شَاوَرْتَهُمْ فِيهِ مِنْ مَوْضِعِ لِقَائِكَ وَلِقَائِهِمْ عَدُوَّكَ وَعَدُوَّهُمْ، مِنْ قَوْلِ مَنْ قَالَ: (اخْرُجْ بِنَا إِلَيْهِمْ حَتَّى نَلْقَاهُمْ خَارِجَ الْمَدِينَةِ)، وَقَوْلُ مَنْ قَالَ لَكَ : (لَا تَخْرُجْ إِلَيْهِمْ وَأَقِمْ بِالْمَدِينَةِ حَتَّى يَدْخُلُوهَا عَلَيْنَا)وَلِمَا[129]تُشِير بِهِ عَلَيْهِمْ أَنْتَ – يَا مُحَمَّدُ –.[130]

﴿عَلِيمٌ﴾ بِأَصْلَحِ تِلْكَ الْآرَاءِ لَكَ وَلَهُمْ، وَبِمَا تُخْفِيهِ صُدُورُ الْمُشِيرِينَ عَلَيْكَ بِالْخُرُوجِ إِلَى عَدُوِّكَ ، وَصُدُورُ الْمُشِيرِينَ عَلَيْكَ بِالْمُقَامِ فِي الْمَدِينَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِكَ وَأُمُورِهِمْ.

١٢٢– ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾يَعْنِي: وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ حِينَ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا.

وَالطَّائِفَتَانِ اللَّتَانِ هَمَّتَا بِالْفَشَلِ: بَنُو سَلِمَةَ، وَبَنُو حَارِثَةَ.

عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ، يَقُولُ: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾، قَالَ: هُمْ بَنُو سَلَمَةَ، وَبَنُو حَارِثَةَ وَمَا نُحِبُّ أَنْ لَو لَمْ نَكُنْ هَمَمْنَا؛ لِقَوْلِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿وَاللهُ وَلِيُّهُمَا﴾.[131]

---

[129] قَارِن بِطَبْعَةِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر.

[130] عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ، وَرَأَيْتُ بَقَرًا مُنَحَّرَةً، فَأَوَّلْتُ أَنَّ الدِّرْعَ الْحَصِينَةَ: الْمَدِينَةُ، وَأَنَّ الْبَقَرَ نَفَرٌ – وَاللهِ خَيْرٌ –**»، قَالَ: فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**لَوْ أَنَّا أَقَمْنَا بِالْمَدِينَةِ، فَإِنْ دَخَلُوا عَلَيْنَا فِيهَا قَاتَلْنَاهُمْ**»، فَقَالَوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَاللهِ مَا دُخِلَ عَلَيْنَا فِيهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَيْفَ يُدْخَلُ عَلَيْنَا فِيهَا فِي الْإِسْلَامِ؟! – قَالَ عَفَّانُ فِي حَدِيثِهِ: فَقَالَ: «**شَأْنَكُمْ إِذًا**» –، قَالَ: فَلَبِسَ لَأْمَتَهُ، قَالَ: فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ [بَعْضُهَا لِبَعْضٍ]: رَدَدْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رَأْيَهُ!! فَجَاءُوا، فَقَالَوا: يَا نَبِيَّ اللهِ! شَأْنُكَ إِذًا! فَقَالَ: «**[الْآنَ؟!] إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ**» [صحيح: رواه أحمد، والنسائي في الكبرى، والدارمي في سننه – وما بين المعقوفين له –، والهيثمي في المجمع، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وقال الحافظ في تغليق التعليق: إسناده صحيح، وانظر الصحيحة(١١٠٠)، وصحيح الجامع(٣٤٧٦)].

[131] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم. وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ: فِينَا نَزَلَتْ: ﴿**إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا**﴾، قَالَ: نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ: بَنُو حَارِثَةَ، وَبَنُو سَلِمَةَ، وَمَا نُحِبُّ – وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: وَمَا يَسُرُّنِي– أَنَّهَا لَمْ تُنْزَلْ؛ لِقَوْلِ اللهِ: ﴿**وَاللهُ وَلِيُّهُمَا**﴾.

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: هَمَّا أَنْ يَضْعُفَا وَيَجْبُنَا عَنْ لِقَاءِ عَدُوِّهِمَا.

وَكَانَ هَمُّهُمَا الَّذِي هَمَّا بِهِ مِنَ الْفَشَلِ؛ الِانْصِرَافَ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالْمُؤْمِنِينَ حِينَ انْصَرَفَ عَنْهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ بِمَنْ مَعَهُ، جُبْنًا مِنْهُمْ، مِنْ غَيْرِ شَكٍّ مِنْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ وَلَا نِفَاقٍ؛ فَعَصَمَهُمُ اللهُ مِمَّا هَمُّوا بِهِ مِنْ ذَلِكَ، وَمَضَوْا مَعَ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِوَجْهِهِ الَّذِي مَضَى لَهُ، وَتَرَكُوا عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ وَالْمُنَافِقِينَ مَعَهُ، فَأَثْنَى اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – عَلَيْهِمَا بِثُبُوتِهِمَا عَلَى الْحَقِّ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ وَلِيُّهُمَا وَنَاصِرُهُمَا عَلَى أَعْدَائِهِمَا مِنَ الْكُفَّارِ.

﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾أَيْ: مَنْ كَانَ بِهِ ضَعْفٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ وَهَنٌ؛ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَيَّ، وَلْيَسْتَعِنْ بِي أُعِنْهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَأَدْفَعْ عَنْهُ، حَتَّى أَبْلُغَ بِهِ وَأُقَوِّيَهُ عَلَى نِيَّتِهِ.

١٢٣– ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ﴾يَعْنِي: وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا، لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا، وَيَنْصُرْكُمْ رَبُّكُمْ، ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ﴾ عَلَى أَعْدَائِكُمْ ﴿وَأَنْتُمْ﴾ يَوْمَئِذٍ ﴿أَذِلَّةٌ[١٣٢]﴾يَعْنِي: قَلِيلُونَ، فِي غَيْرِ مَنَعَةٍ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى أَظْهَرَكُمُ اللهُ عَلَى عَدُوِّكُمْ، مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِكُمْ، وَأَنْتُمُ الْيَوْمَ أَكْثَرُ عَدَدًا مِنْكُمْ حِينَئِذٍ، فَإِنْ تَصْبِرُوا لِأَمْرِ اللهِ؛ يَنْصُرْكُمْ كَمَا نَصَرَكُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ، ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾يَقُولُ: فَاتَّقُوا رَبَّكُمْ بِطَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَحَارِمِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾يَقُولُ: لِتَشْكُرُوهُ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ النَّصْرِ عَلَى أَعْدَائِكُمْ وَإِظْهَارِ دِينِكُمْ، وَلِمَا هَدَاكُمْ لَهُ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي ضَلَّ عَنْهُ مُخَالِفُوكُمْ.

وَبَدْرٌ: مَاءٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، الْتَقَى عَلَيْهِ نَبِيُّ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالْمُشْرِكُونَ، وَكَانَ أَوَّلَ قِتَالٍ قَاتَلَهُ نَبِيُّ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

---

[١٣٢] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿**أَذِلَّةٌ**﴾فَإِنَّهُ جَمْعُ ذَلِيلٍ، وَإِنَّمَا سَمَّاهُمُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – أَذِلَّةً؛ لِقِلَّةِ عَدَدِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثَمِائَةِ نَفْسٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ، وَعَدُوُّهُمْ مَا بَيْنَ التِّسْعِمِائَةِ إِلَى الْأَلْفِ، فَجَعَلَهُمْ لِقِلَّةِ عَدَدِهِمْ أَذِلَّةً!.

وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَئِذٍ: «أَنْتُمُ الْيَوْمَ بِعِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ يَوْمَ لَقِيَ جَالُوتَ».[١٣٣]

فَكَانُوا ثَلَاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، وَالْمُشْرِكُونَ يَوْمَئِذٍ أَلْفٌ، أَوْ رَاهَقُوا ذَلِكَ.

١٢٥- ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾يَعْنِي: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِكَ مِنْ أَصْحَابِكَ: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾؟ وَذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ.

فَوَعَدَهُمُ اللهُ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَدَدًا لَهُمْ، ثُمَّ وَعَدَهُمْ بَعْدَ الثَّلَاثَةِ الْآلَافِ، خَمْسَةَ آلَافٍ إِنْ صَبَرُوا لِأَعْدَائِهِمْ وَاتَّقُوا اللهَ.

وَلَا دَلَالَةَ فِي الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُمْ أُمِدُّوا بِالثَّلَاثَةِ آلَافٍ، وَلَا بِالْخَمْسَةِ آلَافٍ، وَلَا عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُمَدُّوا بِهِمْ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ أَصْلُ الْفَوْرِ: ابْتِدَاءُ الْأَمْرِ يُؤْخَذُ فِيهِ، ثُمَّ يُوصَلُ بِآخَرَ، يُقَالُ مِنْهُ: فَارَتِ الْقِدْرُ فَهِيَ تَفُورُ فَوْرًا وَفَوَرَانًا: إِذَا مَا ابْتَدَأَ مَا فِيهَا بِالْغَلَيَانِ ثُمَّ اتَّصَلَ.

وَمَضَيْتُ إِلَى فُلَانٍ مِنْ فَوْرِي ذَلِكَ، يُرَادُ بِهِ: مِنْ وَجْهِي الَّذِي ابْتَدَأْت فِيهِ.

فَالَّذِي قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾مِنْ وَجْهِهِمْ هَذَا؛ قَصَدَ إِلَى أَنَّ تَأْوِيلَهُ: وَيَأْتِيكُمْ كُرْزُ بْنُ جَابِرٍ وَأَصْحَابُهُ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ ابْتِدَاءِ مَخْرَجِهِمُ الَّذِي خَرَجُوا مِنْهُ لِنُصْرَةِ أَصْحَابِهِمْ

---

[١٣٣] صحيح: رواه البخاري، وأحمد، والترمذي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم.

قُلْتُ: وَالْحَدِيثُ مَوْقُوفٌ عَلَى الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –.

فَائِدَةٌ: وَقَعَ عِنْدَ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّ عَدَدَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ بَدْرٍ: ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا.

مِنَ الْمُشْرِكِينَ!. [١٣٤]

وَأَمَّا الَّذِينَ قَالُوا: مَعْنَى ذَلِكَ: مِنْ غَضَبِهِمْ هَذَا؛ فَإِنَّمَا عَنَوْا أَنَّ تَأْوِيلَ ذَلِكَ: وَيَأْتِيكُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ وَتُبَّاعُهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ ابْتِدَاءِ غَضَبِهِمُ الَّذِي غَضِبُوهُ لِقَتْلَاهُمُ الَّذِينَ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ بِهَا.

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾يَعْنِي: مُعَلَّمِينَ، وَالسِّيمَا: الْعَلَامَةُ.

١٢٦- ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ﴾يَعْنِي: وَمَا جَعَلَ اللهُ وَعْدَهُ إِيَّاكُمْ مَا وَعَدَكُمْ – مِنْ إِمْدَادِهِ إِيَّاكُمْ بِالْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ ذَكَرَ عَدَدَهُمْ – ﴿إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾يَعْنِي: بُشْرَى، يُبَشِّرُكُمْ بِهَا، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ

---

[١٣٤] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي زَادِ الْمَعَادِ:** قَدِ اخْتُلِفَ فِي هَذَا الْإِمْدَادِ الَّذِي بِثَلَاثَةِ آلَافٍ، وَالَّذِي بِالْخَمْسَةِ عَلَى قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكَانَ إِمْدَادًا مُعَلَّقًا عَلَى شَرْطٍ، فَلَمَّا فَاتَ شَرْطُهُ؛ فَاتَ الْإِمْدَادُ! وَهَذَا قَوْلُ الضَّحَّاكِ وَمُقَاتِلٍ، وَإِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ عِكْرِمَةَ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ. وَالرِّوَايَةُ الْأُخْرَى عَنْ عِكْرِمَةَ ، اخْتَارَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ.

وَحُجَّةُ هَؤُلَاءِ: أَنَّ السِّيَاقَ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا**﴾، إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللهُ**﴾أَيْ: هَذَا الْإِمْدَادَ ﴿**إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ**﴾قَالَ هَؤُلَاءِ: فَلَمَّا اسْتَغَاثُوا؛ أَمَدَّهُمْ بِتَمَامِ ثَلَاثَةِ آلَافٍ، ثُمَّ أَمَدَّهُمْ بِتَمَامِ خَمْسَةِ آلَافٍ لَمَّا صَبَرُوا وَاتَّقَوْا، فَكَانَ هَذَا التَّدْرِيجُ وَمُتَابَعَةُ الْإِمْدَادِ أَحْسَنَ مَوْقِعًا، وَأَقْوَى لِنُفُوسِهِمْ، وَأَسَرَّ لَهَا مِنْ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مُتَابَعَةِ الْوَحْيِ وَنُزُولِهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ!.

وَقَالَتِ الْفِرْقَةُ الْأُولَى: الْقِصَّةُ فِي سِيَاقِ أُحُدٍ، وَإِنَّمَا أَدْخَلَ ذِكْرَ بَدْرٍ اعْتِرَاضًا فِي أَثْنَائِهَا، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ: ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾، فَذَكَّرَهُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ لَمَّا نَصَرَهُمْ بِبَدْرٍ وَهُمْ أَذِلَّةٌ، ثُمَّ عَادَ إِلَى قِصَّةِ أُحُدٍ، وَأَخْبَرَ عَنْ قَوْلِ رَسُولِهِ لَهُمْ: ﴿**أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ**﴾، ثُمَّ وَعَدَهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ صَبَرُوا وَاتَّقَوْا، أَمَدَّهُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ، فَهَذَا مِنْ قَوْلِ رَسُولِهِ، وَالْإِمْدَادُ الَّذِي بِبَدْرٍ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى، وَهَذَا بِخَمْسَةِ آلَافٍ، وَإِمْدَادُ بَدْرٍ بِأَلْفٍ، وَهَذَا مُعَلَّقٌ عَلَى شَرْطٍ، وَذَلِكَ مُطْلَقٌ، وَالْقِصَّةُ فِي (سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ) هِيَ قِصَّةُ أُحُدٍ مُسْتَوْفَاةٌ مُطَوَّلَةٌ، وَبَدْرٌ ذُكِرَتْ فِيهَا اعْتِرَاضًا، وَالْقِصَّةُ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ قِصَّةُ بَدْرٍ مُسْتَوْفَاةٌ مُطَوَّلَةٌ، فَالسِّيَاقُ فِي (آلِ عِمْرَانَ) غَيْرُ السِّيَاقِ فِي الْأَنْفَالِ.

يُوَضِّحُ هَذَا: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿**وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا**﴾قَدْ قَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّهُ يَوْمُ أُحُدٍ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ الْإِمْدَادُ الْمَذْكُورُ فِيهِ، فَلَا يَصِحُّ قَوْلُهُ: إِنَّ الْإِمْدَادَ بِهَذَا الْعَدَدِ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَإِتْيَانُهُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يَوْمَ أُحُدٍ!! وَاللهُ أَعْلَمُ.

قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾يَقُولُ: وَكَيْ تَطْمَئِنَّ بِوَعْدِهِ الَّذِي وَعَدَكُمْ مِنْ ذَلِكَ قُلُوبُكُمْ، فَتَسْكُنُ إِلَيْهِ، وَلَا تَجْزَعُ مِنْ كَثْرَةِ عَدَدِ عَدُوِّكُمْ، وَقِلَّةِ عَدَدِكُمْ.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾يَعْنِي: وَمَا ظَفَرُكُمْ – إِنْ ظَفِرْتُمْ – بِعَدُوِّكُمْ إِلَّا بِعَوْنِ اللهِ، لَا مِنْ قِبَلِ الْمَدَدِ الَّذِي يَأْتِيكُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ!.

يَقُولُ: فَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا، وَبِهِ فَاسْتَعِينُوا، لَا بِالْجُمُوعِ وَكَثْرَةِ الْعَدَدِ! فَإِنَّ نَصْرَكُمْ – إِنْ كَانَ – إِنَّمَا يَكُونُ بِاللهِ وَبِعَوْنِهِ وَمَعَكُمْ مِنْ مَلَائِكَتِهِ خَمْسَةُ آلَافٍ، فَإِنَّهُ إِلَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِعَوْنِ اللهِ وَبِتَقْوِيَتِهِ إِيَّاكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ، وَإِنْ كَانَ مَعَكُمْ مِنَ الْبَشَرِ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ، أَحْرَى، فَاتَّقُوا اللهَ وَاصْبِرُوا عَلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ نَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ.

وَأَمَّا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: الْعَزِيزُ فِي انْتِقَامِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ بِهِ بِأَيْدِي أَوْلِيَائِهِ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ، (الْحَكِيمُ) فِي تَدْبِيرِهِ لَكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – عَلَى أَعْدَائِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِهِ.

يَقُولُ: فَأَبْشِرُوا – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – بِتَدْبِيرِي لَكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، وَنَصْرِي إِيَّاكُمْ عَلَيْهِمْ، إِنْ أَنْتُمْ أَطَعْتُمُونِي فِيمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَصَبَرْتُمْ لِجِهَادِ عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ.

١٢٧– ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾يَعْنِي: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ؛ ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وَيَعْنِي بِالطَّرَفِ: الطَّائِفَةَ وَالنَّفَرَ.

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ، كَمَا[١٣٥] يُهْلِك طَائِفَةً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، فَجَحَدُوا وَحْدَانِيَّةَ رَبِّهِمْ، وَنُبُوَّةَ نَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾يَعْنِي: أَوْ يُخْزِيَهُمْ بِالْخَيْبَةِ بِمَا رَجَوْا مِنَ الظَّفَرِ بِكُمْ.

---

[١٣٥] لَعَلَّ الصَّوَابَ: (كَيْ).

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾: أَوْ يَصْرَعَهُمْ لِوُجُوهِهِمْ، ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ سَمِعَ الْعَرَبَ تَقُولُ: كَبَتَهُ اللهُ لِوَجْهِهِ، بِمَعْنَى: صَرَعَهُ اللهُ.

فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ؛ لِيُهْلِكَ فَرِيقًا مِنَ الْكُفَّارِ بِالسَّيْفِ، أَوْ يُخْزِيَهُمْ بِخَيْبَتِهِمْ مِمَّا طَمِعُوا فِيهِ مِنَ الظَّفَرِ، ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾يَقُولُ: فَيَرْجِعُوا عَنْكُمْ خَائِبِينَ، لَمْ يُصِيبُوا مِنْكُمْ شَيْئًا مِمَّا رَجَوْا أَنْ يَنَالُوهُ مِنْكُمْ!.

١٢٨- ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾يَعْنِي: لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، أَوْ يَكْبِتَهُمْ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ، فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ، لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ.

وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ لَيْسَ إِلَيْكَ – يَا مُحَمَّدُ – مِنْ أَمْرِ خَلْقِي إِلَّا أَنْ تُنَفِّذَ فِيهِمْ أَمْرِي، وَتَنْتَهِيَ فِيهِمْ إِلَى طَاعَتِي، وَإِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَيَّ وَالْقَضَاءُ فِيهِمْ بِيَدِي دُونَ غَيْرِي، أَقْضِي فِيهِمْ وَأَحْكُمُ بِالَّذِي أَشَاءُ، مِنَ التَّوْبَةِ عَلَى مَنْ كَفَرَ بِي وَعَصَانِي وَخَالَفَ أَمْرِي، أَوِ الْعَذَابِ إِمَّا فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالنِّقَمِ الْمُبِيرَةِ[١٣٦]، وَإِمَّا فِي آجِلِ الْآخِرَةِ بِمَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِ الْكُفْرِ بِي.

وَذُكِرَ أَنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – إِنَّمَا أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ لِأَنَّهُ لَمَّا أَصَابَهُ بِأُحُدٍ مَا أَصَابَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ –كَالْآيِسِ لَهُمْ مِنَ الْهُدَى، أَوْ مِنَ الْإِنَابَةِ إِلَى الْحَقِّ –: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ»؟!.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حِينَ شُجَّ فِي جَبْهَتِهِ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ[١٣٧]: «لَا يُفْلِحُ قَوْمٌ صَنَعُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ»، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ

---

[١٣٦] (الْمُبِيرَةُ): الْمُهْلِكَةُ.

[١٣٧] قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ: الرَّبَاعِيَةُ – بِوَزْنِ الثَّمَانِيَةِ –: السِّنُّ الَّتِي بَيْنَ الثَّنِيَّةِ وَالنَّابِ، وَالْجَمْعُ: رَبَاعِيَاتٌ.

شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.[١٣٨]

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «اللَّهُمَّ الْعَنْ أَبَا سُفْيَانَ! اللَّهُمَّ الْعَنِ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ! اللَّهُمَّ الْعَنْ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ!»، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.[١٣٩]

١٢٩– ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾يَعْنِي: لَيْسَ لَكَ – يَا مُحَمَّدَ – مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَلِلَّهِ جَمِيعُ مَا بَيْنَ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ مُشْرِقِ الشَّمْسِ إِلَى مَغْرِبِهَا دُونَكَ وَدُونَهُمْ، يَحْكُمُ فِيهِمْ بِمَا شَاءَ، وَيَقْضِي فِيهِمْ مَا أَحَبَّ، فَيَتُوبُ عَلَى مَنْ أَحَبَّ مِنْ خَلْقِهِ الْعَاصِينَ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، ثُمَّ يَغْفِرُ لَهُ، وَيُعَاقِبُ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ عَلَى جُرْمِهِ فَيَنْتَقِمُ مِنْهُ، وَهُوَ الْغَفُورُ الَّذِي يَسْتُرُ ذُنُوبَ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْتُرَ عَلَيْهِ ذُنُوبَهُ مِنْ خَلْقِهِ بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ، وَالرَّحِيمُ بِهِمْ فِي تَرْكِهِ عُقُوبَتَهُمْ عَاجِلًا عَلَى عَظِيمِ مَا يَأْتُونَ مِنَ الْمَآثِمِ.

١٣٠– ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾يَعْنِي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا فِي إِسْلَامِكُمْ، بَعْدَ إِذْ هَدَاكُمْ لَهُ، كَمَا كُنْتُمْ تَأْكُلُونَهُ فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ.

وَكَانَ أَكْلُهُمْ ذَلِكَ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ: أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَكُونُ لَهُ عَلَى الرَّجُلِ مَالٌ إِلَى أَجَلٍ، فَإِذَا حَلَّ الْأَجَلُ طَلَبَهُ مِنْ صَاحِبِهِ، فَيَقُولُ لَهُ الَّذِي عَلَيْهِ الْمَالُ: أَخِّرْ عَنى دَيْنَكَ وَأَزِيدُكَ عَلَى مَالِكَ! فَيَفْعَلَانِ ذَلِكَ!! فَذَلِكَ هُوَ الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، فَنَهَاهُمُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – فِي إِسْلَامِهِمْ عَنْهُ.

---

[١٣٨] صحيح: رواه مسلم، وأحمد، والترمذي، وابن ماجة، والنسائي في الكبرى، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم.

[١٣٩] صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وَزَادَ: فَتَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ فَأَسْلَمُوا فَحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ؛ وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٠٠٤)، وقال أحمد شاكر في تعليقه على المسند(٥٦٧٤): إسناده صحيح.

﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾يَعْنِي: وَاتَّقُوا اللهَ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – فِي أَمْرِ الرِّبَا فَلَا تَأْكُلُوهُ، وَفِي غَيْرِهِ مِمَّا أَمَرَكُمْ بِهِ أَوْ نَهَاكُمْ عَنْهُ، وَأَطِيعُوهُ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

يَقُولُ: لِتَنْجَحُوا فَتَنْجُوا مِنْ عِقَابِهِ، وَتُدْرِكُوا مَا رَغَّبَكُمْ فِيهِ مِنْ ثَوَابِهِ، وَالْخُلُودِ فِي جِنَانِهِ

١٣١– ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ: وَاتَّقُوا – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – النَّارَ أَنْ تَصْلَوْهَا بِأَكْلِكُمُ الرِّبَا بَعْدَ نَهْيِي إِيَّاكُمْ عَنْهُ، الَّتِي أَعْدَدْتُهَا لِمَنْ كَفَرَ بِي، فَتَدْخُلُوا مَدْخَلَهُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ بِي، بِخِلَافِكُمْ أَمْرِي، وَتَرْكِكُمْ طَاعَتِي.

١٣٢– ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾يَعْنِي: وَأَطِيعُوا اللهَ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – فِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ مِنْ أَكْلِ الرِّبَا وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَفِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ الرَّسُولُ.

يَقُولُ: ﴿وَ﴾ أَطِيعُوا ﴿الرَّسُولَ﴾ – أَيْضًا كَذَلِكَ – ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾يَقُولُ: لِتُرْحَمُوا فَلَا تُعَذَّبُوا.

١٣٣– ﴿وَسَارِعُوا﴾يَعْنِي: وَبَادِرُوا وَسَابِقُوا ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾يَعْنِي: إِلَى مَا يَسْتُرُ عَلَيْكُمْ ذُنُوبَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَمَا يُغَطِّيهَا عَلَيْكُمْ مِنْ عَفْوِهِ عَنْ عُقُوبَتِكُمْ عَلَيْهَا، ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾يَعْنِي: سَارِعُوا – أَيْضًا – إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ.

ذُكِرَ أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ: وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعِ، إِذَا ضُمَّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ.

وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – سُئِلَ، فَقِيلَ لَهُ: هَذِهِ الْجَنَّةُ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَأَيْنَ النَّارُ؟ فَقَالَ: «هَذَا النَّهَارُ إِذَا جَاءَ، أَيْنَ اللَّيْلُ؟!».[١٤٠]

---

[١٤٠] صحيح: رواه ابن حبان في صحيحه، وإسحاق بن راهويه في مسنده، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٢٨٩٢)، والتعليقات الحسان(١٠٣). وَلَفْظُ الْحَدِيثِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَرَأَيْتَ جَنَّةً عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَأَيْنَ النَّارُ؟! فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**أَرَأَيْتَ هَذَا اللَّيْلَ قَدْ كَانَ ثُمَّ لَيْسَ شَيْءٌ، أَيْنَ جُعِلَ؟!**» قَالَ: اللهُ أَعْلَمُ! قَالَ: «**فَإِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**».

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ[١٤١]﴾يَعْنِي: أَنَّ الْجَنَّةَ الَّتِي عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعِ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُتَّقِينَ؛ الَّذِينَ اتَّقَوُا اللهَ فَأَطَاعُوهُ فِيمَا أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ، فَلَمْ يَتَعَدَّوْا حُدُودَهُ، وَلَمْ يُقَصِّرُوا فِي وَاجِبِ حَقِّهِ عَلَيْهِمْ فَيُضَيِّعُوهُ.

١٣٤- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾يَعْنِي: أُعِدَّتِ الْجَنَّةُ الَّتِي عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ لِلْمُتَّقِينَ؛ وَهُمُ الْمُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ: إِمَّا فِي صَرْفِهِ عَلَى مُحْتَاجٍ، وَإِمَّا فِي تَقْوِيَةِ مُضْعِفٍ[١٤٢] عَلَى النُّهُوضِ لِجِهَادِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿فِي السَّرَّاءِ﴾يَعْنِي: فِي حَالِ السُّرُورِ؛ بِكَثْرَةِ الْمَالِ وَرَخَاءِ الْعَيْشِ.

وَالضَّرَّاءُ: مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: قَدْ ضُرَّ فُلَانٌ فَهُوَ يُضَرُّ: إِذَا أَصَابَهُ الضُّرُّ؛ وَذَلِكَ إِذَا أَصَابَهُ الضِّيقُ، وَالْجَهْدُ فِي عَيْشِهِ!.

فَأُخْبِرَ - جَلَّ ثناؤُهُ - أَنَّ الْجَنَّةَ - الَّتِي وَصَفَ صِفَتَهَا - لِمَنِ اتَّقَاهُ وَأَنْفَقَ مَالَهُ - فِي حَالِ الرَّخَاءِ وَالسَّعَةِ، وَفِي حَالِ الضِّيقِ وَالشِّدَّةِ - فِي سَبِيلِهِ.

---

[١٤١] قُلْتُ: وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَالْآيَة (١٣١) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ: دَلِيلٌ لِمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا، مِنْ أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ الْآن؛ لِأَنَّ اللهَ ذَكَرَ فِي الْجَنَّةِ أَنَّهَا: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾، وَفِي النَّارِ: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾.

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قَالَ: «**اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ؛ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ؛ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم - عن ابن عباس -، وأحمد، والترمذي، وابن حبان؛ وغيرهم].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، قَالَ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَصَلَّى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ [هَذَا]، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ! قَالَ: «**إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ؛ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا! وَرَأَيْتُ النَّارَ؛ فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ!!...**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد؛ وغيرهم]. قَوْلُهُمْ: (**ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ**)أَيْ: تَوَقَّفْتَ وَتَأَخَّرْتَ.

قَالَ إِمَامُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي أُصُولِ السُّنَّةِ: وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ...فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُمَا لَمْ تُخْلَقَا؛ فَهُوَ مُكَذِّبٌ بِالْقُرْآنِ، وَأَحَادِيثِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ وَلَا أَحْسِبُهُ يُؤْمِنُ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ!!.

قَالَ الْإِمَامُ رَبِيعُ بْنُ هَادِي الْمَدْخَلِيُّ فِي شَرْحِ أُصُولِ السُّنَّةِ: وَقَدْ يَكُونُ فِي هَؤُلَاءِ الضُّلَّالِ الْمُنْحَرِفِينَ - يَعْنِي: الْمُعْتَزِلَةَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ غَيْرُ مَخْلُوقَتَيْنِ - مُتَأَوِّلُونَ لَا نُكَفِّرُهُمْ، وَقَدْ يَكُونُ فِيهِمُ الزِّنْدِيقُ الَّذِي يُكَذِّبُ فِعْلًا؛ فَيَكُونُ زِنْدِيقًا مُكَذِّبًا!!.

[١٤٢] أَضْعَفَ الرَّجُلُ: ضَعُفَتْ دَابَّتُهُ، يُقَالُ: هُوَ ضَعِيفٌ مُضْعِفٌ، فَالضَّعِيفُ: فِي بَدَنِهِ، وَالْمُضْعِفُ: الَّذِي دَابَّتُهُ ضَعِيفَةٌ [لسان العرب].

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ[١٤٣]﴾ يَعْنِي: وَالْجَارِعِينَ الْغَيْظَ عِنْدَ امْتِلَاءِ نُفُوسِهِمْ مِنْهُ.

يُقَالُ مِنْهُ: كَظَمَ فُلَانٌ غَيْظَهُ: إِذَا تَجَرَّعَهُ، فَحَفِظَ نَفْسَهُ مِنْ أَنْ تُمْضِيَ مَا هِيَ قَادِرَةٌ عَلَى إِمْضَائِهِ؛ بِاسْتِمْكَانِهَا مِمَّنْ غَاظَهَا، وَانْتِصَارِهَا مِمَّنْ ظَلَمَهَا!.

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ[١٤٤]﴾ يَعْنِي: وَالصَّافِحِينَ عَنِ النَّاسِ عُقُوبَةَ ذُنُوبِهِمْ إِلَيْهِمْ وَهُمْ عَلَى الِانْتِقَامِ مِنْهُمْ قَادِرُونَ، فَتَارِكُوهَا لَهُمْ.

---

[١٤٣] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ: الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ!**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد؛ وغيرهم].

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ؛ دَعَاهُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ!**» [حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير والصغير والأوسط؛ وحسنه الألباني في صحيح الجامع(٦٥٢٢)، وصحيح الترغيب والترهيب(٢٧٥٣)].

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ؛ مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ!** (وَفِي رِوَايَةٍ: **مَلَأَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – قَلْبَهُ أَمْنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ!**)» [حسن: رواه الطبراني في الكبير والصغير والأوسط؛ وحسنه الألباني في الصحيحة(٩٠٦)، وصحيح الترغيب والترهيب(٢٦٢٣)].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ**» [صحيح: رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، وابن ماجة، والبيهقي في الشعب، والطبراني في الكبير والأوسط؛ وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد(٩٩٤)، وصحيح الترغيب والترهيب(٢٧٥٢)، وقال أحمد شاكر في تعليقه على المسند(٦١١٤): إسناده صحيح].

قَالَ بَعْضُهُمْ:

وَإِذَا غَضِبْتَ فَكُنْ وَقُورًا كَاظِمًا ... لِلْغَيْظِ تُبْصِرُ مَا تَقُولُ وَتَسْمَعُ

فَكَفَى بِهِ شَرَفًا تَصَبُّرُ سَاعَةً ... يَرْضَى بِهَا عَنْكَ الْإِلَهُ وَتُرْفَعُ

[١٤٤] **قَالَ الْإِمَامُ السَّعْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** يَدْخُلُ فِي الْعَفْوِ عَنِ النَّاسِ: الْعَفْوُ عَنْ كُلِّ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ.

وَالْعَفْوُ أَبْلَغُ مِنَ الْكَظْمِ؛ لِأَنَّ الْعَفْوَ تَرْكُ الْمُؤَاخَذَةِ مَعَ السَّمَاحَةِ عَنِ الْمُسِيءِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ مِمَّنْ تَحَلَّى بِالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ، وَتَخَلَّى عَنِ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ! وَمِمَّنْ تَاجَرَ مَعَ اللهِ، وَعَفَا عَنْ عِبَادِ اللهِ رَحْمَةً بِهِمْ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ، وَكَرَاهَةً لِحُصُولِ الشَّرِّ عَلَيْهِمْ، وَلِيَعْفُوَ اللهُ عَنْهُ، وَيَكُون أَجْرهُ عَلَى رَبِّهِ الْكَرِيمِ، لَا عَلَى الْعَبْدِ الْفَقِيرِ! كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ**﴾ اهـ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**، (وَفِي رِوَايَةٍ: **وَلَا عَفَا رَجُلٌ عَنْ مَظْلَمَةٍ إِلَّا زَادَهُ اللهُ بِهَا عِزًّا**)، **وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، والترمذي، وابن خزيمة في صحيحه، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم].

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي شَرْحِ رِيَاضِ الصَّالِحِينَ: مِنَ الْإِحْسَانِ أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَلَكِنَّ الْعَفْوَ لَهُ مَحِلٌّ: إِنْ كَانَ الْمُعْتَدِي أَهْلًا لِلْعَفْوِ؛ فَالْعَفْوُ مَحْمُودٌ، وَإِنْ كَانَ الْمُعْتَدِي شِرِّيرًا سَيِّئًا إِذَا عَفَوْتَ عَنْهُ ازْدَادَ فِي الِاعْتِدَاءِ عَلَيْكَ وَعَلَى غَيْرِكَ؛ فَلَا تَعْفُ عَنْهُ؛ بَلِ الْأَفْضَلُ أَنْ تَأْخُذَ بِحَقِّكَ؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿**فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ**﴾ وَالْعَفْوُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ لَيْسَ بِإِصْلَاحٍ اهـ. بِتَصَرُّفٍ

﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾يَعْنِي: فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَنْ عَمِلَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي وَصَفَ أَنَّهُ أَعَدَّ لِلْعَامِلِينَ بِهَا الْجَنَّةَ الَّتِي عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْعَامِلُونَ بِهَا هُمُ الْمُحْسِنُونَ، وَإِحْسَانُهُمْ: هُوَ عَمَلُهُمْ بِهَا.

١٣٥- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً[١٤٥]﴾يَعْنِي: أَنَّ الْجَنَّةَ - الَّتِي وَصَفَ صِفَتَهَا - أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، الْمُنْفِقِينَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً.

وَمَعْنَى الْكَلَامِ: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَعْلَةً فَاحِشَةً، وَمَعْنَى الْفَاحِشَةِ: الْفَعْلَةُ الْقَبِيحَةُ الْخَارِجَةُ عَمَّا أَذِنَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِيهِ.[١٤٦]

﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾يَعْنِي: فَعَلُوا بِأَنْفُسِهِمْ غَيْرَ الَّذِي كَانَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِهَا.

وَالَّذِي فَعَلُوا مِنْ ذَلِكَ: رُكُوبُهُمْ مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ مَا أَوْجَبُوا لَهَا بِهِ عُقُوبَتَهُ!.

﴿ذَكَرُوا اللهَ﴾يَعْنِي: ذَكَرُوا وَعِيدَ اللهِ عَلَى مَا أَتَوْا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ إِيَّاهُ ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾يَقُولُ: فَسَأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يَسْتُرَ عَلَيْهِمْ ذُنُوبَهُمْ بِصَفْحِهِ لَهُمْ عَنِ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهَا﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ[١٤٧]﴾

---

[١٤٥] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ:** الْمُتَّقِي لَا يَكُونُ مَعْصُومًا مِنْ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ؛ لِأَنَّ اللهَ لَمْ يَقُلْ: وَهُمْ لَا يَفْعَلُونَ الْفَوَاحِشَ، أَوْ لَا يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ! بَلْ قَالَ: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ**﴾، فَفِعْلُ الْفَاحِشَةِ لَا يَخْدِشُ التَّقْوَى إِذَا اسْتَغْفَرَ الْإِنْسَانُ وَتَابَ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، أَنَّهُ قَالَ: «**كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»، وَصَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»، إِذَنْ لَيْسَ الشَّأْنُ فِي أَنْ لَا يَفْعَلَ الْإِنْسَانُ الْمَعْصِيَةَ - كُلُّ إِنْسَانٍ لَا بُدَّ أَنْ يَعْصِيَ! - لَكِنَّ الشَّأْنَ فِي أَنَّهُ إِذَا فَعَلَ الْمَعْصِيَةَ رَجَعَ إِلَى اللهِ اهـ.

[١٤٦] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَأَصْلُ الْفُحْشِ: الْقُبْحُ وَالْخُرُوجُ عَنِ الْحَدِّ وَالْمِقْدَارِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلطَّوِيلِ الْمُفْرِطِ الطُّولِ: إِنَّهُ لَفَاحِشُ الطُّولِ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْكَلَامِ الْقَبِيحِ غَيْرِ الْقَصْدِ: كَلَامٌ فَاحِشٌ، وَقِيلَ: إِنَّ الْفَاحِشَةَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: مَعْنِيٌّ بِهَا الزِّنَا.

[١٤٧] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، قَالَ: «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي! فَقَالَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ! فَقَالَ: أَيْ رَبِّ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي؟ فَقَالَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ! فَقَالَ: أَيْ رَبِّ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي؟ فَقَالَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ؛ اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ!!**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد؛ وغيرهم].

يَقُولُ: وَهَلْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ – أَيْ: يَعْفُو عَنْ رَاكِبِهَا فَيَسْتُرَهَا عَلَيْهِ – إِلَّا اللهُ؟.

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا[148]﴾يَقُولُ: وَلَمْ يُقِيمُوا عَلَى ذُنُوبِهِمُ الَّتِي أَتَوْهَا، وَمَعْصِيَتِهِمُ الَّتِي رَكِبُوهَا﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يَقُولُ: لَمْ يُقِيمُوا عَلَى ذُنُوبِهِمْ عَامِدِينَ لِلْمُقَامِ عَلَيْهَا، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ قَدْ تَقَدَّمَ بِالنَّهْيِ عَنْهَا، وَأَوْعَدَ عَلَيْهَا الْعُقُوبَةَ مَنْ رَكِبَهَا.

١٣٦- ﴿أُولَئِكَ﴾يَعْنِي: أُولَئِكَ الَّذِينَ ذَكَرَ أَنَّهُ أَعَدَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ الَّتِي عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ. ثُمَّ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هَذِهِ صِفَتُهُمْ ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾يَعْنِي: ثَوَابُهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي وَصَفَهُمْ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَنَّهُمْ عَمِلُوهَا، ﴿مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾يَقُولُ: عَفْوٌ

---

[148] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْفَتْحِ**: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا**﴾ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مِنْ شَرْطِ قَبُولِ الِاسْتِغْفَارِ، أَنْ يُقْلِعَ الْمُسْتَغْفِرُ عَنِ الذَّنْبِ، وَإِلَّا: فَالِاسْتِغْفَارُ بِاللِّسَانِ مَعَ التَّلَبُّسِ بِالذَّنْبِ؛ كَالتَّلَاعُبِ! اهـ.

ذِكْرُ بَعْضِ مَا حَضَرَنَا ذِكْرُهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ فِي فَضْلِ الِاسْتِغْفَارِ:

قَالَ اللهُ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «...**يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي؛ غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي!...**» [حسن: رواه الترمذي؛ وحسنه الألباني في صحيح الجامع(٤٣٣٨)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٦١٦)].

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؛ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ!**» [صحيح: رواه أبو داود، والترمذي؛ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(١٦٢٢)، وغيره].

وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ – وَغَيْرُهُ – عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، ثَلَاثًا؛ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَ فَارًّا مِنَ الزَّحْفِ!**» قال الْحَاكِمُ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَأَوْرَدَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الصَّحِيحَةِ(٢٧٢٧).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ! لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ! فَقَالَ الرَّبُّ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى –: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي! لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي!!**» [حسن: رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، والحاكم؛ وحسنه الألباني في الصحيحة(١٠٤)، وصحيح الجامع(١٦٥٠)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٦١٧)].

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**إِنَّ صَاحِبَ الشِّمَالِ لَيَرْفَعُ الْقَلَمَ سِتَّ سَاعَاتٍ عَنِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ الْمُخْطِئِ أَوِ الْمُسِيءِ، فَإِنْ نَدِمَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ مِنْهَا؛ أَلْقَاهَا، وَإِلَّا كُتِبَتْ وَاحِدَةً**» [حسن: رواه الطبراني في الكبير ومسند الشاميين، والبيهقي في الشعب، وأبو نعيم في الحلية؛ وحسنه الألباني في الصحيحة(١٢٠٩)، وصحيح الجامع(٢٠٩٧)].

وَعَنْ عَبْدَ اللهِ بْنَ بُسْرٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا**» [صحيح: رواه ابن ماجة، والنسائي في الكبرى، والطبراني في الدعاء، والبيهقي في الشعب، والضياء في المختارة؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٣٩٣٠)، وصحيح ابن ماجة(٣٨١٨)].

لَهُمْ مِنَ اللهِ عَنْ عُقُوبَتِهِمْ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، ﴿وَ﴾لَهُمْ عَلَى مَا أَطَاعُوا اللهَ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ بِالْحَسَنِ مِنْهَا ﴿جَنَّاتٌ﴾ – وَهِيَ الْبَسَاتِينُ – ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾يَقُولُ: تَجْرِي خِلَالَ أَشْجَارِهَا الْأَنْهَارُ وَفِي أَسَافِلِهَا، جَزَاءً لَهُمْ عَلَى صَالِحِ أَعْمَالِهِمْ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾يَعْنِي: دَائِمِي الْمُقَامِ فِي هَذِهِ الْجَنَّاتِ الَّتِي وَصَفَهَا، ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾يَعْنِي: وَنِعْمَ جَزَاءُ الْعَامِلِينَ لِلَّهِ، الْجَنَّاتُ الَّتِي وَصَفَهَا.

١٣٧- ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾يَعْنِي: مَضَتْ وَسَلَفَتْ مِنِّي فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ – يَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ الْإِيمَانِ بِهِ – مِنْ نَحْوِ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ هُودٍ وَقَوْمِ لُوطٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ سُلَّافِ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ ﴿سُنَنٌ[١٤٩]﴾يَعْنِي: مَثُلَات سِيرَ بِهَا فِيهِمْ وَفِيمَنْ كَذَّبُوا بِهِ مِنْ أَنْبِيَائِهِمُ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ، بِإِمْهَالِي أَهْلَ التَّكْذِيبِ بِهِمْ، وَاسْتِدْرَاجِي إِيَّاهُمْ، حَتَّى بَلَغَ الْكِتَابُ فِيهِمْ أَجَلَهُ الَّذِي أَجَّلْتُهُ لِإِدَالَةِ[١٥٠] أَنْبِيَائِهِمْ وَأَهْلِ الْإِيمَانِ بِهِمْ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أَحْلَلْتُ بِهِمْ عُقُوبَتِي! وَنَزَلَتْ بِسَاحَتِهِمْ نِقَمِي! فَتَرَكْتُهُمْ لِمَنْ بَعْدَهُمْ أَمْثَالًا وَعِبَرًا!! ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾يَقُولُ: فَسِيرُوا – أَيُّهَا الظَّانُّونَ أَنَّ إِدَالَتِي مَنْ أَدَلْتُ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ يَوْمَ أُحُدٍ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، لِغَيْرِ اسْتِدْرَاجٍ مِنِّي لِمَنْ أَشْرَكَ بِي، وَكَفَرَ بِرُسُلِي، وَخَالَفَ أَمْرِي – فِي دِيَارِ الْأُمَمِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَكُمْ، مِمَّنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ الَّذِي عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ بِرَسُولِي وَالْجَاحِدُونَ وَحْدَانِيَّتِي! فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ تَكْذِيبِهِمْ أَنْبِيَائِي، وَمَا الَّذِي آلَ إِلَيْهِ غِبُّ خِلَافِهِمْ أَمْرِي، وَإِنْكَارِهِمْ وَحْدَانِيَّتِي، فَتَعْلَمُوا عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ إِدَالَتِي مَنْ أَدَلْتُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى نَبِيِّي مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ بِأُحُدٍ، إِنَّمَا هِيَ اسْتِدْرَاجٌ وَإِمْهَالٌ لِيَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ الَّذِي أَجَّلْتُ لَهُمْ.

---

[١٤٩] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَمَّا السُّنَنُ: فَإِنَّهَا جَمْعُ سُنَّةٍ، وَالسُّنَّةُ: هِيَ الْمِثَالُ الْمُتَّبَعُ، وَالْإِمَامُ الْمُؤْتَمُّ بِهِ، يُقَالُ مِنْهُ: سَنَّ فُلَانٌ فِينَا سُنَّةً حَسَنَةً، وَسَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً: إِذَا عَمِلَ عَمَلًا اتُّبِعَ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

[١٥٠] الْإِدَالَةُ: الْغَلَبَةُ، يُقَالُ: أُدِيلَ لَنَا عَلَى أَعْدَائِنَا؛ أَي: نُصِرْنَا عَلَيْهِمْ، وَيُقَالُ: أَدَالَ اللهُ زَيْدًا مِنْ عَمْرٍو: نَزَعَ اللهُ الدَّوْلَةَ مِنْ عَمْرٍو فَآتَاهَا زَيْدًا.

ثُمَّ إِمَّا أَنْ يَئُولَ حَالُهُمْ إِلَى مِثْلِ مَا آلَ إِلَيْهِ حَالُ الْأُمَمِ الَّذِينَ سَلَفُوا قَبْلَهُمْ: مِنْ تَعْجِيلِ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِمْ، أَوْ يُنِيبُوا إِلَى طَاعَتِي وَاتِّبَاعِ رَسُولِي.

١٣٨- ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾يَعْنِي: هَذَا الَّذِي أَوْضَحْتُ لَكُمْ وَعَرَّفْتُكُمُوهُ، ﴿بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾يَعْنِي: بِالْبَيَانِ: الشَّرْحَ وَالتَّفْسِيرَ.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾يَعْنِي بِالْهُدَى: الدَّلَالَةَ عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَمَنْهَجِ الدِّينِ، وَبِالْمَوْعِظَةِ: التَّذْكِرَةَ لِلصَّوَابِ وَالرَّشَادِ.

١٣٩- ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾وَهَذَا مِنَ اللهِ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - تَعْزِيَةٌ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْقَتْلِ بِأُحُدٍ.

قَالَ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا[151]﴾ - يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ - يَعْنِي: وَلَا تَضْعُفُوا - بِالَّذِي نَالَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ بِأُحُدٍ، مِنَ الْقَتْلِ وَالْقُرُوحِ - عَنْ جِهَادِ عَدُوِّكُمْ وَحَرْبِهِمْ.

﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾وَلَا تَأْسَوْا فَتَجْزَعُوا عَلَى مَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْمُصِيبَةِ يَوْمَئِذٍ، فَإِنَّكُمْ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ، يَعْنِي: الظَّاهِرُونَ عَلَيْهِمْ، وَلَكُمُ الْعُقْبَى فِي الظَّفَرِ وَالنُّصْرَةِ عَلَيْهِمْ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾يَقُولُ: إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِي نَبِيِّي مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا يَعِدُكُمْ، وَفِيمَا يُنْبِئُكُمْ مِنَ الْخَبَرِ عَمَّا يَئُولُ إِلَيْهِ أَمْرُكُمْ وَأَمْرُهُمْ.

١٤٠- ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ[152]فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾يَعْنِي: إِنْ يَمْسَسْكُمُ الْقَتْلُ وَالْجِرَاحُ - يَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ مِنْ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَرْحٌ (قَتْلٌ وَجِرَاحٌ) مِثْلُهُ.

---

[151] الْحُزْنُ: أَلَمٌ يَعْرِضُ لِلنَّفْسِ إِذَا فَقَدَتْ مَا تُحِبُّ، وَهُوَ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى مَا فَاتَ الْإِنْسَانَ وَخَسِرَهُ مِمَّا يُحِبُّهُ، وَسَبَبُهُ: أَنَّهُ يَشْعُرُ أَنَّهُ قَدْ فَاتَهُ بِفَوْتِهِ شَيْءٌ مِنْ قُوَّتِهِ! وَفَقَدَ بِفَقْدِهِ شَيْئًا مِنْ عَزِيمَتِهِ أَوْ أَعْضَائِهِ! ذَلِكَ بِأَنَّ صِلَةَ الْإِنْسَانِ بِمَحْبُوبَاتِهِ مِنَ الْمَالِ وَالْمَتَاعِ وَالنَّاسِ - كَالْأَصْدِقَاءِ وَذِي الْقُرْبَى - تُكْسِبُهُ قُوَّةً وَتُعْطِيهِ غِبْطَةً وَسُرُورًا، فَإِذَا هُوَ فَقَدَ شَيْئًا مِنْهَا بِلَا عِوَضٍ؛ فَإِنَّهُ يَعْرِضُ لِنَفْسِهِ أَلَمُ الْحُزْنِ الَّذِي يُشْبِهُ الظُّلْمَةَ، وَيُسَمُّونَهُ كَدَرًا؛ كَأَنَّ النَّفْسَ كَانَتْ صَافِيَةً رَائِقَةً فَجَاءَ ذَلِكَ الِانْفِعَالُ فَكَدَّرَهَا بِمَا أَزَالَ مِنْ صَفْوِهَا! [تفسير المنار].

[152] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَمَّا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ**﴾فَإِنَّهُ: إِنْ يُصِبْكُمْ.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ﴾يَعْنِى: أَيَّامَ بَدْرٍ وَأُحُدٍ، ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾يَعْنِى: نَجْعَلُهَا دُوَلًا بَيْنَ النَّاسِ مُصَرَّفَةً.[153]

وَيَعْنِي بِالنَّاسِ: الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – أَدَالَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِبَدْرٍ، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ سَبْعِينَ، وَأَسَرُوا سَبْعِينَ، وَأَدَالَ[154] الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِأُحُدٍ، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ سَبْعِينَ، سِوَى مَنْ جَرَحُوا مِنْهُمْ.

وَقَدْ يُدَالُ الْكَافِرُ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَيُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ بِالْكَافِرِ؛ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يَعْصِيهِ، وَيَعْلَمَ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ، وَأَمَّا مَنِ ابْتُلِيَ مِنْهُمْ – مِنَ الْمُسْلِمِينَ – يَوْمَ أُحُدٍ؛ فَكَانَ عُقُوبَةً بِمَعْصِيَتِهِمْ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾يَعْنِي: وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ – أَيُّهَا الْقَوْمُ – مِنَ الَّذِينَ نَافَقُوا مِنْكُمْ، نُدَاوِلُ بَيْنَ النَّاسِ.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾يَعْنِي: وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا، وَلِيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ، أَيْ: لِيُكْرِمَ مِنْكُمْ بِالشَّهَادَةِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُكْرِمَهُ بِهَا.

﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾؛ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَعْصِيَتِهِمْ رَبَّهُمْ.

١٤١– ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾يَعْنِي: وَلِيَخْتَبِرَ اللهُ الَّذِينَ صَدَّقُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، فَيَبْتَلِيَهُمْ بِإِدَالَةِ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ الْمُؤْمِنَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصَ الصَّحِيحَ الْإِيمَانِ، مِنَ الْمُنَافِقِ.

﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾يَعْنِي: يُنْقِصُهُمْ وَيُفْنِيهِمْ.

---

[153] الْمُدَاوَلَةُ: نَقْلُ الشَّيْءِ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى آخَرَ، يُقَالُ: تَدَاوَلَتْهُ الْأَيْدِي: إِذَا انْتَقَلَ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى آخَرَ، وَيُقَالُ: الدُّنْيَا دُوَلٌ، أَيْ: تَنْتَقِلُ مِنْ قَوْمٍ إِلَى آخَرِينَ، ثُمَّ عَنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ.

فَالدُّنْيَا هَكَذَا(!) لَا تَبْقَى عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ! وَلِهَذَا يُقَالُ: دَوَامُ الْحَالِ مِنَ الْمُحَالِ!!.

قَالَ الشَّاعِرُ: فَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ عَلَيْنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

[154] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: يُقَالُ مِنْهُ: أَدَالَ اللهُ فُلَانًا مِنْ فُلَانٍ، فَهُوَ يُدِيلُهُ مِنْهُ إِدَالَةً: إِذَا ظَفَرَ بِهِ فَانْتَصَرَ مِنْهُ مِمَّا كَانَ نَالَ مِنْهُ الْمُدَالُ مِنْهُ.

١٤٢- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ - يَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - وَظَنَنْتُمْ ﴿أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾، وَتَنَالُوا كَرَامَةَ رَبِّكُمْ، وَشَرَفَ الْمَنَازِلِ عِنْدَهُ؛ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾يَقُولُ: وَلَمَّا يَتَبَيَّنْ لِعِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ، الْمُجَاهِدُ مِنْكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، عَلَى مَا أَمَرَهُ بِهِ. ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ[155]﴾يَعْنِي: الصَّابِرِينَ عِنْدَ الْبَأْسِ عَلَى مَا يَنَالُهُمْ فِي ذَاتِ اللهِ مِنْ جُرْحٍ وَأَلَمٍ وَمَكْرُوهٍ.

١٤٣- ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾يَعْنِي: وَلَقَدْ كُنْتُمْ - يَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ، يَعْنِي: أَسْبَابَ الْمَوْتِ، وَذَلِكَ: الْقِتَالُ.

﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾فَقَدْ رَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَهُ ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾يَعْنِي: قَدْ رَأَيْتُمُوهُ بِمَرْأًى مِنْكُمْ وَمَنْظَرٍ، أَيْ: بِقُرْبٍ مِنْكُمْ.

---

[155] قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾، أَنْكَرَ اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ دُونَ أَنْ يُبْتَلَى بِشَدَائِدِ التَّكَالِيفِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا الْفَرْقُ بَيْنَ الصَّابِرِ الْمُخْلِصِ فِي دِينِهِ، وَبَيْنَ غَيْرِهِ! وَأَوْضَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.

وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ سِرٌّ لَطِيفٌ وَعِبْرَةٌ وَحِكْمَةٌ! وَذَلِكَ أَنَّ أَبَانَا آدَمَ كَانَ فِي الْجَنَّةِ يَأْكُلُ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شَاءَ، فِي أَتَمِّ نِعْمَةٍ، وَأَكْمَلِ سُرُورٍ، وَأَرْغَدِ عَيْشٍ؛ كَمَا قَالَ لَهُ رَبُّهُ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾، وَلَوْ تَنَاسَلْنَا فِيهَا؛ لَكُنَّا فِي أَرْغَدِ عَيْشٍ وَأَتَمِّ نِعْمَةٍ! وَلَكِنَّ إِبْلِيسَ - عَلَيْهِ لَعَائِنُ اللهِ - احْتَالَ بِمَكْرِهِ وَخِدَاعِهِ عَلَى أَبَوَيْنَا حَتَّى أَخْرَجَهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى دَارِ الشَّقَاءِ وَالتَّعَبِ!!.

وَحِينَئِذٍ حَكَمَ اللهُ - تَعَالَى - أَنَّ جَنَّتَهُ لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ إِلَّا بَعْدَ الِابْتِلَاءِ بِالشَّدَائِدِ وَصُعُوبَةِ التَّكَالِيفِ!.

فَعَلَى الْعَاقِلِ مِنَّا - مَعَاشِرَ بَنِي آدَمَ - أَنْ يَتَصَوَّرَ الْوَاقِعَ وَيَعْلَمَ أَنَّنَا فِي الْحَقِيقَةِ سَبْيٌ سَبَاهُ إِبْلِيسُ بِمَكْرِهِ وَخِدَاعِهِ مِنْ وَطَنِهِ الْكَرِيمِ إِلَى دَارِ الشَّقَاءِ وَالْبَلَاءِ! فَيُجَاهِدُ عَدُوَّهُ إِبْلِيسَ وَنَفْسَهُ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْوَطَنِ الْأَوَّلِ الْكَرِيمِ، كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ:

وَلَكِنَّنَا سَبْيُ الْعَدُوِّ فَهَلْ تَرَى ... نُرَدُّ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلِّمُ؟

وَلِهَذِهِ الْحِكْمَةِ أَكْثَرَ اللهُ - تَعَالَى - فِي كِتَابِهِ مِنْ ذِكْرِ قِصَّةِ إِبْلِيسَ مَعَ آدَمَ؛ لِتَكُونَ نُصْبَ أَعْيُنِنَا دَائِمًا اهـ.

وَإِنَّمَا قِيلَ: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾؛ لِأَنَّ قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِمَّنْ لَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا، كَانُوا يَتَمَنَّوْنَ قَبْلَ أُحُدٍ يَوْمًا مِثْلَ يَوْمِ بَدْرٍ! فَيُبْلُوا اللهَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ خَيْرًا، وَيَنَالُوا مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ مَا نَالَ أَهْلُ بَدْرٍ؛ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ فَرَّ بَعْضُهُمْ، وَصَبَرَ بَعْضُهُمْ حَتَّى أَوْفَى بِمَا كَانَ عَاهَدَ اللهَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَعَاتَبَ اللهُ مَنْ فَرَّ مِنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾الْآيَةَ، وَأَثْنَى عَلَى الصَّابِرِينَ مِنْهُمْ وَالْمُوفِينَ بِعَهْدِهِمْ.

١٤٤- ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ[١٥٦] إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾يَعْنِي: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ كَبَعْضِ رُسُلِ اللهِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ إِلَى خَلْقِهِ، دَاعِيًا إِلَى اللهِ وَإِلَى طَاعَتِهِ، الَّذِينَ حِينَ انْقَضَتْ آجَالُهُمْ مَاتُوا وَقَبَضَهُمُ اللهُ إِلَيْهِ.

يَقُولُ جَلَّ ثناؤُهُ: فَمُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِنَّمَا هُوَ فِيمَا اللهُ بِهِ صَانِعٌ مِنْ قَبْضِهِ إِلَيْهِ عِنْدَ انْقِضَاءِ مُدَّةِ أَجَلِهِ، كَسَائِرِ رُسُلِهِ إِلَى خَلْقِهِ الَّذِينَ مَضَوْا قَبْلَهُ، وَمَاتُوا عِنْدَ انْقِضَاءِ مُدَّةِ آجَالِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُعَاتِبَهُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْهَلَعِ وَالْجَزَعِ حِينَ قِيلَ لَهُمْ بِأُحُدٍ: إِنَّ مُحَمَّدًا قُتِلَ! وَمُقَبِّحًا إِلَيْهِمُ انْصِرَافَ مَنِ انْصَرَفَ مِنْهُمْ عَنْ عَدُوِّهِمْ وَانْهِزَامَهُ عَنْهُمْ: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ﴾ مُحَمَّدٌ – أَيُّهَا الْقَوْمُ – لِانْقِضَاءِ مُدَّةِ أَجَلِهِ، أَوْ قَتَلَهُ عَدُوٌّ، ﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ يَعْنِي: ارْتَدَدْتُمْ عَنْ دِينِكُمُ الَّذِي بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا بِالدُّعَاءِ إِلَيْهِ، وَرَجَعْتُمْ عَنْهُ كُفَّارًا بِاللهِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِهِ، وَبَعْدَ مَا قَدْ وَضَحَتْ لَكُمْ صِحَّةُ مَا دَعَاكُمْ مُحَمَّدٌ إِلَيْهِ، وَحَقِيقَةُ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ!.

---

[١٥٦] مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، هُوَ أَبُو الْقَاسِمِ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لؤَيّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ.

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد؛ وغيرهم].

﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾يَعْنِي: وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ وَيَرْجِعْ كَافِرًا بَعْدَ إِيمَانِهِ، ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا﴾يَقُولُ: فَلَنْ يُوهِنَ ذَلِكَ عَزَّةَ اللهِ وَلَا سُلْطَانَهُ، وَلَا يَدْخُلَ بِذَلِكَ نَقْصٌ فِي مُلْكِهِ، بَلْ نَفْسَهُ يَضُرُّ بِرِدَّتِهِ، وَحَظَّ نَفْسِهِ يُنْقِصُ بِكُفْرِهِ!.

﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾يَقُولُ: وَسَيُثِيبُ اللهُ مَنْ شَكَرَهُ عَلَى تَوْفِيقِهِ وَهِدَايَتِهِ إِيَّاهُ لِدِينِهِ، بِثُبُوتِهِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِنْ هُوَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ، وَاسْتِقَامَتِهِ عَلَى مِنْهَاجِهِ، وَتَمَسُّكِهِ بِدِينِهِ وَمِلَّتِهِ بَعْدَهُ.[١٥٧]

١٤٥– ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾يَعْنِي: وَمَا يَمُوتُ مُحَمَّدٌ وَلَا غَيْرُهُ مِنْ خَلْقِ اللهِ إِلَّا بَعْدَ بُلُوغِ أَجَلِهِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ غَايَةً لِحَيَاتِهِ وَبَقَائِهِ، فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ مِنَ الْأَجَلِ الَّذِي كَتَبَهُ اللهُ لَهُ، وَأَذِنَ لَهُ بِالْمَوْتِ؛ فَحِينَئِذٍ يَمُوتُ! فَأَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ: فَلَنْ يَمُوتَ بِكَيْدِ كَائِدٍ، وَلَا بِحِيلَةِ مُحْتَالٍ!!.

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾يَعْنِي: مَنْ يُرِدْ مِنْكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – بِعَمَلِهِ جَزَاءً مِنْهُ بَعْضَ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا، دُونَ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْكَرَامَةِ لِمَنِ ابْتَغَى بِعَمَلِهِ مَا عِنْدَهُ ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾يَقُولُ: نُعْطِهِ مِنْهَا، يَعْنِي: مِنَ الدُّنْيَا، يَعْنِي: أَنَّهُ يُعْطِيهِ مِنْهَا مَا قُسِمَ لَهُ فِيهَا مِنْ رِزْقٍ أَيَّامَ حَيَاتِهِ، ثُمَّ لَا نَصِيبَ لَهُ فِي كَرَامَةِ اللهِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِمَنْ أَطَاعَهُ وَطَلَبَ مَا عِنْدَهُ فِي الْآخِرَةِ!.

---

[١٥٧] عَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – زَوْجِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ – قَالَ إِسْمَاعِيلُ: يَعْنِي بِالْعَالِيَةِ – فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –! قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ! فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَبَّلَهُ! قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لاَ يُذِيقُكَ اللهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا!! ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْحَالِفُ! عَلَى رِسْلِكَ!! فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ؛ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ اللهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ! وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ؛ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ! [ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ –، يَقُولُ:] ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾، وَقَالَ: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ**﴾، قَالَ: فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ!.
[صحيح: رواه البخاري، وأحمد – وما بين المعقوفين له –؛ وغيرهم].

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾يَقُولُ: وَمَنْ يُرِدْ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ جَزَاءً مِنْهُ ثَوَابَ الْآخِرَةِ، يَعْنِي: مَا عِنْدَ اللهِ مِنْ كَرَامَتِهِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِلْعَامِلِينَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾يَقُولُ: نُعْطِهِ مِنْهَا، يَعْنِي: مِنَ الْآخِرَةِ وَالْمَعْنَى: مِنْ كَرَامَةِ اللهِ الَّتِي خَصَّ بِهَا أَهْلَ طَاعَتِهِ فِي الْآخِرَةِ.

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾يَقُولُ: وَسَأُثِيبُ مَنْ شَكَرَ لِي مَا أَوْلَيْتُهُ مِنْ إِحْسَانِي إِلَيْهِ – بِطَاعَتِهِ إِيَّايَ، وَانْتِهَائِهِ إِلَى أَمْرِي، وَتَجَنُّبِهِ مَحَارِمِي – فِي الْآخِرَةِ مِثْلَ الَّذِي وَعَدْتُ أَوْلِيَائِي مِنَ الْكَرَامَةِ عَلَى شُكْرِهِمْ إِيَّايَ.

١٤٦– ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ﴾يَعْنِي: وَكَمْ مِنْ نَبِيٍّ ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.

اخْتَلَفَتِ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ قَوْلِهِ: ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ فَقَرَأَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنْ قُرَّاءِ الْحِجَازِ وَالْبَصْرَةِ: (قُتِلَ) بِضَمِّ الْقَافِ، وَقَرَأَهُ جَمَاعَةٌ أُخَر بِفَتْحِ الْقَافِ وَبِالْأَلِفِ.

وَأَوْلَى الْقِرَاءَتَيْنِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا بِالصَّوَابِ: قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ بِضَمِّ الْقَافِ: (قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ).[١٥٨]

وَالرِّبِّيُّونَ عِنْدَنَا: الْجَمَاعَاتُ الْكَثِيرَةُ، وَاحِدُهُمْ رِبِّيّ، وَهُمْ جَمَاعَةٌ.

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾يَعْنِي: فَمَا عَجَزُوا – لِمَا نَالَهُمْ مِنْ أَلَمِ الْجِرَاحِ الَّذِي نَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا لِقَتْلِ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ – عَنْ حَرْبِ أَعْدَاءِ اللهِ، وَلَا نَكَلُوا عَنْ جِهَادِهِمْ، ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾يَقُولُ: وَمَا ضَعُفَتْ قُوَاهُمْ لِقَتْلِ نَبِيِّهِمْ، ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾يَعْنِي: وَمَا ذَلُّوا فَيَتَخَشَّعُوا لِعَدُوِّهِمْ بِالدُّخُولِ فِي دِينِهِمْ، وَمُدَاهَنَتِهِمْ فِيهِ خِيفَةً مِنْهُمْ، وَلَكِنْ مَضَوْا قُدُمًا عَلَى بَصَائِرِهِمْ وَمِنْهَاجِ نَبِيِّهِمْ، صَبْرًا عَلَى أَمْرِ اللهِ وَأَمْرِ نَبِيِّهِمْ، وَطَاعَةً للهِ وَاتِّبَاعًا لِتَنْزِيلِهِ وَوَحْيِهِ.

﴿وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾يَقُولُ: وَاللهُ يُحِبُّ هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالَهُمْ مِنَ الصَّابِرِينَ لِأَمْرِهِ وَطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِ، لَا مَنْ فَشِلَ فَفَرَّ عَنْ عَدُوِّهِ! وَلَا مَنِ انْقَلَبَ عَلَى عَقِبَيْهِ فَذَلَّ لِعَدُوِّهِ لِأَنْ قُتِلَ نَبِيُّهُ أَوْ مَاتَ! وَلَا مَنْ دَخَلَهُ وَهَنٌ عَنْ عَدُوِّهِ، وَضَعْفٌ لِفَقْدِ نَبِيِّهِ!.

---

[١٥٨] انظُر – لِلْفَائِدَةِ – (أَضْوَاءِ الْبَيَانِ) لِلْإِمَامِ الشِّنْقِيطِيِّ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ، فَاحْرِصْ عَلَى قِرَاءَتِهِ؛ فَإِنَّهُ نَفِيسٌ مُهِمٌّ!.

١٤٧- ﴿وَما كَانَ قَوْلَهُمْ﴾يَعْنِي: وَما كَانَ قَوْلَ الرِّبِّيِّينَ، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾يَعْنِي: مَا كَانَ لَهُمْ قَوْلٌ سِوَى هَذَا الْقَوْلِ - إِذْ قُتِلَ نَبِيُّهُمْ -: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾يَقُولُ: لَمْ يَعْتَصِمُوا - إِذْ قُتِلَ نَبِيُّهُمْ - إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ، وَمُجَاهَدَةِ عَدُوِّهِمْ، وَبِمَسْأَلَةِ رَبِّهِمُ الْمَغْفِرَةَ وَالنَّصْرَ عَلَى عَدُوِّهِمْ.

وَمَعْنَى الْكَلَامِ: ﴿وَما كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾.

﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾الْإِسْرَافُ: الْإِفْرَاطُ فِي الشَّيْءِ، يُقَالُ مِنْهُ: أَسْرَفَ فُلَانٌ فِي هَذَا الْأَمْرِ: إِذَا تَجَاوَزَ مِقْدَارَهُ فَأَفْرَطَ. وَمَعْنَاهُ هَاهُنَا: اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا: الصِّغَارَ مِنْهَا، وَمَا أَسْرَفْنَا فِيهِ مِنْهَا فَتَخَطَّيْنَا إِلَى الْعِظَامِ!. وَكَانَ مَعْنَى الْكَلَامِ: اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، الصَّغَائِرَ مِنْهَا وَالْكَبَائِرَ.

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾يَقُولُ: اجْعَلْنَا مِمَّنْ يَثْبُتُ لِحَرْبِ عَدُوِّكَ وَقِتَالِهِمْ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِمَّنْ يَنْهَزِمُ فَيَفِرَّ مِنْهُمْ وَلَا يَثْبُتُ قَدَمُهُ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ لِحَرْبِهِمْ.

﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾يَقُولُ: وَانْصُرْنَا عَلَى الَّذِينَ جَحَدُوا وَحْدَانِيَّتَكَ وَنُبُوَّةَ نَبِيِّكَ.

١٤٨- ﴿فَآتَاهُمُ اللهُ﴾يَعْنِي: فَأَعْطَى اللهُ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ، مِنَ الصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ بَعْدَ مَقْتَلِ أَنْبِيَائِهِمْ، وَعَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ فِي أُمُورِهِمْ، وَاقْتِفَائِهِمْ مَنَاهِجَ إِمَامِهِمْ عَلَى مَا أَبْلَوْا فِي اللهِ ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾يَعْنِي: جَزَاء فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ: النَّصْرُ عَلَى عَدُوِّهِمْ وَعَدُوِّ اللهِ، وَالظَّفَرُ، وَالْفَتْحُ عَلَيْهِمْ، وَالتَّمْكِينُ لَهُمْ فِي الْبِلَادِ؛ ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾يَعْنِي: وَخَيْرَ جَزَاءِ الْآخِرَةِ عَلَى مَا أَسْلَفُوا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ، وَذَلِكَ: الْجَنَّةُ وَنَعِيمُهَا!.

﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾يَقُولُ: فَعَلَ اللهُ ذَلِكَ بِهِمْ بِإِحْسَانِهِمْ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ؛ وَهُمُ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ الَّذِي وَصَفَ عَنْهُمْ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - أَنَّهُمْ فَعَلُوهُ حِينَ قُتِلَ نَبِيُّهُمْ.

١٤٩- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾يَعْنِي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللهَ وَرَسُولَهُ فِي وَعْدِ اللهِ وَوَعِيدِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾يَعْنِي: الَّذِينَ جَحَدُوا نُبُوَّةَ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى - فِيمَا يَأْمُرُونَكُمْ بِهِ وَفِيمَا يَنْهَوْنَكُمْ عَنْهُ - فَتَقْبَلُوا رَأْيَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَتَنْتَصِحُوهُمْ فِيمَا تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَكُمْ فِيهِ نَاصِحُونَ؛ ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾يَقُولُ: يَحْمِلُوكُمْ عَلَى الرِّدَّةِ بَعْدَ الْإِيمَانِ! وَالْكُفْرِ بِاللهِ وَآيَاتِهِ وَبِرَسُولِهِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ!!.

﴿فَتَنْقَلِبُوا﴾يَقُولُ: فَتَرْجِعُوا عَنْ إِيمَانِكُمْ وَدِينِكُمُ الَّذِي هَدَاكُمُ اللهُ لَهُ﴿خَاسِرِينَ﴾يَعْنِي: هَالِكِينَ؛ قَدْ خَسِرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ، وَضَلَلْتُمْ عَنْ دِينِكُمْ، وَذَهَبَتْ دُنْيَاكُمْ وَآخِرَتُكُمْ!!.

يَنْهَى بِذَلِكَ أَهْلَ الْإِيمَانِ بِاللهِ أَنْ يُطِيعُوا أَهْلَ الْكُفْرِ فِي آرَائِهِمْ، وَيَنْتَصِحُوهُمْ فِي أَدْيَانِهِمْ.

١٥٠- ﴿بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ﴾يَعْنِي: وَلِيُّكُمْ وَنَاصِرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾؛ لَا مَنْ فَرَرْتُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْيَهُودِ وَأَهْلِ الْكُفْرِ بِاللهِ!.

فَبِاللهِ الَّذِي هُوَ نَاصِرُكُمْ وَمَوْلَاكُمْ فَاعْتَصِمُوا! وَإِيَّاهُ فَاسْتَنْصِرُوا، دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ يَبْغِيكُمُ الْغَوَائِلَ، وَيَرْصُدُكُمْ بِالْمَكَارِهِ!!.

١٥١- ﴿سَنُلْقِي﴾يَعْنِي: سَيُلْقِي اللهُ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - ﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِرَبِّهِمْ، وَجَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِمَّنْ حَارَبَكُمْ بِأُحُدٍ ﴿الرُّعْبَ[١٥٩]﴾ - وَهُوَ الْجَزَعُ وَالْهَلَعُ - ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾يَعْنِي: بِشِرْكِهِمْ بِاللهِ وَعِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ، وَطَاعَتِهِمُ الشَّيْطَانَ الَّتِي لَمْ أَجْعَلْ لَهُمْ بِهَا حُجَّةً؛ وَهِيَ السُّلْطَانُ الَّتِي أَخْبَرَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنَّهُ لَمْ يُنْزِلْهُ بِكُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ.

---

[١٥٩] قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ [عَلَى الْعَدُوِّ] مَسِيرَةَ شَهْرٍ!**...»[صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد].
قَالَ الْإِمَامُ السَّعْدِيُّ فِي بَهْجَةِ قُلُوبِ الْأَبْرَارِ: النَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - نُصِرَ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَهَذَا نَصْرٌ رَبَّانِيٌّ! وَجُنْدٌ مِنَ السَّمَاءِ يُعِينُ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ وَأُمَّتَهُ الْمُتَّبِعِينَ لِهَدْيِهِ، فَمَتَى كَانَ عَدُوُّهُ عَنْهُ مَسَافَةَ شَهْرٍ فَأَقَلَّ؛ فَإِنَّهُ مَرْعُوبٌ مِنْهُ! وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَصْرَ أَحَدٍ؛ أَلْقَى فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِ الرُّعْبَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**﴾.

وَهَذَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ – جَلَّ ثناؤُهُ – أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالنَّصْرِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، وَالْفَلْجِ[١٦٠] عَلَيْهِمْ؛ مَا اسْتَقَامُوا عَلَى عَهْدِهِ، وَتَمَسَّكُوا بِطَاعَتِهِ.

ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ مَا هُوَ فَاعِلٌ بِأَعْدَائِهِمْ بَعْدَ مَصِيرِهِمْ إِلَيْهِ؛ فَقَالَ – جَلَّ ثناؤُهُ –: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ يَعْنِي: وَمَرْجِعُهُمُ الَّذِي يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: النَّارُ! ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾يَقُولُ: وَبِئْسَ مُقَامُ الظَّالِمِينَ – الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِاكْتِسَابِهِمْ مَا أَوْجَبَ لَهَا عِقَابَ اللهِ – النَّارُ.

١٥٢– ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ﴾يَعْنِي: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِأُحُدٍ وَعْدَهُ الَّذِي وَعَدَهُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

وَالْوَعْدُ الَّذِي كَانَ وَعَدَهُمْ عَلَى لِسَانِهِ بِأُحُدٍ، قَوْلُهُ لِلرُّمَاةِ: «اثْبُتُوا مَكَانَكُمْ! وَلَا تَبْرَحُوا وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ هَزَمْنَاهُمْ! فَإِنَّا لَنْ نَزَالَ غَالِبِينَ مَا ثَبَتُّمْ مَكَانَكُمْ» وَكَانَ وَعَدَهُمْ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – النَّصْرَ يَوْمَئِذٍ إِنِ انْتَهَوْا إِلَى أَمْرِهِ.

عَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَلَقِينَا الْمُشْرِكِينَ، أَجْلَسَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رِجَالًا بِإِزَاءِ الرُّمَاةِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللهِ بْنَ جُبَيْرٍ – أَخَا خَوَّاتِ بْنِ جُبَيْرٍ[١٦١]–، وَقَالَ لَهُمْ: «لَا تَبْرَحُوا[١٦٢]مَكَانَكُمْ! إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا» فَلَمَّا الْتَقَى الْقَوْمُ؛ هُزِمَ الْمُشْرِكُونَ، حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ قَدْ رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ، وَبَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ! فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: الْغَنِيمَةَ! الْغَنِيمَةَ!! قَالَ عَبْدُ اللهِ: مَهْلًا! أَمَا عَلِمْتُمْ مَا عَهِدَ إِلَيْكُمْ رَسُولُ اللهِ

---

[١٦٠] (**الْفَلْجُ**): الظَّفَرُ وَالْفَوْزُ [مختار الصحاح، مادة(ف ل ج)].

[١٦١] خَوَّاتُ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ النُّعْمَانِ الْأَنْصَارِيُّ، بَدْرِيٌّ بِسَهْمِهِ، يُكْنَى: أَبَا صَالِحٍ، وَقِيلَ: أَبَا عَبْدِ اللهِ، وَقِيلَ: إِنَّهُ أَخُو عَبْدِ اللهِ بْنِ جُبَيْرٍ الْمُؤَمَّرِ عَلَى الرُّمَاةِ يَوْمَ أُحُدٍ، بَعَثَهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – سَرِيَّةً وَحْدَهُ، تُوُفِّيَ (بِالْمَدِينَةِ) سَنَةَ أَرْبَعِينَ، وَلَهُ أَرْبَعٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً [معرفة الصحابة؛ لأبي نعيم].

[١٦٢] قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ: بَرِحَ الشَّيْءُ يَبْرَحُ بَرَاحًا: زَالَ مِنْ مَكَانِهِ.

– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؟! فَأَبَوْا!! فَانْطَلَقُوا، فَلَمَّا أَتَوْهُمْ؛ صَرَفَ اللهُ وُجُوهَهُمْ[١٦٣]، فَأُصِيبَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبْعُونَ قَتِيلًا!!.[١٦٤]

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾يَعْنِي: وَلَقَدْ وَفَى اللهُ – لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِمَا وَعَدَكُمْ مِنَ النَّصْرِ عَلَى عَدُوِّكُمْ بِأُحُدٍ، حِينَ (تَحُسُّونَهُمْ)يَعْنِي: حِينَ تَقْتُلُونَهُمْ، يُقَالُ مِنْهُ: حَسَّهُ يَحُسُّهُ حَسًّا: إِذَا قَتَلَهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿بِإِذْنِهِ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: بِحُكْمِي وَقَضَائِي لَكُمْ بِذَلِكَ، وَتَسْلِيطِي إِيَّاكُمْ عَلَيْهِمْ.

﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾يَعْنِي: حَتَّى إِذَا جَبُنْتُمْ وَضَعُفْتُمْ، ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾يَقُولُ: وَاخْتَلَفْتُمْ فِي أَمْرِ اللهِ، يَقُولُ: ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ وَخَالَفْتُمْ نَبِيَّكُمْ، فَتَرَكْتُمْ أَمْرَهُ وَمَا عَهِدَ إِلَيْكُمْ.

وَإِنَّمَا يَعْنِي بِذَلِكَ: الرُّمَاةَ الَّذِينَ كَانَ أَمَرَهُمْ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِلُزُومِ مَرْكَزِهِمْ وَمَقْعَدِهِمْ مِنْ فَمِ الشِّعْبِ بِأُحُدٍ، بِإِزَاءِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ فُرْسَانِ الْمُشْرِكِينَ.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾يَعْنِي: مِنْ بَعْدِ الَّذِي أَرَاكُمُ اللهُ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِمُحَمَّدٍ – مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ بِالْمُشْرِكِينَ؛ وَذَلِكَ هُوَ الْهَزِيمَةُ الَّتِي كَانُوا هَزَمُوهُمْ عَنْ نِسَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ قَبْلَ تَرْكِ الرُّمَاةِ مَقَاعِدَهُمُ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَقْعَدَهُمْ فِيهَا، وَقَبْلَ خُرُوجِ خَيْلِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ.

﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾يَعْنِي: الَّذِينَ تَرَكُوا مَقْعَدَهُمُ الَّذِي أَقْعَدَهُمْ فِيهِ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الشِّعْبِ مِنْ أُحُدٍ لِخَيْلِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَحِقُوا بِعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ طَلَبَ النَّهْبِ إِذْ رَأَوْا هَزِيمَةَ الْمُشْرِكِينَ. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾يَعْنِي بِذَلِكَ: الَّذِينَ ثَبَتُوا مِنَ الرُّمَاةِ فِي مَقَاعِدِهِمُ

---

[١٦٣] (صَرَفَ اللهُ وُجُوهَهُمْ) أَيْ: تَحَيَّرُوا فَلَمْ يَدْرُوا أَيْنَ يَتَوَجَّهُونَ!.

[١٦٤] صحيح: رواه البخاري، وأحمد، وأبو داود، والنسائي في الكبرى، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم.

الَّتِي أَقْعَدَهُمْ فِيهَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَاتَّبَعُوا أَمْرَهُ، مُحَافَظَةً عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَابْتِغَاءَ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الثَّوَابِ بِذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَالدَّارَ الْآخِرَةَ.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾يَعْنِي: ثُمَّ صَرَفَكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – عَنِ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ فِيهِمْ وَفِي أَنْفُسِكُمْ – مِنْ هَزِيمَتِكُمْ إِيَّاهُمْ وَظُهُورِكُمْ عَلَيْهِمْ، فَرَدَّ وُجُوهَكُمْ عَنْهُمْ لِمَعْصِيَتِكُمْ أَمْرَ رَسُولِي، وَمُخَالَفَتِكُمْ طَاعَتَهُ، وَإِيثَارِكُمُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ – عُقُوبَةً لَكُمْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ! ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾يَقُولُ: لِيَخْتَبِرَكُمْ، فَيَتَمَيَّزَ الْمُنَافِقُ مِنْكُمْ مِنَ الْمُخْلِصِ الصَّادِقِ فِي إِيمَانِهِ مِنْكُمْ.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ[١٦٥]﴾يَعْنِي: وَلَقَدْ عَفَا اللهُ – أَيُّهَا الْمُخَالِفُونَ أَمْرَ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَالتَّارِكُونَ طَاعَتَهُ فِيمَا تَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ مِنْ لُزُومِ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَمَرَكُمْ بِلُزُومِهِ – عَنْكُمْ، فَصَفَحَ لَكُمْ مِنْ عُقُوبَةِ ذَنْبِكُمُ الَّذِي أَتَيْتُمُوهُ، عَمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا عَاقَبَكُمْ بِهِ مِنْ هَزِيمَةِ أَعْدَائِكُمْ إِيَّاكُمْ، وَصَرَفِ وُجُوهِكُمْ عَنْهُمْ، إِذْ لَمْ يَسْتَأْصِلْ جَمْعَكُمْ.

﴿وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾يَعْنِي: وَاللهُ ذُو طَوْلٍ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، بِعَفْوِهِ لَهُمْ عَنْ كَثِيرِ مَا يَسْتَوْجِبُونَ بِهِ الْعُقُوبَةَ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، فَإِنْ عَاقَبَهُمْ عَلَى بَعْضِ ذَلِكَ؛ فَذُو إِحْسَانٍ إِلَيْهِمْ بِجَمِيلِ أَيَادِيهِ عِنْدَهُمْ!.

١٥٣– ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾مَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ الْقَوْمَ حِينَ انْهَزَمُوا عَنْ عَدُوِّهِمْ أَخَذُوا فِي الْوَادِي هَارِبِينَ ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾يَعْنِي: وَلَا تَعْطِفُونَ عَلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ، وَلَا يَلْتَفِتْ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ؛ هَرَبًا مِنْ عَدُوِّكُمْ مُصْعِدِينَ فِي الْوَادِي.

---

[١٦٥] قِيلَ لِلْحَسَنِ: كَيْفَ يَعْفُو عَنْهُمْ وَقَدْ سَلَّطَ عَلَيْهِمْ أَعْدَاءَهُمْ حَتَّى قَتَلُوا مِنْهُمْ مَنْ قَتَلُوا، وَمَثَّلُوا بِهِمْ وَنَالُوا مِنْهُمْ مَا نَالُوهُ؟! فَقَالَ: لَوْلَا عَفْوُهُ عَنْهُمْ؛ لَاسْتَأْصَلَهُمْ! وَلَكِنْ بِعَفْوِهِ عَنْهُمْ دَفَعَ عَنْهُمْ عَدُوَّهُمْ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُجْمِعِينَ عَلَى اسْتِئْصَالِهِمْ![زاد المعاد؛ لابن القيم].

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾يَعْنِي: وَرَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدْعُوكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ – ﴿فِي أُخْرَاكُمْ﴾يَعْنِي: أَنَّهُ يُنَادِيكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ: إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ! إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ!!.

﴿فَأَثَابَكُمْ﴾يَعْنِي: فَجَازَاكُمْ بِفِرَارِكُمْ عَنْ نَبِيِّكُمْ، وَفَشَلِكُمْ عَنْ عَدُوِّكُمْ، وَمَعْصِيَتِكُمْ رَبَّكُمْ ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾يَقُولُ: غَمًّا عَلَى غَمٍّ؛ بِحِرْمَانِ اللهِ إِيَّاكُمْ غَنِيمَةَ الْمُشْرِكِينَ وَالظَّفَرَ بِهِمْ، وَالنَّصْرَ عَلَيْهِمْ، وَمَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ يَوْمَئِذٍ – بَعْدَ الَّذِي كَانَ قَدْ أَرَاكُمْ فِي كُلِّ ذَلِكَ مَا تُحِبُّونَ – بِمَعْصِيَتِكُمْ رَبَّكُمْ، وَخِلَافِكُمْ أَمْرَ نَبِيِّكُمْ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، غَمَّ ظَنَّكُمْ أَنَّ نَبِيَّكُمْ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَدْ قُتِلَ، وَمَيْل الْعَدُوّ عَلَيْكُمْ بَعْدَ فُلُولِكُمْ مِنْهُمْ.

﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ فَلَمْ تُدْرِكُوهُ مِمَّا كُنْتُمْ تَرْجُونَ إِدْرَاكَهُ مِنْ عَدُوِّكُمْ بِالظَّفَرِ عَلَيْهِمْ وَالظُّهُورِ، وَحِيَازَةِ غَنَائِمِهِمْ، ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ فِي أَنْفُسِكُمْ، مِنْ جَرْحِ مَنْ جُرِحَ وَقَتْلِ مَنْ قُتِلَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ.

﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾يَعْنِي: وَاللهُ بِالَّذِي تَعْمَلُونَ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – مِنْ إِصْعَادِكُمْ فِي الْوَادِي هَرَبًا مِنْ عَدُوِّكُمْ، وَانْهِزَامِكُمْ مِنْهُمْ، وَتَرْكِكُمْ نَبِيَّكُمْ وَهُوَ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ، وَحُزْنِكُمْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَمَا أَصَابَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ – ذُو خِبْرَةٍ وَعِلْمٍ، وَهُوَ مُحْصٍ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَيْكُمْ، حَتَّى يُجَازِيَكُمْ بِهِ: الْمُحْسِنَ مِنْكُمْ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، أَوْ يَعْفُو عَنْهُ.

١٥٤– ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا﴾ يَعْنِي: ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ الَّذِي أَثَابَكُمْ رَبُّكُمْ بَعْدَ غَمٍّ يَقْدُمُهُ قَبْلَهُ ﴿أَمَنَة﴾؛ وَهِيَ الْأَمَانُ عَلَى أَهْلِ الْإِخْلَاصِ مِنْكُمْ وَالْيَقِينِ، دُونَ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالشَّكِّ .

ثُمَّ بَيَّنَ – جَلَّ ثناؤُهُ – عَنِ الْأَمَنَةِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَيْهِمْ، مَا هِيَ؟ فَقَالَ: ﴿نُعَاسًا﴾.

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ، حَدَّثَهُمْ: أَنَّهُ كَانَ يَوْمَئِذٍ مِمَّنْ غَشِيَهُ النُّعَاسُ، قَالَ: فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَآخُذُهُ! وَيَسْقُطُ وَآخُذُهُ وَيَسْقُطُ!!.[١٦٦]

﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ[١٦٧]وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ يَعْنِي: وَطَائِفَةٌ مِنْكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ.

يَقُولُ: هُمُ الْمُنَافِقُونَ لَا هَمَّ لَهُمْ غَيْرُ أَنْفُسِهِمْ، فَهُمْ مِنْ حَذَرِ الْقَتْلِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَخَوْفِ الْمَنِيَّةِ عَلَيْهَا فِي شُغْلٍ، قَدْ طَارَ عَنْ أَعْيُنِهِمُ الْكَرَى![١٦٨] يَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَ الْكَاذِبَةَ، ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ بِاللهِ، شَكًّا فِي أَمْرِ اللهِ، وَتَكْذِيبًا لِنَبِيِّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَمَحْسَبَةً مِنْهُمْ أَنَّ اللهَ خَاذِلٌ نَبِيَّهُ وَمُعْلٍ عَلَيْهِ أَهْلَ الْكُفْرِ بِهِ! يَقُولُونَ: هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ؟.

عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى: الْمُنَافِقُونَ، لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، أَجْبَنُ قَوْمٍ وَأَرْعَبُهُ وَأَخْذَلُهُ لِلْحَقِّ! يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظُنُونًا كَاذِبَةً، إِنَّمَا هُمْ أَهْلُ شَكٍّ وَرِيبَةٍ فِي أَمْرِ اللهِ.[١٦٩]

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾يَعْنِي بِذَلِكَ: الطَّائِفَةَ الْمُنَافِقَةَ الَّتِي قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ، يَقُولُونَ: لَيْسَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ!.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ مُبْتَدَأٌ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –، يَقُولُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: قُلْ – يَا مُحَمَّدُ – لِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، يَصْرِفُهُ كَيْفَ يَشَاءُ وَيُدَبِّرُهُ كَيْفَ يُحِبُّ.

---

[١٦٦] صحيح: رواه البخاري، والترمذي؛ وغيرهما.

[١٦٧] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** ﴿**يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ**﴾يَعْنِي: أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ وَالثَّبَاتِ وَالتَّوَكُّلِ الصَّادِقِ؛ وَهُمُ الْجَازِمُونَ بِأَنَّ اللهَ سَيَنْصُرُ رَسُولَهُ وَيُنْجِزُ لَهُ مَأْمُولَهُ.

[١٦٨] (**الْكَرَى**): النُّعَاسُ.

[١٦٩] صحيح: رواه الترمذي، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الدلائل؛ وصححه الألباني في صحيح الترمذي(٣٠٠٨)، والتعليقات الحسان(٧١٣٦).

ثُمَّ عَادَ إِلَى الْخَبَرِ عَنْ ذِكْرِ نِفَاقِ الْمُنَافِقِينَ، فَقَالَ: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ يَقُولُ: يُخْفِي – يَا مُحَمَّدُ – هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ – الَّذِينَ وَصَفْتُ لَكَ صِفَتَهُمْ – فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالشَّكِّ فِي اللهِ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ.

ثُمَّ أَظْهَرَ نَبِيَّهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَى مَا كَانُوا يُخْفُونَهُ بَيْنَهُمْ مِنْ نِفَاقِهِمْ، وَالْحَسْرَةِ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ عَلَى حُضُورِهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ مَشْهَدَهُمْ بِأُحُدٍ، فَقَالَ – مُخْبِرًا عَنْ قِيلِهِمُ الْكُفْرَ وَإِعْلَانِهِمُ النِّفَاقَ بَيْنَهُمْ –: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ يَعْنِي: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ، يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ الْخُرُوجُ إِلَى حَرْبِ مَنْ خَرَجْنَا لِحَرْبِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَيْنَا؛ مَا خَرَجْنَا إِلَيْهِمْ! وَلَا قُتِلَ مِنَّا أَحَدٌ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي قُتِلُوا فِيهِ بِأُحُدٍ!!.

﴿قُلْ﴾ – يَا مُحَمَّدُ – لِلَّذِينَ وَصَفْتُ لَكَ صِفَتَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: ﴿لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ لَمْ تَشْهَدُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَشْهَدَهُمْ، وَلَمْ تَحْضُرُوا مَعَهُمْ حَرْبَ أَعْدَائِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَيَظْهَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ مَا كُنْتُمْ تُخْفُونَهُ مِنْ نِفَاقِكُمْ، وَتَكْتُمُونَهُ مِنْ شَكِّكُمْ فِي دِينِكُمْ؛ ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ يَقُولُ: لَظَهَرَ لِلْمَوْضِعِ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِ مَصْرَعُهُ فِيهِ، مَنْ قَدْ كُتِبَ عَلَيْهِ الْقَتْلُ مِنْهُمْ، وَلَخَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يُصْرَعَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِ أَنْ يُصْرَعَ فِيهِ!.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ يَعْنِي: وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ – أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ – كُنْتُمْ تَبْرُزُونَ مِنْ بُيُوتِكُمْ إِلَى مَضَاجِعِكُمْ.

وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: وَلِيُخْتَبِرَ اللهُ الَّذِي فِي صُدُورِكُمْ مِنَ الشَّكِّ، فَيُمَيِّزُكُمْ – بِمَا يُظْهِرُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ نِفَاقِكُمْ – مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يَقُولُ: وَلِيَتَبَيَّنُوا مَا فِي قُلُوبِكُمْ مِنَ الِاعْتِقَادِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْعَدَاوَةِ أَوِ الْوَلَايَةِ.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾يَقُولُ: وَاللهُ ذُو عِلْمٍ بِالَّذِي فِي صُدُورِ خَلْقِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَإِيمَانٍ وَكُفْرٍ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِهِمْ، سَرَائِرِهَا وَعَلَانِيَتِهَا، وَهُوَ لِجَمِيعِ ذَلِكَ حَافِظٌ، حَتَّى يُجَازِيَ جَمِيعَهُمْ جَزَاءَهُمْ عَلَى قَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِمْ!.

١٥٥- ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ[١٧٠]﴾يَعْنِي: إِنَّ الَّذِينَ وَلَّوْا عَنِ الْمُشْرِكِينَ، مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَوْمَ أُحُدٍ وَانْهَزَمُوا عَنْهُمْ، ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾يَعْنِي: يَوْمَ الْتَقَى جَمْعُ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُسْلِمِينَ بِأُحُدٍ، ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾أَيْ: إِنَّمَا دَعَاهُمْ إِلَى الزَّلَّةِ الشَّيْطَانُ ، ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾يَعْنِي: بِبَعْضِ مَا عَمِلُوا مِنَ الذُّنُوبِ.

---

[١٧٠] الَّذِينَ تَوَلَّوْا يَوْمَ أُحُدٍ هُمْ أَكْثَرُ الْجَيْشِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا.

مِنْ مَنَاقِبِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَلَعَنَ اللهُ مُبْغِضِيهِ وَمُعَادِيهِ! –!!

عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَوْهَبٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ (مِصْرَ) حَجَّ الْبَيْتَ(!) فَرَأَى قَوْمًا جُلُوسًا، فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ؟ فَقَالُوا: هَؤُلَاءِ قُرَيْشٌ، قَالَ: فَمَنِ الشَّيْخُ فِيهِمْ؟ قَالُوا: عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ! إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ شَيْءٍ فَحَدِّثْنِي، هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ عُثْمَانَ فَرَّ يَوْمَ أُحُدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَدْرٍ وَلَمْ يَشْهَدْ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ فَلَمْ يَشْهَدْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ! قَالَ: ابْنُ عُمَرَ: تَعَالَ أُبَيِّنْ لَكَ، (وَفِي رِوَايَةٍ: تَعَالَ لِأُخْبِرَكَ وَلِأُبَيِّنَ لَكَ عَمَّا سَأَلْتَنِي عَنْهُ): أَمَّا فِرَارُهُ يَوْمَ أُحُدٍ؛ فَأَشْهَدُ أَنَّ اللهَ عَفَا عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَدْرٍ؛ فَإِنَّهُ كَانَتْ تَحْتَهُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَكَانَتْ مَرِيضَةً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا، وَسَهْمَهُ**»، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ؛ فَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَعَزَّ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ عُثْمَانَ؛ لَبَعَثَهُ مَكَانَهُ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عُثْمَانَ وَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِيَدِهِ الْيُمْنَى: «**هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ**»، فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ، فَقَالَ: «**هَذِهِ لِعُثْمَانَ**»، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: اذْهَبْ [بِهَذَا] الْآنَ مَعَكَ[صحيح: رواه البخاري، وأحمد، والترمذي].

قُلْتُ: هَذَا الرَّجُلُ – السَّائِلُ – مِنَ الْخَوَارِجِ! وَقَوْلُ هَذَا الْخَارِجِيِّ: (اللهُ أَكْبَرُ) يَعْنِي: أَنَّهُ انْتَصَرَ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا سَأَلَ هَذِهِ الْأَسْئِلَةَ لِيَقْدَحَ فِي عُثْمَانَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، وَقَوْلُ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –: (اذْهَبْ بِهَذَا الْآنَ مَعَكَ) يَعْنِي: أَنْتَ الْآنَ جِئْتَ تُرِيدُ أَنْ تَقْدَحَ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَصَارَ – الْآنَ – الْقَدْحُ – وَللهِ الْحَمْدُ – مَدْحًا!! [مستفاد من تفسير الإمام العلامة محمد ابن عثيمين، سورة آل عمران الآية(١٥٢)].

قَالَ الطِّيبِيُّ: فَلَمَّا نَقَضَ ابْنُ عُمَرَ كُلَّ وَاحِدٍ مِمَّا بَنَاهُ وَأَقْلَعَهُ مِنْ أَصْلِهِ؛ قَالَ تَهَكُّمًا: اذْهَبْ بِهَا، أَيْ: بِمَا جِئْتَ وَتَمَسَّكْتَ بِهِ بَعْدَمَا بَيَّنْتُ لَكَ الْحَقَّ الْمَحْضَ الَّذِي لَا يُرْتَابُ فِيهِ!! اهـ. وَالْمَعْنَى: لَا يَنْفَعُكَ اعْتِقَادُكَ الْفَاسِدُ فِي عُثْمَانَ بَعْدَمَا بَيَّنْتُ لَكَ الْحَقَّ الصَّرِيحَ بِالْجَوَابِ الصَّحِيحِ!! [مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح؛ لعلي القاري].

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ﴾يَعْنِي: وَلَقَدْ تَجَاوَزَ اللهُ عَنِ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ، أَنْ يُعَاقِبَهُمْ بِتَوَلِّيهِمْ عَنْ عَدُوِّهِمْ.

﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾يَعْنِي: مُغَطٍّ عَلَى ذُنُوبِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَ رَسُولَهُ بِعَفْوِهِ عَنْ عُقُوبَتِهِ إِيَّاهُمْ عَلَيْهَا.

﴿حَلِيمٌ﴾يَعْنِي: أَنَّهُ ذُو أَنَاةٍ، لَا يُعَجِّلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ بِالنِّقْمَةِ.

١٥٦- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾يَعْنِي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، وَأَقَرُّوا بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ، لَا تَكُونُوا كَمَنْ كَفَرَ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، فَجَحَدَ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَقَالَ لِإِخْوَانِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ[١٧١]﴾فَخَرَجُوا مِنْ بِلَادِهِمْ سَفَرًا فِي تِجَارَةٍ، ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى[١٧٢]﴾يَقُولُ: أَوْ كَانَ خُرُوجُهُمْ مِنْ بِلَادِهِمْ غُزَاةً فَهَلَكُوا فَمَاتُوا فِي سَفَرِهِمْ، أَوْ قُتِلُوا فِي غَزْوِهِمْ؛ ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾يُخْبِرُ بِذَلِكَ عَنْ قَوْلِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِمَنْ غَزَا مِنْهُمْ فَقُتِلَ، أَوْ مَاتَ فِي سَفَرٍ خَرَجَ فِيهِ فِي طَاعَةِ اللهِ، أَوْ تِجَارَةٍ: لَوْ لَمْ يَكُونُوا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِنَا، وَكَانُوا أَقَامُوا فِي بِلَادِهِمْ؛ مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا!!.[١٧٣]

﴿لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾يَعْنِي: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ؛ كَيْ يَجْعَلَ اللهُ قَوْلَهُمْ ذَلِكَ حُزْنًا فِي قُلُوبِهِمْ وَغَمًّا! وَيَجْهَلُونَ أَنَّ ذَلِكَ إِلَى اللهِ – جَلَّ ثناؤُهُ – وَبِيَدِهِ!.

---

[١٧١] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَصْلُ الضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ: الْإِبْعَادُ فِيهَا سَيْرًا.

[١٧٢] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَالْغُزَّى: جَمْعُ غَازٍ، جُمِعَ عَلَى (فُعَّلٍ) كَمَا يُجْمَعُ شَاهِدٌ: شُهَّدٍ، وَقَائِلٌ: قُوَّلٍ.

[١٧٣] فَالْكَافِرُ لَوْ خَرَجَ ابْنُهُ فِي سَفَرٍ لِعَمَلٍ أَوْ غَزْوٍ فَمَاتَ؛ لَظَلَّ يَتَحَسَّر، وَيَقُولُ: لَوْ أَنَّهُ سَمِعَ كَلَامِي وَلَمْ يَخْرُجْ! لَوْ أَنَّهُ شُغِلَ بِمَصْلَحَةٍ أُخْرَى! لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُلِ الْجَيْشَ! لَوْ كَانَ كَذَا لَمَا كَانَ قُتِلَ!! لِأَنَّ الْكَافِرَ لَا يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ، فَتَظَلّ الْحَسْرَة فِي قَلْبِهِ كُلَّمَا تَذَكَّرَ وَلَدهُ!! فَنَهَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ ذَلِكَ؛ إِذْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالْقَدَرِ: بِأَنَ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: [لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا!]، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**» [صحيح: رواه مسلم، واحمد، وابن ماجة – وما بين المعقوفين له –؛ وغيرهم].

﴿وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾يَعْنِي: وَاللهُ الْمُعَجِّلُ الْمَوْتَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ حَيْثُ يَشَاءُ! وَالْمُمِيتُ مَنْ يَشَاءُ كُلَّمَا شَاءَ، دُونَ غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ خَلْقِهِ!.

وَهَذَا مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – تَرْغِيبٌ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِ وَالصَّبْرِ عَلَى قِتَالِهِمْ، وَإِخْرَاجِ هَيْبَتِهِمْ مِنْ صُدُورِهِمْ، وَإِنْ قُلَّ عَدَدُهُمْ وَكَثُرَ عَدَدُ أَعْدَائِهِمْ وَأَعْدَاءِ اللهِ.

وَإِعْلَامٌ مِنْهُ لَهُمْ أَنَّ الإِمَاتَةَ وَالْإِحْيَاءَ بِيَدِهِ! وَأَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ أَحَدٌ وَلَا يُقْتَلُ إِلَّا بَعْدَ فَنَاءِ أَجَلِهِ الَّذِي كُتِبَ لَهُ!.

وَنَهْيٌ مِنْهُ لَهُمْ – إِذْ كَانَ كَذَلِكَ – أَنْ يَجْزَعُوا لِمَوْتِ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ أَوْ قَتْلِ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ فِي حَرْبِ الْمُشْرِكِينَ!.

ثُمَّ قَالَ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾يَقُولُ: إِنَّ اللهَ يَرَى مَا تَعْمَلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فَاتَّقُوهُ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، فَإِنَّهُ مُحْصٍ ذَلِكَ كُلَّهُ، حَتَّى يُجَازِيَ كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ عَلَى قَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِ.

١٥٧- ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ[١٧٤]﴾

يُخَاطِبُ – جَلَّ ثناؤُهُ – عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، يَقُولُ لَهُمْ: لَا تَكُونُوا – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – فِي شَكٍّ مِنْ

---

[١٧٤] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَرَّ بِشِعْبٍ فِيهِ عَيْنٌ عَذْبَةٌ، قَالَ: فَأَعْجَبَهُ [طِيبُهُ وَحُسْنُهُ]، فَقَالَ: لَوِ[اعْتَزَلْتُ النَّاسَ، وَ]أَقَمْتُ هَاهُنَا وَخَلَوْتُ! ثُمَّ قَالَ: لَا[أَفْعَلُ]؛ حَتَّى أَسْأَلَ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَسَأَلَهُ؟ فَقَالَ: «**[لَا تَفْعَلْ! فَإِنَّ مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ]؛ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ أَحَدِكُمْ فِي أَهْلِهِ سِتِّينَ سَنَةً! أَمَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ، وَتَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ؛ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ!**»[حسن: رواه أحمد ، والترمذي، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي – وما بين المعقوفين له –، وحسنه الألباني في الصحيحة(٩٠٢)، وصحيح الجامع(٧٣٧٩)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٣٠١)].

وَعَنْهُ أَيْضًا – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي؛ فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ: لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ مِسْكٌ!! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ؛ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ أَبَدًا! وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ! ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ! ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ!!**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم – واللفظ له –، واحمد، والنسائي، وابن ماجة؛ وغيرهم].

أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِيَدِ اللهِ، وَأَنَّ إِلَيْهِ الْإِحْيَاءَ وَالْإِمَاتَةَ، كَمَا شَكَّ الْمُنَافِقُونَ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنْ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَاتِلُوا أَعْدَاءَ اللهِ، عَلَى يَقِينٍ مِنْكُمْ بِأَنَّهُ لَا يُقْتَلُ فِي حَرْبٍ وَلَا يَمُوتُ فِي سَفَرٍ؛ إِلَّا مَنْ بَلَغَ أَجَلَهُ وَحَانَتْ وَفَاتهُ!.

ثُمَّ وَعَدَهُمْ عَلَى جِهَادِهِمْ فِي سَبِيلِهِ الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ مَوْتًا فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَتْلًا فِي اللهِ؛ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا يَجْمَعُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ حُطَامِهَا وَرَغِيدِ عَيْشِهَا الَّذِي مِنْ أَجَلِهِ يَتَثَاقَلُونَ عَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَيَتَأَخَّرُونَ عَنْ لِقَاءِ الْعَدُوِّ!!.

١٥٨- ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾يَعْنِي: وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ -؛ فَإِنَّ إِلَى اللهِ مَرْجِعَكُمْ وَمَحْشَرَكُمْ، فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، فَآثِرُوا مَا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ اللهِ وَيُوجِبُ لَكُمْ رِضَاهُ، وَيُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ؛ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ، عَلَى الرُّكُونِ إِلَى الدُّنْيَا وَمَا تَجْمَعُونَ فِيهَا مِنْ حُطَامِهَا الَّذِي هُوَ غَيْرُ بَاقٍ لَكُمْ، بَلْ هُوَ زَائِلٌ عَنْكُمْ! وَعَلَى تَرْكِ طَاعَةِ اللهِ وَالْجِهَادِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُبْعِدُكُمْ عَنْ رَبِّكُمْ، وَيُوجِبُ لَكُمْ سَخطَهُ، وَيُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ!.

١٥٩- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ﴾يَعْنِي: فَبِرَحْمَةٍ مِنَ اللهِ ﴿لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾يَعْنِي بِالْفَظِّ: الْجَافِيَ، وَبِالْغَلِيظِ الْقَلْبِ: الْقَاسِيَ الْقَلْبِ، غَيْرَ ذِي رَحْمَةٍ وَلَا رَأْفَةٍ، وَكَذَلِكَ صِفَتُهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، كَمَا وَصَفَهُ اللهُ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.[١٧٥]

---

[١٧٥] عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي التَّوْرَاةِ، فَقَالَ: أَجَلْ! وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِصِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، وَأَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَسْتَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ بِالْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ [اللهُ] حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا» [صحيح: رواه البخاري، واحمد - واللفظ له -؛ وغيرهما].

فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: فَبِرَحْمَةِ اللهِ – يَا مُحَمَّدُ – وَرَأْفَتِهِ بِكَ وَبِمَنْ آمَنَ بِكَ مِنْ أَصْحَابِكَ، ﴿لِنْتَ لَهُمْ﴾ لِتُبَّاعِكَ وَأَصْحَابِكَ فَسَهُلَتْ لَهُمْ خَلَائِقُكَ، وَحَسنت لَهُمْ أَخْلَاقك[176]، حَتَّى احْتَمَلْتَ أَذَى مَنْ نَالَكَ مِنْهُمْ أَذَاهُ[177]، وَعَفَوْتَ عَنْ ذِي الْجُرْمِ مِنْهُمْ جُرْمَهَ، وَأَغْضَيْتَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّنْ لَوْ جَفَوْتَ بِهِ وَأَغْلَظْتَ عَلَيْهِ؛ لَتَرَكَكَ فَفَارَقَكَ، وَلَمْ يَتْبَعْكَ وَلَا مَا بُعِثْتَ بِهِ مِنَ الرَّحْمَةِ! وَلَكِنَّ اللهَ رَحِمَهُمْ وَرَحِمَكَ مَعَهُمْ، فَبِرَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: لَتَفَرَّقُوا عَنْكَ.

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾يَعْنِي: فَتَجَاوَزْ – يَا مُحَمَّدُ – عَنْ تُبَّاعِكَ وَأَصْحَابِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ عِنْدِي، مَا نَالَكَ مِنْ أَذَاهُمْ وَمَكْرُوهٍ فِي نَفْسِكَ ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾وَادْعُ رَبَّكَ لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ لِمَا أَتَوْا مِنْ جُرْمٍ، وَاسْتَحَقُّوا عَلَيْهِ عُقُوبَةً مِنْهُ.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – أَمَرَ نَبِيَّهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِمُشَاوَرَةِ أَصْحَابِهِ فِيمَا حَزَبَهُ مِنْ أَمْرِ عَدُوِّهِ وَمَكَايِدِ حَرْبِهِ؛ تَأَلُّفًا مِنْهُ بِذَلِكَ مَنْ لَمْ تَكُنْ بَصِيرَتُهُ بِالْإِسْلَامِ الْبَصِيرَةَ الَّتِي يُؤْمَنُ عَلَيْهِ مَعَهَا فِتْنَةُ الشَّيْطَانِ، وَتَعْرِيفًا مِنْهُ أُمَّتَهُ مَأْتَى الْأُمُورِ الَّتِي تَحْزُبُهُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَمَطْلَبَهَا،

---

[176] **قَالَ الْإِمَامُ السَّعْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** فَالْأَخْلَاقُ الْحَسَنَةُ مِنَ الرَّئِيسِ فِي الدِّينِ، تَجْذِبُ النَّاس إِلَى دِينِ اللهِ، وَتُرَغِّبُهُمْ فِيهِ، مَعَ مَا لِصَاحِبِهِ مِنَ الْمَدْحِ وَالثَّوَابِ الْخَاصِّ، وَالْأَخْلَاقُ السَّيِّئَةُ مِنَ الرَّئِيسِ فِي الدِّينِ، تُنَفِّرُ النَّاس عَنِ الدِّينِ، وَتُبَغِّضُهُمْ إِلَيْهِ، مَعَ مَا لِصَاحِبِهَا مِنَ الذَّمِّ وَالْعِقَابِ الْخَاصِّ!. فَهَذَا الرَّسُولُ الْمَعْصُومُ يَقُولُ اللهُ لَهُ مَا يَقُولُ، فَكَيْفَ بِغَيْرِهِ؟!

أَلَيْسَ مِنْ أَوْجَبِ الْوَاجِبَاتِ، وَأَهَمِّ الْمُهِمَّاتِ؛ الِاقْتِدَاءُ بِأَخْلَاقِهِ الْكَرِيمَةِ، وَمُعَامَلَةُ النَّاسِ بِمَا يُعَامِلُهُمْ بِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: مِنَ اللِّينِ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَالتَّأْلِيفِ؛ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللهِ، وَجَذْبًا لِعِبَادِ اللهِ لِدِينِ اللهِ اهـ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَشْرَ سِنِينَ، وَاللهِ! مَا قَالَ لِي: أُفًّا قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا؟ [صحيح: رواه مسلم – واللفظ له –، واحمد؛ وغيرهما].

[177] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً!! حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ! ثُمَّ قَالَ: [يَا مُحَمَّدُ!] مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ [رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –]، فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، واحمد؛ وغيرهم].

لِيَقْتَدُوا بِهِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ النَّوَازِلِ الَّتِي تَنْزِلُ بِهِمْ، فَيَتَشَاوَرُوا[١٧٨] فِيمَا بَيْنَهُمْ، كَمَا كَانُوا يَرَوْنَهُ فِي حَيَاتِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَفْعَلُهُ.

فَأَمَّا النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَإِنَّ اللهَ كَانَ يُعَرِّفُهُ مَطَالِبَ وُجُوهِ مَا حَزَبَهُ مِنَ الْأُمُورِ بِوَحْيِهِ أَوْ إِلْهَامِهِ إِيَّاهُ صَوَابَ ذَلِكَ.

وَأَمَّا أُمَّتُهُ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا تَشَاوَرُوا مُسْتَنِّينَ بِفِعْلِهِ فِي ذَلِكَ – عَلَى تَصَادُقٍ وَتَآخٍّ لِلْحَقِّ[١٧٩] وَإِرَادَةِ جَمِيعِهِمْ لِلصَّوَابِ، مِنْ غَيْرِ مَيْلٍ إِلَى هَوًى، وَلَا حَيْدٍ عَنْ هُدًى –؛ فَاللهُ مُسَدِّدُهُمْ وَمُوَفِّقُهُمْ.

---

[١٧٨] الْمُشَاوَرَةُ: هِيَ اسْتِخْرَاجُ الرَّأْيِ؛ بِحَيْثُ يَعْرِضُ الْمُسْتَشِيرِ الرَّأْيَ عَلَى الْمُسْتَشَارِينَ لِيَسْتَخْرِجَ آرَاءَهُمْ وَيَعْلَمَ مَا عِنْدَهُمْ.
عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ –، قَالُوا: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ** !»[صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٦٧٠٠)، وانظر الصحيحة(١٦٤١)].

قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي الشَّافِي: الْحَاكِمُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُنَفِّذَ حُكْمًا ثَابِتًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ؛ لَمْ يَحْتَجْ فِيهِ إِلَى الْمُشَاوَرَةِ، وَإِنْ كَانَ حُكْمًا بِالِاجْتِهَادِ؛ فَيُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يُشَاوِرَ؛ اقْتِدَاءً بِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَمَنْ بَعْدَهُمَا مِنَ الْأَئِمَّةِ، وَلَا يُشَاوِرُ إِلَّا أَمِينًا، عَالِمًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْآثَارِ، وَأَقَاوِيلِ النَّاسِ، وَلِسَانِ الْعَرَبِ.

قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي الْأَذْكَارِ: وَاعْلَمْ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ هَمَّ بِأَمْرٍ، أَنْ يُشَاوِرَ فِيهِ مَنْ يَثِقُ بِدِينِهِ وَخِبْرَتِهِ وَحَذَقِهِ، وَنَصِيحَتِهِ وَوَرَعِهِ وَشَفَقَتِهِ. وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يُشَاوِرَ جَمَاعَةً بِالصِّفَةِ الْمَذْكُورَةِ، وَيَسْتَكْثِرَ مِنْهُمْ، وَيُعَرِّفَهُمْ مَقْصُودَهُ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ، وَيُبَيِّنَ لَهُمْ مَا فِيهِ مِنْ مَصْلَحَةٍ وَمَفْسَدَةٍ إِنْ عَلِمَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَيَتَأَكَّدُ الْأَمْرُ بِالْمُشَاوَرَةِ فِي حَقِّ وُلَاةِ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ كَالسُّلْطَانِ وَالْقَاضِي وَنَحْوِهِمَا اهـ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: وَمَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِي يُشَاوَرُ هُمْ أَهْلُ الْأَمَانَةِ وَأَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَإِنَّ وَلِيَّ الْأَمْرِ إِذَا أَشْكَلَتْ عَلَيْهِ الْمَسْأَلَةُ الشَّرْعِيَّةُ؛ يُشَاوِرُ عُلَمَاءَ الشَّرْعِ، وَإِذَا أَشْكَلَتْ عَلَيْهِ مَسْأَلَةٌ سِيَاسِيَّةٌ؛ يُشَاوِرُ عُلَمَاءَ السِّيَاسَةِ، وَإِذَا أَشْكَلَتْ عَلَيْهِ مُشْكِلَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ؛ يُشَاوِرُ عُلَمَاءَ الِاجْتِمَاعِ، وَإِذَا أَشْكَلَتْ عَلَيْهِ مَسْأَلَةٌ جِيُولُوجِيَّةٌ – وَهُوَ عِلْمٌ يَبْحَثُ وَيَدْرُسُ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ وَتَكَوُّنَهَا وَالعَوَامِلَ الْمُؤَثِّرَةَ فِيهَا وَتَارِيخَهَا –؛ يُشَاوِرُ عُلَمَاءَ الْجِيُولُوجِيَا، وَإِذَا أَشْكَلَتْ عَلَيْهِ مَسْأَلَةٌ طِبِّيَّةٌ؛ يُشَاوِرُ عُلَمَاءَ الطِّبِّ.
وَالْمُرَادُ: أَنْ يَجْعَلَ مُسْتَشَارِينَ لِكُلِّ حَالٍ مَا يُنَاسِبُهَا؛ لِأَنَّ مِنْ شَرْطِ الِاسْتِشَارَةِ: أَنْ يَكُونَ الْمُسْتَشَارُ ذَا رَأْيٍ سَدِيدٍ وَأَمَانَةٍ.
وَمَعْلُومٌ أَنَّكَ لَوِ اسْتَشَرْتَ عَالِمًا مِنْ عُلَمَاءِ الشَّرْعِ – مِنْ أَحْسَنِ الْعُلَمَاءِ – فِي مَسْأَلَةٍ طِبِّيَّةٍ؛ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَقُولَ لَكَ شَيْئًا! اهـ. بتصرف

مَسْأَلَةٌ مُهِمَّةٌ: هَلْ لِلْحَاكِمِ أَنْ يَعْزِمَ مِنَ الْحُكْمِ عَلَى غَيْرِ مَا قَالَ بِهِ مَنْ شَاوَرَهُمْ؟

الْجَوَابُ: **قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ فِي شَرْحِ الْبُخَارِيِّ**: أَنَّ لِلْمُسْتَشِيرِ وَالْحَاكِمِ أَنْ يَعْزِمَ مِنَ الْحُكْمِ عَلَى غَيْرِ مَا قَالَ بِهِ مُشَاوِره إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الرُّسُوخِ فِي الْعِلْمِ، وَأَنْ يَأْخُذَ بِمَا يَرَاهُ، كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي مَسْأَلَةِ عَائِشَةَ؛ فَإِنَّهُ شَاوَرَ عَلِيًّا وَأُسَامَةَ – فَأَشَارَ عَلَيْهِ أُسَامَةُ بِإِمْسَاكِهَا، وَأَشَارَ عَلَيْهِ عَلِيٌّ بِفِرَاقِهَا – فَلَمْ يَأْخُذْ بِقَوْلِ أَحَدِهِمَا، وَتَرَكَهَا عِنْدَ أَهْلِهَا حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ فَأَخَذَ بِهِ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: فَإِنَّهُ شَاوَرَ أَصْحَابَهُ فِي مُقَاتَلَةِ مَنْ مَنَعَ الزَّكَاةَ؛ وَأَخَذَ بِخِلَافِ مَا أَشَارُوا بِهِ عَلَيْهِ مِنْ تَرْكِ قِتَالِهِمْ اهـ.

[١٧٩] تَآخٍّ لِلْحَقِّ: تَحَرٍّ لِلْحَقِّ.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾يَعْنِي: فَإِذَا صَحَّ عَزْمُكَ بِتَثْبِيتِنَا إِيَّاكَ، وَتَسْدِيدِنَا لَكَ فِيمَا نَابَكَ وَحَزَبَكَ مِنْ أَمْرِ دِينِكَ وَدُنْيَاكَ؛ فَامْضِ لِمَا أَمَرْنَاكَ بِهِ عَلَى مَا أَمَرْنَاكَ بِهِ، وَافَقَ ذَلِكَ آرَاءَ أَصْحَابِكَ وَمَا أَشَارُوا بِهِ عَلَيْكَ، أَوْ خَالَفَهَا، وَتَوَكَّلْ – فِيمَا تَأْتِي مِنْ أُمُورِكَ وَتَدَعُ، وَتُحَاوِلُ أَوْ تُزَاوِلُ – عَلَى رَبِّكَ، فَثِقْ بِهِ فِي كُلِّ ذَلِكَ، وَارْضَ بِقَضَائِهِ فِي جَمِيعِهِ، دُونَ آرَاءِ سَائِرِ خَلْقِهِ وَمَعُونَتِهِمْ؛ فَـ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾؛ وَهُمُ الرَّاضُونَ بِقَضَائِهِ، وَالْمُسْتَسْلِمُونَ لِحُكْمِهِ فِيهِمْ، وَافَقَ ذَلِكَ مِنْهُمْ هَوًى أَوْ خَالَفَهُ.

١٦٠- ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ﴾ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ – عَلَى مَنْ نَاوَأَكُمْ وَعَادَاكُمْ مِنْ أَعْدَائِهِ وَالْكَافِرِينَ بِهِ، ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ مِنَ النَّاسِ، يَقُولُ: فَلَنْ يَغْلِبَكُمْ مَعَ نَصْرِهِ إِيَّاكُمْ أَحَدٌ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْكُمْ مَنْ بَيْنِ أَقْطَارِهَا مِنْ خَلْقِهِ! فَلَا تَهَابُوا أَعْدَاءَ اللهِ لِقِلَّةِ عَدَدِكُمْ وَكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ، مَا كُنْتُمْ عَلَى أَمْرِهِ وَاسْتَقَمْتُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، فَإِنَّ الْغَلَبَةَ لَكُمْ وَالظَّفَرَ، دُونَهُمْ.

﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ[١٨٠] فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾يَعْنِي: إِنْ يَخْذُلْكُمْ رَبُّكُمْ بِخِلَافِكُمْ أَمْرَهُ وَتَرْكِكُمْ طَاعَتَهُ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ، فَيَكِلْكُمْ إِلَى أَنْفُسِكُمْ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟!.[١٨١]

يَقُولُ: فَأَيِسُوا مِنْ نُصْرَةِ النَّاسِ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَجِدُونَ[نَاصِرًا][١٨٢]مِنْ بَعْدِ خِذْلَانِ اللهِ إِيَّاكُمْ إِنْ خَذَلَكُمْ، يَقُولُ: فَلا تَتْرُكُوا أَمْرِي وَطَاعَتِي وَطَاعَةَ رَسُولِي؛ فَتَهْلِكُوا بِخِذْلَانِي إِيَّاكُمْ!.

﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾يَعْنِي: وَلَكِنْ عَلَى رَبِّكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – فَتَوَكَّلُوا دُونَ سَائِرِ خَلْقِهِ، وَبِهِ فَارْضَوْا مِنْ جَمِيعِ مَنْ دُونَهُ، وَلِقَضَائِهِ فَاسْتَسْلِمُوا، وَجَاهِدُوا فِيهِ أَعْدَاءَهُ؛ يَكْفِكُمْ بِعَوْنِهِ، وَيُمْدِدْكُمْ بِنَصْرِهِ.

---

[١٨٠] الْخَذْلُ: تَرْكُ الْإِغَاثَةِ وَالنُّصْرَةِ، وَالْخَاذِلُ: ضِدُّ النَّاصِرِ، خَذَلَهُ يَخْذُلُهُ – بِالضَّمِّ – خِذْلَانًا – بِكَسْرِ الْخَاءِ –: تَرَكَ عَوْنَهُ وَنُصْرَتَهُ.
[مختار الصحاح، مادة(خ ذ ل)، والنهاية في غريب الحديث، ولسان العرب].
وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ: الْخَذْلُ وَالْخِذْلَانُ: هُوَ التَّرْكُ فِي مَوْضِعٍ يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى التَّارِكِ!.

[١٨١] وَالْجَوَابُ الَّذِي لَا جَوَابَ غَيْرُهُ: لَا أَحَدَ يَقْدِرُ أن يَنْصُرَكُمْ إِنْ خَذَلَكُمْ رَبُّكُمْ!.

[١٨٢] قَارِنْ بِطَبْعَةِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر.

١٦١- ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾يَعْنِي: مَا الْغُلُولُ مِنْ صِفَاتِ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا يَكُونُ نَبِيًّا مَنْ غَلَّ!.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾قَالَ: كَانَ ذَلِكَ فِي قَطِيفَةٍ حَمْرَاءَ فُقِدَتْ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، فَقَالَ أُنَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: فَلَعَلَّ النَّبِيَّ أَخَذَهَا!! فَأَنْزَلَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾.[١٨٣]

﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾يَعْنِي: وَمَنْ يَخُنْ مِنْ غَنَائِمِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا وَفَيْئِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ يَأْتِ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْمَحْشَرِ!!.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ قَامَ خَطِيبًا، فَوَعَظَ وَذَكَّرَ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا عَسَى رَجُلٌ مِنْكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ[١٨٤]، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَغِثْنِي!! فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ! أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ مِنْكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهَا حَمْحَمَةٌ[١٨٥]، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَغِثْنِي!! فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ! أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ مِنْكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ[١٨٦]، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَغِثْنِي!! فَأَقُولَ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ! أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ مِنْكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَقَرَةٌ لَهَا خُوَارٌ[١٨٧]، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَغِثْنِي!! فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ! أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ مِنْكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ[١٨٨]،

---

[١٨٣] صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، والطبراني في الكبير؛ وصححه الألباني في صحيح أبي داود(٣٩٧١)، والصحيحة(٢٧٨٨).

[١٨٤] (**الثُّغَاءُ**): صِيَاحُ الْغَنَمِ[النهاية في غريب الحديث، مادة(ثغا)]، وَقَالَ فِي الْقَامُوسِ الْمُحِيطِ: الثُّغَاءُ: صَوْتُ الْغَنَمِ وَالظِّبَاءِ وَغَيْرِهَا عِنْدَ الْوِلَادَةِ.

[١٨٥] (**الْحَمْحَمَةُ**): صَوْتُ الْفَرَسِ إِذَا طَلَبَ الْعَلَفَ؛ وَهُوَ دُونَ الصَّهِيلِ، يُقَالُ: حَمْحَمَ الفَرَسُ: رَدَّدَ صَوْتَهُ دَاخِلَ حَنْجَرَتِهِ.

[١٨٦] الصَّامِتُ مِنْ الْمَالِ: الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، خِلَافُ النَّاطِقِ، وَهُوَ الحيوانُ [النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة(صمت)، المصباح المنير، مادة(ص م ت)].

[١٨٧] الْخُوَارُ – بِالضَّمِّ –: مِنْ صَوْتِ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالظِّبَاءِ وَالسِّهَامِ [القاموس المحيط].

[١٨٨] (**رِقَاعٌ تَخْفِقُ**): (رِقَاعٌ) جَمْعُ رُقْعَةٍ؛ وَهِيَ قِطْعَةٌ مِنَ الثَّوْبِ، أَيْ: ثِيَابٌ يَغُلُّهَا مِنَ الْغَنِيمَةِ، أَوْ يَأْخُذُهَا بِغَيْرِ حَقٍّ، وَ(تَخْفِقُ) أَيْ: تَضْطَرِبُ وَتَتَحَرَّكُ اضْطِرَابَ الرَّايَةِ [مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح؛ لعلي القاري].

يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَغِثْنِي!! فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ!».[١٨٩]

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ يَعْنِي: ثُمَّ تُعْطَى كُلُّ نَفْسٍ جَزَاءَ مَا كَسَبَتْ بِكَسْبِهَا، وَافِيًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ مَا اسْتَحَقَّهُ وَاسْتَوْجَبَهُ مِنْ ذَلِكَ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يَقُولُ: لَا يُفْعَلُ بِهِمْ إِلَّا الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُفْعَلَ بِهِمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْتَدِيَ عَلَيْهِمْ، فَيُنْقَصُوا عَمَّا اسْتَحَقُّوهُ.

١٦٢- ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ﴾ يَعْنِي: أَفَمَنْ تَرَكَ الْغُلُولَ وَمَا نَهَاهُ اللهُ عَنْهُ عَنْ مَعَاصِيهِ، وَعَمِلَ بِطَاعَةِ اللهِ فِي تَرْكِهِ ذَلِكَ، وَفِي غَيْرِهِ مِمَّا أَمَرَهُ بِهِ وَنَهَاهُ مِنْ فَرَائِضِهِ، مُتَّبَعًا فِي كُلِّ ذَلِكَ رِضَا اللهِ،

---

[١٨٩] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم. **وَالْمُرَادُ مِنَ الْحَدِيثِ:** أَنَّ مَنْ غَلَّ شَاةً، أَوْ بَقَرَةً، أَوْ ثَوْبًا، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؛ أُتِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ!!.

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ؛ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «**اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا...** » [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم].

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَوْمَ حُنَيْنٍ، إِلَى جَنْبِ بَعِيرٍ مِنَ الْمَقَاسِمِ، ثُمَّ تَنَاوَلَ شَيْئًا مِنَ الْبَعِيرِ، فَأَخَذَ مِنْهُ قَرَدَةً – يَعْنِي: وَبَرَةً –، فَجَعَلَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ هَذَا مِنْ غَنَائِمِكُمْ، أَدُّوا الْخَيْطَ وَالْمِخْيَطَ، فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ، وَمَا دُونَ ذَلِكَ، [وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُولَ]؛ فَإِنَّ الْغُلُولَ عَارٌ عَلَى أَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَشَنَارٌ وَنَارٌ!!**» [صحيح: رواه أحمد، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الكبرى؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٧٨٦٩)، والصحيحة(٩٨٥)].

وَعَنْ ثَوْبَانَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**مَنْ فَارَقَ الرُّوحُ الْجَسَدَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلَاثٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ: الْكِبْرِ، وَالدَّيْنِ، وَالْغُلُولِ**» [صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجة، والنسائي في الكبرى، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الأوسط؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٦٤١١)، والصحيحة(٢٧٨٥)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٧٩٨)].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ، أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ! فُلَانٌ شَهِيدٌ!! حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ، فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**كَلَّا! إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا – أَوْ عَبَاءَةٍ –**» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ: أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ!!**»، قَالَ: فَخَرَجْتُ فَنَادَيْتُ: أَلَا إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ!! [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، والترمذي، والدارمي في سننه، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم].

وَمُجْتَنِبًا سَخَطَهُ ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ[١٩٠] وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾يَعْنِي: كَمَنِ انْصَرَفَ مُتَحَمِّلًا سَخَطَ اللهِ وَغَضَبَهُ، فَاسْتَحَقَّ بِذَلِكَ سُكْنَى جَهَنَّمَ! يَقُولُ: لَيْسَا سَوَاءً.

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾يَعْنِي: وَبِئْسَ الْمَصِيرُ – الَّذِي يَصِيرُ إِلَيْهِ وَيَئُوبُ إِلَيْهِ مَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ – جَهَنَّمُ!.

١٦٣– ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ﴾يَعْنِي: أَنَّ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ وَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ، مِخْتَلِفُو الْمَنَازِلِ عِنْدَ اللهِ.

فَلِمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ: الْكَرَامَةُ وَالثَّوَابُ الْجَزِيلُ، وَلِمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ: الْمَهَانَةُ وَالْعِقَابُ الْأَلِيمُ!.

---

[١٩٠] تضمَّنت هَذِهِ الْآيَةُ إِثْبَاتَ صِفَتَيِ الرِّضَى والسَّخَطِ للهِ – تَعَالَى – عَلَى الْحَقِيقَةِ، عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِ اللهِ وَكَمَالِهِ.

وَهَاتَانِ الصِّفَتَانِ صِفَتَانِ فِعْلِيَّتَانِ؛ لِأَنَّهُمَا مُتَعَلِّقَتَانِ بِمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، أَيْ: يَفْعَلُهَا مَتَى شَاءَ، كَيْفَ شَاءَ، إِذَا شَاءَ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ الْأَزْهَرِيُّ السَّلَفِيُّ مُحَمَّد خَلِيل هَرَّاس فِي شَرْحِ الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ: وَهِيَ – يَعْنِي: صِفَاتَ الرِّضى والغَضَبِ وَالْكُرِهِ وَالسَّخَطِ وَالْمَقْتِ وَالْأَسَفِ – عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ صِفَاتٌ حَقِيقِيَّةٌ لِلَّهِ – عَزَّ وَجَلَّ –، عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ، وَلَا تُشْبِهُ مَا يَتَّصِفُ بِهِ الْمَخْلُوقُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهَا مَا يَلْزَمُ فِي الْمَخْلُوقِ!.

فَلَا حُجَّةَ لِلْأَشَاعِرَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ عَلَى نَفْيِهَا، وَلَكِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ اتِّصَافَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – بِهَا، يَلْزَمُهُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الصِّفَاتُ فِيهِ عَلَى نَحْوِ مَا هِيَ فِي الْمَخْلُوقِ! وَهَذَا الظنُّ الَّذِي ظَنُّوهُ فِي رَبِّهِمْ أَرْدَاهُمْ فَأَوْقَعَهُمْ فِي حَمْأَةِ النَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ!!.

وَالْأَشَاعِرَةُ يُرْجِعون هَذِهِ الصِّفَاتِ كُلِّهَا إِلَى الْإِرَادَةِ؛ فَالرِّضَا عِنْدَهُمْ: إِرَادَةُ الثَّوَابِ! وَالْغَضَبُ وَالسَّخَطُ.. إلَخْ: إِرَادَةُ الْعِقَابِ!!.

وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ؛ فَيُرْجِعُونَهَا إِلَى نَفْسِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ!! اهـ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ – قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ – فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى: وَمَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا: أَنْ يُوصَفَ اللهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ؛ وَلَا تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

فَلَا يَجُوزُ نَفْيُ صِفَاتِ اللهِ – تَعَالَى – الَّتِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ؛ وَلَا يَجُوزُ تَمْثِيلُهَا بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ؛ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ: لَا فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ.

وَقَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الْخُزَاعِيُّ: مَنْ شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِهِ؛ فَقَدْ كَفَرَ! وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ؛ فَقَدْ كَفَرَ! وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَرَسُولُهُ تَشْبِيهًا. وَمَذْهَبُ السَّلَفِ بَيْنَ مَذْهَبَيْنِ، وَهُدًى بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ: إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ، وَنَفْيُ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾؛ رَدٌّ عَلَى أَهْلِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ، وَقَوْلُهُ: ﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾؛ رَدٌّ عَلَى أَهْلِ النَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ، فَالْمُمَثِّلُ: أَعْشَى! وَالْمُعَطِّلُ: أَعْمَى! الْمُمَثِّلُ: يَعْبُدُ صَنَمًا! وَالْمُعَطِّلُ: يَعْبُدُ عَدَمًا!! اهـ.

﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾يَعْنِي: وَاللهُ ذُو عِلْمٍ بِمَا يَعْمَلُ أَهْلُ طَاعَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ شَيْءٌ، يُحْصِي عَلَى الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا أَعْمَالَهُمْ، حَتَّى تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مِنْهُمْ جَزَاءَ مَا كَسَبَتْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

١٦٤- ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾يَعْنِي: لَقَدْ تَطَوَّلَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ حِينَ أَرْسَلَ فِيهِمْ رَسُولًا ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، نَبِيًّا مِنْ أَهْلِ لِسَانِهِمْ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ لِسَانِهِمْ فَلَا يَفْقَهُوا عَنْهُ مَا يَقُولُ ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾يَقُولُ: يَقْرَأُ عَلَيْهِمْ آيَ كِتَابِهِ وَتَنْزِيلَهُ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾يَعْنِي: يُطَهِّرُهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ بِاتِّبَاعِهِمْ إِيَّاهُ، وَطَاعَتِهِمْ لَهُ فِيمَا أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾يَعْنِي: وَيُعَلِّمُهُمْ كِتَابَ اللهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ تَأْوِيلَهُ وَمَعَانِيَهُ، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ وَيَعْنِي بِالْحِكْمَةِ: السُّنَّةَ الَّتِي سَنَّهَا اللهُ – جَلَّ ثناؤُهُ – لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَبَيَانَهُ لَهُمْ.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾يَعْنِي: وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِهِ رَسُولَهُ – الَّذِي هَذِهِ صِفَتُهُ – ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾يَقُولُ: فِي جَهَالَةٍ جَهْلَاءَ، وَفِي حَيْرَةٍ عَنِ الْهُدَى عَمْيَاءَ! لَا يَعْرِفُونَ حَقًّا، وَلَا يُبْطِلُونَ بَاطِلًا!.

١٦٥- ﴿أَوَلَمَّا﴾يَعْنِي: أَوَ حِينَ ﴿أَصَابَتْكُمْ﴾ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – ﴿مُصِيبَةٌ﴾؛ وَهِيَ الْقَتْلَى الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ، وَالْجَرْحَى الَّذِينَ جُرِحُوا مِنْهُمْ بِأُحُدٍ.

وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَتَلُوا مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ نَفَرًا.

﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾يَقُولُ: قَدْ أَصَبْتُمْ – أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِثْلَيْ هَذِهِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي أَصَابُوا هُمْ مِنْكُمْ؛ وَهِيَ الْمُصِيبَةُ الَّتِي أَصَابَهَا الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِبَدْرٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا مِنْهُمْ سَبْعِينَ، وَأَسَرُوا سَبْعِينَ.

﴿قُلْتُمْ﴾يَعْنِي: قُلْتُمْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَتُكُمْ بِأُحُدٍ: ﴿أَنَّى هَذَا﴾ مِنْ أَيِّ وَجْهٍ هَذَا؟ وَمِنْ أَيْنَ أَصَابَنَا هَذَا الَّذِي أَصَابَنَا! وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ وَهُمْ مُشْرِكُونَ! وَفِينَا نَبِيُّ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَأْتِيهِ الْوَحْيِ مِنَ السَّمَاءِ! وَعَدُوُّنَا أَهْلُ كُفْرٍ بِاللهِ وَشِرْكٍ؟!.

﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِكَ مِنْ أَصْحَابِكَ: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾يَقُولُ: قُلْ لَهُمْ: أَصَابَكُمْ هَذَا الَّذِي أَصَابَكُمْ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ؛ بِخِلَافِكُمْ أَمْرِي وَتَرْكِكُمْ طَاعَتِي، لَا مِنْ عِنْدِ غَيْرِكُمْ، وَلَا مِنْ قِبَلِ أَحَدٍ سِوَاكُمْ!!.[١٩١]

﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾يَقُولُ: إِنَّ اللهَ عَلَى جَمِيعِ مَا أَرَادَ بِخَلْقِهِ – مِنْ عَفْوٍ وَعُقُوبَةٍ، وَتَفَضُّلٍ وَانْتِقَامٍ – ﴿قَدِيرٌ﴾يَعْنِي: ذُو قُدْرَةٍ.

١٦٦– ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾يَعْنِي: وَالَّذِي أَصَابَكُمْ ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ – وَهُوَ يَوْمُ أُحُدٍ – حِينَ الْتَقَى جَمْعُ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ.

وَيَعْنِي بِـ(الَّذِي أَصَابَهُمْ): مَا نَالَ مِنَ الْقَتْلِ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، وَمِنَ الْجِرَاحِ مَنْ جُرِحَ مِنْهُمْ.

﴿فَبِإِذْنِ اللهِ﴾يَقُولُ: فَهُوَ بِإِذْنِ اللهِ كَانَ، يَعْنِي: بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ فِيكُمْ.

---

[١٩١] أَوْ: حَيْثُ أَنَّكُمْ قَدِ اخْتَرْتُمْ قَبْلُ أَنْ يُقْتَلَ مِنْكُمْ سَبْعُونَ فِي مُقَابَلَةِ الْفِدَاءِ الَّذِي أَخَذْتُمُوهُ مِنْ أُسَارَى بَدْرٍ؛ فَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّ جِبْرِيلَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – هَبَطَ عَلَيْهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَ لَهُ: «**خَيِّرْهُمْ – يَعْنِي أَصْحَابَهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الْأُسَارَى إِنْ شَاءُوا الْقَتْلَ، وَإِنْ شَاءُوا الْفِدَاءَ؛ عَلَى أَنْ يُقْتَلَ الْعَامَ الْمُقْبِلَ مِنْهُمْ عِدَّتُهُمْ!!**»، قَالُوا: «**الْفِدَاءُ؛ وَيُقْتَلُ مِنَّا عِدَّتُهُمْ!!**» [صحيح: صحيح سنن الترمذي(١٥٦٧)، والتعليقات الحسان(٤٧٧٥)].

وَعِنْدَ أَحْمَدَ، وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَغَيْرِهِمَا، مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –؛ وَفِيهِ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، عُوقِبُوا بِمَا صَنَعُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ؛ فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ، وَفَرَّ أَصْحَابُ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَهُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، وَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ!! وَأَنْزَلَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾بِأَخْذِكُمُ الْفِدَاءَ [صحيح: صححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند(٢٢١)، وانظر الإرواء تحت الحديث(١٢١٨)].

١٦٧- ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا[١٩٢]﴾بِمَعْنَى: وَلِيَعْلَمَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا؛ أَصَابَكُمْ مَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ بِأُحُدٍ، لِيُمَيِّزَ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فَيَعْرِفُونَهُمْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ أَمْرُ الْفَرِيقَيْنِ.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا[١٩٣] قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِذَلِكَ: عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ الْمُنَافِقَ وَأَصْحَابَهُ، الَّذِينَ رَجَعُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَعَنْ أَصْحَابِهِ، حِينَ سَارَ نَبِيُّ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى الْمُشْرِكِينَ بِأُحُدٍ لِقِتَالِهِمْ، فَقَالَ لَهُمُ الْمُسْلِمُونَ: تَعَالَوْا قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ مَعَنَا، أَوِ ادْفَعُوا بِتَكْثِيرِكُمْ سَوَادَنَا، فَقَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تُقَاتِلُونَ؛ لَسِرْنَا مَعَكُمْ إِلَيْهِمْ، وَلَكِنَّا مَعَكُمْ عَلَيْهِمْ! وَلَكِنْ لَا نَرَى أَنَّهُ يَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْقَوْمِ قِتَالٌ! فَأَبْدَوْا مِنْ نِفَاقِ أَنْفُسِهِمْ مَا كَانُوا يَكْتُمُونَهُ، وَأَبْدَوْا بِأَلْسِنَتِهِمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾غَيْرَ مَا كَانُوا يَكْتُمُونَهُ وَيُخْفُونَهُ مِنْ عَدَاوَةِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَهْلِ الْإِيمَانِ بِهِ.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾يُظْهِرُونَ لَكَ الْإِيمَان، وَلَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾يَعْنِي: وَاللهُ أَعْلَمُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾، بِمَا يُضْمِرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَكْتُمُونَهُ فَيَسْتُرُونَهُ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّنَآنِ[١٩٤]، وَأَنَّهُمْ لَوْ عَلِمُوا قِتَالًا مَا تَبِعُوهُمْ وَلَا دَافَعُوا عَنْهُمْ، وَهُوَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – مُحِيطٌ بِمَا هُمْ مُخْفُوهُ مِنْ ذَلِكَ، مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ، وَمُحْصِيهِ عَلَيْهِمْ، حَتَّى يَهْتِكَ أَسْتَارَهُمْ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا فَيَفْضَحَهُمْ بِهِ، وَيُصْلِيَهُمْ بِهِ الدَّرْكَ الْأَسْفَلَ مِنَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ!.

---

[١٩٢] انْظُرْ – لِلْفَائِدَةِ –: آيَة (١٤٣) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَة، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ**﴾.

[١٩٣] **قَالَ الْإِمَامُ السَّعْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَيُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ: [﴿**وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا**﴾] عَلَى قَاعِدَةِ: (**ارْتِكَابُ أَخَفِّ الْمَفْسَدَتَيْنِ؛ لِدَفْعِ أَعْلَاهُمَا، وَفِعْلُ أَدْنَى الْمَصْلَحَتَيْنِ؛ لِلْعَجْزِ عَنْ أَعْلَاهُمَا**)؛ لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ أُمِرُوا أَنْ يُقَاتِلُوا لِلدِّينِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا؛ فَلِلْمُدَافَعَةِ عَنِ الْعِيَالِ وَالْأَوْطَانِ! اهـ. وَمَا بَيْنَ الْمَعْقُوفَيْنِ زِيَادَة مِنِّي

[١٩٤] (**الشَّنَآنُ**): الْبُغْضُ وَالْحِقْدُ.

١٦٨- ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا﴾يَعْنِي: وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ نَافَقُوا، الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا.

فَمَعْنَى الْآيَةِ: وَلِيَعْلَمَ اللهُ ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ الَّذِينَ أُصِيبُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي حَرْبِهِمُ الْمُشْرِكِينَ بِأُحُدٍ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقُتِلُوا هُنَالِكَ مِنْ عَشَائِرِهِمْ وَقَوْمِهِمْ، ﴿وَقَعَدُوا﴾يَعْنِي: وَقَعَدَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الْقَائِلُونَ مَا قَالُوا - مِمَّا أَخْبَرَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَنْهُمْ مِنْ قِيلِهِمْ - عَنِ الْجِهَادِ مَعَ إِخْوَانِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾يَعْنِي: لَوْ أَطَاعَنَا مَنْ قُتِلَ بِأُحُدٍ مِنْ إِخْوَانِنَا وَعَشَائِرِنَا ﴿مَا قُتِلُوا﴾يَعْنِي: مَا قُتِلُوا هُنَالِكَ!!.

قَالَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ﴿قُلْ﴾ - يَا مُحَمَّدُ - لِهَؤُلَاءِ الْقَائِلِينَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: ﴿فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾يَعْنِي: فَادْفَعُوا.

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: قُلْ لَهُمْ: فَادْفَعُوا - إِنْ كُنْتُمْ - أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ - صَادِقِينَ فِي قِيلِكُمْ: لَوْ أَطَاعَنَا إِخْوَانُنَا فِي تَرْكِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ مَعَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقِتَالِهِمْ أَبَا سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ قُرَيْشٍ؛ مَا قُتِلُوا هُنَالِكَ بِالسَّيْفِ، وَلَكَانُوا أَحْيَاءً بِقُعُودِهِمْ مَعَكُمْ، وَتَخَلُّفِهِمْ عَنْ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَشُهُودِ جِهَادِ أَعْدَاءِ اللهِ مَعَهُ - [عَنْ أَنْفُسِكُمُ][١٩٥] الْمَوْتَ ، فَإِنَّكُمْ قَدْ قَعَدْتُمْ عَنْ حَرْبِهِمْ وَقَدْ تَخَلَّفْتُمْ عَنْ جِهَادِهِمْ، وَأَنْتُمْ لَا مَحَالَةَ مَيِّتُونَ!.

١٦٩- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ[١٩٦] أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

---

[١٩٥] قَارِن بِطَبْعَةِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر.

[١٩٦] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ آيَة(١٥٧)**: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾أَيْ: فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَعَمَّ مِنْ ذَلِكَ؛ بِمَعْنَى: قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فِي الْجِهَادِ، أَوْ: قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ: قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، أَوْ: قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فِي بَيَانِ الْحَقِّ، كُلُّ هَذَا دَاخِلٌ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ لِأَنَّ الْجَامِعَ بَيْنَهَا أَنَّ هَذَا قُتِلَ وَهُوَ يُدَافِعُ عَنْ دِينِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -.

١٧٠- ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾يَعْنِي: وَلَا تَظُنَّنَّ ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾يَعْنِي: الَّذِينَ قُتِلُوا بِأُحُدٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ﴿أَمْوَاتًا﴾يَقُولُ: وَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ - يَا مُحَمَّدُ - أَمْوَاتًا: لَا يُحِسُّونَ شَيْئًا، وَلَا يَلْتَذُّونَ، وَلَا يَتَنَعَّمُونَ؛ فَإِنَّهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدِي، مُتَنَعِّمُونَ فِي رِزْقِي، فَرِحُونَ مَسْرُورُونَ بِمَا آتَيْتُهُمْ مِنْ كَرَامَتِي وَفَضْلِي، وَحَبَوْتُهُمْ بِهِ مِنْ جَزِيلِ ثَوَابِي وَعَطَائِي!!.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ، جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَشْرَبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ وَحُسْنَ مَقِيلِهِمْ؛ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللهُ بِنَا؛ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا[١٩٧] عَنِ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ» فَأَنْزَلَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ.[١٩٨]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ - نَهَرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ - فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا».[١٩٩]

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾يَعْنِي: وَيَفْرَحُونَ بِمَنْ لَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فَارَقُوهُمْ وَهُمْ أَحْيَاءٌ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَنَاهِجِهِمْ مِنْ جِهَادِ أَعْدَاءِ اللهِ مَعَ رَسُولِهِ، لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّهُمْ إِنِ اسْتُشْهِدُوا فَلَحِقُوا بِهِمْ؛ صَارُوا مِنْ كَرَامَةِ اللهِ إِلَى مِثْلِ الَّذِي صَارُوا هُمْ إِلَيْهِ! فَهُمْ لِذَلِكَ مُسْتَبْشِرُونَ بِهِمْ، فَرِحُونَ أَنَّهُمْ إِذَا صَارُوا كَذَلِكَ، ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾يَعْنِي: لَا خَوْفٌ

[١٩٧] (يَنْكُلُوا): يَجْبُنُوا، وَكُلُّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ شَيْئًا فَهَابَهُ؛ فَقَدْ نَكَلَ عَنْهُ.

[١٩٨] صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والبيهقي في الكبرى والدلائل، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٥٢٠٥)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٣٧٩)، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند(٢٣٨٨).

[١٩٩] صحيح: رواه أحمد، وابن أبي شيبة في مصنفه، وابن حبان في صحيحه، والطبراني في الكبير والأوسط، والبيهقي في الشعب، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وحسنه الألباني في صحيح الجامع(٣٧٤٢)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٣٧٨)، والتعليقات الحسان(٤٦٣٩)، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند(٢٣٩٠).

عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ أَمِنُوا عِقَابَ اللهِ، وَأَيْقَنُوا بِرِضَاهُ عَنْهُمْ، فَقَدْ أَمِنُوا الْخَوْفَ الَّذِي كَانُوا يَخَافُونَهُ مِنْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا خَلَّفُوا وَرَاءَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الدُّنْيَا وَنَكَدِ عَيْشِهَا(!) لِلْخَفْضِ[٢٠٠] الَّذِي صَارُوا إِلَيْهِ وَالدَّعَةِ وَالزُّلْفَةِ[٢٠١]!.[٢٠٢]

---

[٢٠٠] قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ: هُوَ فِي خَفْضٍ مِنَ الْعَيْشِ، أَيْ: فِي سَعَةٍ وَرَاحَةٍ.

[٢٠١] قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ: (الزُّلْفَةُ) وَالزُّلْفَى: الْقُرْبَةُ، وَأَزْلَفَهُ: قَرَّبَهُ. وَ(الدَّعَةُ): الرَّاحَةُ وَخَفْضُ الْعَيْشِ.

[٢٠٢] **ذِكْرُ بَعْضِ مَا حَضَرَنَا ذِكْرُهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ فِي فَضْلِ الْقَتْلِ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ:**

➡عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَوْمَ أُحُدٍ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فَأَيْنَ أَنَا؟ قَالَ: «**فِي الْجَنَّةِ!**» فَأَلْقَى تَمَرَاتٍ[كُنَّ]فِي يَدِهِ؛ ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ!![صحيح: رواه البخاري – واللفظ له –، ومسلم، وأحمد – وما بين المعقوفين له ولمسلم].

➡وَعَنْ أَنَسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّ رَجُلًا أَسْوَدَ أَتَى النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي رَجُلٌ أَسْوَدُ مُنْتِنُ الرِّيحِ! قَبِيحُ الْوَجْهِ! لَا مَالَ لِي! فَإِنْ أَنَا قَاتَلْتُ هَؤُلَاءِ حَتَّى أُقْتَلَ، فَأَيْنَ أَنَا؟ قَالَ: «**فِي الْجَنَّةِ!**» فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ! فَأَتَاهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَقَالَ: «**قَدْ بَيَّضَ اللهُ وَجْهَكَ، وَطَيَّبَ رِيحَكَ، وَأَكْثَرَ مَالَكَ!!**» وَقَالَ لِهَذَا أَوْ لِغَيْرِهِ: «**لَقَدْ رَأَيْتُ زَوْجَتَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، نَازَعَتْهُ جُبَّةً لَهُ مِنْ صُوفٍ، تَدْخُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جُبَّتِهِ!!**» [صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(١٣٨١)].

➡وَعَنْ جَابِرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**أَنْ يُعْقَرَ جَوَادُكَ، وَيُهْرَاقَ دَمُكَ!**» [صحيح: رواه أحمد، ابن ماجة، وابن أبي شيبة في مصنفه، وابن حبان في صحيحه، والدارمي في سننه، والطبراني في الكبير والأوسط؛ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(١٣٦٥)، والتعليقات الحسان(٤٦٢٠)، وانظر الصحيحة(١٥٠٤)].

➡وَعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ[مِنْ دَمِهِ]، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ**» [صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجة، والبيهقي في الشعب، والطبراني في الكبير والصغير والأوسط، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٣٢١٣)، وصحيح الجامع(٥١٨٢)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٣٧٥)، والمشكاة(٣٨٣٤).]

قَالَ السِّنْدِيُّ فِي حَاشِيَتِهِ عَلَى ابْنِ مَاجَة: قَوْلُهُ: (سِتُّ خِصَالٍ) الْمَذْكُورَاتُ سَبْعٌ؛ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ الْإِجَارَةَ وَالْأَمْنَ مِنَ الْفَزَعِ وَاحِدَةً!اهـ.

تَنْبِيهٌ مُهِمٌّ جِدًّا: اعْلَمْ – رَحِمَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ – أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلَ يَكُونُ شَهِيدًا؛ كَلَّا!! لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ! فَعَنْ عُتْبَةَ بْنِ عَبْدٍ السُّلَمِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «الْقَتْلَى ثَلَاثَةٌ: ١– رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى يُقْتَلَ؛ فَذَلِكَ الشَّهِيدُ الْمُمْتَحَنُ فِي خَيْمَةِ اللهِ تَحْتَ عَرْشِهِ! لَا يَفْضُلُهُ النَّبِيُّونَ إِلَّا بِدَرَجَةِ النُّبُوَّةِ! ٢– وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ قَرَفَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى يُقْتَلَ؛ [فَتِلْكَ مَصْمَصَةٌ] مَحَتْ ذُنُوبَهُ وَخَطَايَاهُ، إِنَّ السَّيْفَ مَحَّاءُ الْخَطَايَا، وَأُدْخِلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ! فَإِنَّ لَهَا ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ، وَلِجَهَنَّمَ سَبْعَةَ أَبْوَابٍ، وَبَعْضُهَا [أَفْضَلُ] مِنْ بَعْضٍ! ٣– وَرَجُلٌ مُنَافِقٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ(!) حَتَّى يُقْتَلَ، [فَذَلِكَ فِي النَّارِ؛ إِنَّ السَّيْفَ لَا يَمْحُو النِّفَاقَ!!]» [صحيح: رواه أحمد، والدارمي، وابن حبان؛ وصححه الألباني في التعليقات الحسان(٤٦٤٤)]. (الشَّهِيدُ الْمُمْتَحَنُ) هُوَ الْمُصَفَّى الْمُهَذَّبُ. مِنْ مَحَنْتُ الْفِضَّةَ إِذَا صَفَّيْتَهَا وَخَلَّصْتَهَا بِالنَّارِ، وَ(مَصْمَصَةٌ) أَيْ: مُطَهِّرَةٌ.

١٧١- ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يَفْرَحُونَ ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ﴾يَعْنِي: بِمَا حَبَاهُمْ بِهِ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - مِنْ عَظِيمِ كَرَامَتِهِ عِنْدِ وُرُودِهِمْ عَلَيْهِ ﴿وَفَضْلٍ﴾يَقُولُ: وَبِمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَضْلِ وَجَزِيلِ الثَّوَابِ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَجِهَادِ أَعْدَائِهِ.

﴿وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾يَعْنِي: لَا يُبْطِلُ جَزَاءَ أَعْمَالِ مَنْ صَدَّقَ رَسُولَهُ وَاتَّبَعَهُ، وَعَمِلَ بِمَا جَاءَهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

١٧٢- ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾يَعْنِي: وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ، الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْجَرْحُ وَالْكُلُومُ.

وَإِنَّمَا عَنَى اللهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - بِذَلِكَ: الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى حَمْرَاءِ الْأَسَدِ فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ - أَبِي سُفْيَانَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ - مُنْصَرَفَهُمْ عَنْ أُحُدٍ؛ وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ لَمَّا انْصَرَفَ عَنْ أُحُدٍ، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أَثَرِهِ حَتَّى بَلَغَ حَمْرَاءَ الْأَسَدِ - وَهِيَ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ -؛ لِيَرَى النَّاسُ أَنَّ بِهِ وَأَصْحَابِهِ قُوَّةً عَلَى عَدُوِّهِمْ.

عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَتْ لِي عَائِشَةُ: إِنْ كَانَ أَبَوَاكَ لَمِنَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ، تَعْنِي: أَبَا بَكْرٍ وَالزُّبَيْرَ.[٢٠٣]

فَوَعَدَ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - مُحْسِنَ مَنْ ذَكَرْنَا أَمْرَهُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ، إِذَا اتَّقَى اللهَ فَخَافَهُ، فَأَدَّى فَرَائِضَهُ

---

[٢٠٣] صَحِيحٌ: رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَابْنُ مَاجَةَ؛ وَغَيْرُهُمَا. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -، ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾، قَالَتْ لِعُرْوَةَ: يَا ابْنَ أُخْتِي! كَانَ أَبَوَاكَ مِنْهُمْ: الزُّبَيْرُ، وَأَبُو بَكْرٍ، لَمَّا أَصَابَ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ! وَانْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ؛ خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا! قَالَ: «**مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ؟**» فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، قَالَ: كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَالزُّبَيْرُ.

وَأَطَاعَهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ عُمُرِهِ (أَجْرًا عَظِيمًا)؛ وَذَلِكَ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ، وَالْجَزَاءُ الْعَظِيمُ عَلَى مَا قَدَّمَ مِنْ صَالِحِ أَعْمَالِهِ فِي الدُّنْيَا.

١٧٣- ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾يَعْنِي: وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ.

وَالنَّاسُ الْأَوَّلُ: هُمْ قَوْمٌ - فِيمَا ذُكِرَ لَنَا - كَانَ أَبُو سُفْيَانَ سَأَلَهُمْ أَنْ يُثَبِّطُوا رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابَهُ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي طَلَبِهِ بَعْدَ مُنْصَرَفِهِ عَنْ أُحُدٍ إِلَى حَمْرَاءِ الْأَسَدِ.

وَالنَّاسُ الثَّانِي: هُمْ أَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ مِنْ قُرَيْشٍ، الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ بِأُحُدٍ.

وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾قَدْ جَمَعُوا الرِّجَالَ لِلِقَائِكُمْ وَالْكَرَّةِ إِلَيْكُمْ لِحَرْبِكُمْ ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ يَقُولُ: فَاحْذَرُوهُمْ، وَاتَّقُوا لِقَاءَهُمْ؛ فَإِنَّهُ لَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِمْ!!.

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾يَقُولُ: فَزَادَهُمْ ذَلِكَ - مِنْ تَخْوِيفِ مَنْ خَوَّفَهُمْ أَمْرَ أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - يَقِينًا إِلَى يَقِينِهِمْ، وَتَصْدِيقًا لِلَّهِ وَلِوَعْدِهِ وَوَعْدِ رَسُولِهِ إِلَى تَصْدِيقِهِمْ، وَلَمْ يُثْنِهِمْ ذَلِكَ عَنْ وَجْهِهِمُ الَّذِي أَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالسَّيْرِ فِيهِ، وَلَكِنْ سَارُوا حَتَّى بَلَغُوا رِضْوَانَ اللهِ مِنْهُ، وَقَالُوا - ثِقَةً بِاللهِ وَتَوَكُّلًا عَلَيْهِ، إِذْ خَوَّفَهُمْ مَنْ خَوَّفَهُمْ أَبَا سُفْيَانَ وَأَصْحَابَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ -: ﴿حَسْبُنَا اللهُ﴾يَعْنِي: يَكْفِينَا اللهُ ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ[٢٠٤]﴾يَقُولُ: وَنِعْمَ الْمَوْلَى لِمَنْ وَلِيَهُ وَكَفَلَهُ.

---

[٢٠٤] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ قَالُوا: ﴿**إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ [صحيح: رواه البخاري، والنسائي في الكبرى، وفي عمل اليوم والليلة، والبيهقي في الأسماء والصفات].

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي شَرْحِ رِيَاضِ الصَّالِحِينَ: فَيَنْبَغِي لِكُلِّ إِنْسَانٍ رَأَى مِنَ النَّاسِ جَمْعًا أَوْ عُدْوَانًا عَلَيْهِ؛ أَنْ يَقُولَ: (**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**) فَإِذَا قَالَ هَكَذَا؛ كَفَاهُ اللهُ شَرَّهُمْ، كَمَا كَفَى إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدًا - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -.

فَاجْعَلْ هَذِهِ الْكَلِمَةَ دَائِمًا عَلَى بَالِكَ إِذَا رَأَيْتَ مِنَ النَّاسِ عُدْوَانًا عَلَيْكَ.

١٧٤-﴿فَانْقَلَبُوا﴾يَعْنِي: فَانْصَرَفَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ، مِنْ وَجْهِهِمُ الَّذِي تَوَجَّهُوا فِيهِ – وَهُوَ سَيْرُهُمْ فِي أَثَرِ عَدُوِّهِمْ – إِلَى حَمْرَاءِ الْأَسَدِ ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ﴾ يَعْنِي: بِعَافِيَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ، لَمْ يَلْقُوا بِهَا عَدُوًّا، ﴿وَفَضْلٍ﴾يَعْنِي: أَصَابُوا فِيهَا مِنَ الْأَرْبَاحِ بِتِجَارَتِهِمُ الَّتِي تَجَرُوا بِهَا، وَالْأَجْرِ الَّذِي اكْتَسَبُوهُ ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾يَعْنِي: لَمْ يَنَلْهُمْ بِهَا مَكْرُوهٌ مِنْ عَدُوِّهِمْ وَلَا أَذًى ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ[٢٠٥]﴾يَعْنِي: أَنَّهُمْ أَرْضَوُا اللهَ بِفِعْلِهِمْ ذَلِكَ، وَاتِّبَاعِهِمْ رَسُولَهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنَ اتِّبَاعِ أَثَرِ الْعَدُوِّ، وَطَاعَتِهِمْ.

﴿وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾يَعْنِي: وَاللهُ ذُو إِحْسَانٍ وَطَوْلٍ عَلَيْهِمْ – بِصَرْفِ عَدُوِّهِمُ الَّذِي كَانُوا قَدْ هَمُّوا بِالْكَرَّةِ إِلَيْهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَيَادِيهِ عِنْدَهُمْ، وَعَلَى غَيْرِهِمْ – بِنِعَمِهِ، (عَظِيم) عِنْدَ مَنْ أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ.

١٧٥- ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾يَعْنِي: إِنَّمَا الَّذِي قَالَ لَكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ –: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ – فَخَوَّفُوكُمْ بِجُمُوعِ عَدُوِّكُمْ وَمَسِيرِهِمْ إِلَيْكُمْ –، مِنْ فِعْلِ الشَّيْطَانِ أَلْقَاهُ عَلَى أَفْوَاهِ مَنْ قَالَ ذَلِكَ لَكُمْ، يُخَوِّفُكُمْ بِأَوْلِيَائِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ – أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ مِنْ قُرَيْشٍ –؛ لِتَرْهَبُوهُمْ، وَتَجْبُنُوا عَنْهُمْ.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾يَقُولُ: فَلَا تَخَافُوا – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – الْمُشْرِكِينَ، وَلَا يَعْظُمَنَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُهُمْ، وَلَا تَرْهَبُوا جَمْعَهُمْ، مَعَ طَاعَتِكُمْ إِيَّايَ، مَا أَطَعْتُمُونِي وَاتَّبَعْتُمْ أَمْرِي، وَإِنِّي مُتَكَفِّلٌ لَكُمْ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ، وَلَكِنْ خَافُونِ وَاتَّقُوا أَنْ تَعْصُونِي وَتُخَالِفُوا أَمْرِي؛ فَتَهْلِكُوا!.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾يَقُولُ: وَلَكِنْ خَافُونِي دُونَ الْمُشْرِكِينَ وَدُونَ جَمِيعِ خَلْقِي، أَنْ تُخَالِفُوا أَمْرِي، إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِي رَسُولِي وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِي.

---

[٢٠٥] انْظُرِ التَّعْلِيقَ عَلَى الْآيَةِ (١٦٢) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ .

١٧٦- ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ﴾ - يَا مُحَمَّدُ -كُفْرَ ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ، فَـ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ﴾ بِمُسَارَعَتِهِمْ فِي الْكُفْرِ ﴿شَيْئًا﴾، كَمَا أَنَّ مُسَارَعَتَهُمْ لَوْ سَارَعُوا إِلَى الْإِيمَانِ لَمْ تَكُنْ بِنَافِعَتِهِ، كَذَلِكَ مُسَارَعَتُهُمْ إِلَى الْكُفْرِ غَيْرُ ضَارَّتِهِ!.[٢٠٦]

﴿يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾يَعْنِي: يُرِيدُ اللهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ، نَصِيبًا فِي ثَوَابِ الْآخِرَةِ، فَلِذَلِكَ خَذَلَهُمْ فَسَارَعُوا فِيهِ!.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ - مَعَ حِرْمَانِهِمْ مَا حُرِمُوا مِنْ ثَوَابِ الْآخِرَةِ - لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فِي الْآخِرَةِ؛ وَذَلِكَ عَذَابُ النَّارِ!!.

١٧٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثناؤُهُ: الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَقَدَّمَ إِلَى نَبِيِّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيهِمْ أَنْ لَا يُحْزِنَهُ مُسَارَعَتُهُمْ إِلَى الْكُفْرِ، فَقَالَ لِنَبِيِّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ابْتَاعُوا الْكُفْرَ بِإِيمَانِهِمْ فَارْتَدُّوا عَنْ إِيمَانِهِمْ بَعْدَ دُخُولِهِمْ فِيهِ، وَرَضُوا بِالْكُفْرِ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، عِوَضًا مِنَ الْإِيمَانِ، لَنْ يَضُرُّوا اللهَ بِكُفْرِهِمْ وَارْتِدَادِهِمْ عَنْ إِيمَانِهِمْ شَيْئًا، بَلْ إِنَّمَا يَضُرُّونَ بِذَلِكَ أَنْفُسَهُمْ، بِإِيجَابِهِمْ بِذَلِكَ لَهَا مِنْ عِقَابِ اللهِ مَا لَا قِبَلَ لَهَا بِهِ!.

وَإِنَّمَا حَثَّ اللهُ - جَلَّ ثناؤُهُ - بِهَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ، عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى إِخْلَاصِ الْيَقِينِ، وَالِانْقِطَاعِ إِلَيْهِ فِي أُمُورِهِمْ، وَالرِّضَا بِهِ نَاصِرًا وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ خَلْقِهِ، وَرَغَّبَ بِهَا فِي جِهَادِ أَعْدَائِهِ وَأَعْدَاءِ دِينِهِ، وَشَجَّعَ بِهَا قُلُوبَهُمْ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ مَنْ وَلِيَهُ بِنَصْرِهِ فَلَنْ يُخْذَلَ؛ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ جَمِيعُ مَنْ خَالَفَهُ وَحَادَّهُ! وَأَنَّ مَنْ خَذَلَهُ فَلَنْ يَنْصُرَهُ نَاصِرٌ يَنْفَعُهُ نَصْرُهُ؛ وَلَوْ كَثُرَتْ أَعْوَانُهُ وَنُصَرَاؤُهُ!.

---

[٢٠٦] قَالَ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «...يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي!...» [صحيح: رواه مسلم - واللفظ له -، وأحمد، والبخاري في الأدب المفرد، والترمذي؛ وغيرهم].

١٧٨- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ[٢٠٧] خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾ يَعْنِي: وَلَا يَظُنَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، أَنَّ إِمْلَاءَنَا لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ.

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا[٢٠٨]﴾: إِنَّمَا نُؤَخِّرُ آجَالَهُمْ فَنُطِيلُهَا لِيَزْدَادُوا إِثْمًا، يَقُولُ: يَكْتَسِبُوا الْمَعَاصِيَ فَتَزْدَادَ آثَامُهُمْ وَتَكْثُرَ!.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يَقُولُ: وَلِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ فِي الْآخِرَةِ عُقُوبَةٌ لَهُمْ مُهِينَةٌ مذلَّةٌ.

١٧٩- ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي: مَا كَانَ اللهُ لِيَدَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ مِنَ الْتِبَاسِ الْمُؤْمِنِ مِنْكُمْ بِالْمُنَافِقِ، فَلَا يُعْرَفُ هَذَا مِنْ هَذَا ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ يَعْنِي: حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ - وَهُوَ الْمُنَافِقُ الْمُسْتَسِرُّ لِلْكُفْرِ - مِنَ الطَّيِّبِ - وَهُوَ الْمُؤْمِنُ الْمُخْلِصُ الصَّادِقُ الْإِيمَانِ - بِالْمِحَنِ وَالِاخْتِبَارِ؛ كَمَا مُيِّزَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ عِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ إِلَيْهِ.

﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يَعْنِي: وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ضَمَائِرِ قُلُوبِ عِبَادِهِ، فَتَعْرِفُوا الْمُؤْمِنَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِ وَالْكَافِرِ، وَلَكِنَّهُ يُمَيِّزُ بَيْنَهُمْ بِالْمِحَنِ وَالِابْتِلَاءِ -كَمَا مَيَّزَ بَيْنَهُمْ بِالْبَأْسَاءِ يَوْمَ أُحُدٍ - وَجِهَادِ عَدُوِّهِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ صُنُوفِ الْمِحَنْ، حَتَّى تَعْرِفُوا مُؤْمِنَهُمْ وَكَافِرَهُمْ وَمُنَافِقَهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَيَصْطَفِيهِ، فَيُطْلِعُهُ عَلَى بَعْضِ مَا فِي ضَمَائِرِ بَعْضِهِمْ، بِوَحْيِهِ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَرِسَالَتِهِ.

---

[٢٠٧] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَيَعْنِي بِالْإِمْلَاءِ: الْإِطَالَةَ فِي الْعُمُرِ، وَالْإِنْسَاءَ فِي الْأَجَلِ.

[٢٠٨] وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾.

فَلْيَحْذَرِ الظَّالِمُونَ مِنَ الْإِمْهَالِ! وَلَا يَظُنُّوا أَنْ يُفْلِتُوا مِنَ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ!!.

عَنْ أَبِي مُوسَى - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ!!**» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ [صحيح: رواه البخاري، ومسلم؛ وغيرهما].

﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾يَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾: وَإِنْ تُصَدِّقُوا مَنِ اجْتَبَيْتُهُ مِنْ رُسُلِي بِعِلْمِي وَأَطْلَعْتُهُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنْكُمْ، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ رَبَّكُمْ بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ نَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَفِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ؛ ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾يَقُولُ: فَلَكُمْ بِذَلِكَ مِنْ إِيمَانِكُمْ وَاتِّقَائِكُمْ رَبَّكُمْ، ثَوَابٌ عَظِيمٌ!.

١٨٠– ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾وَلَا تَحْسَبَنَّ – يَا مُحَمَّدُ – بُخْلَ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا أَعْطَاهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ، فَلَا يُخْرِجُونَ مِنْهُ حَقَّ اللهِ الَّذِي فَرَضَهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ مِنَ الزَّكَوَاتِ، هُوَ خَيْرًا لَهُمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ عِنْدَهُ فِي الْآخِرَةِ!.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾يَعْنِي بِقَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾: سَيَجْعَلُ اللهُ مَا بَخِلَ بِهِ الْمَانِعُونَ الزَّكَاةَ، طَوْقًا فِي أَعْنَاقِهِمْ، كَهَيْئَةِ الْأَطْوَاقِ الْمَعْرُوفَةِ!.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «مَا مِنْ أَحَدٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا مُثِّلَ لَهُ شُجَاعٌ أَقْرَعُ يُطَوِّقُهُ» ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.[٢٠٩]

---

[٢٠٩] صحيح: رواه الترمذي، وابن ماجة، والبيهقي في الكبرى؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٥٦٧٦)، وصحيح الترغيب والترهيب(٧٥٦). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ؛ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ** – يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ – **ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ! أَنَا كَنْزُكَ!!**» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾إِلَى آخِرِ الْآيَةَ [صحيح: رواه البخاري، وأحمد، والنسائي؛ وغيرهم].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**مَا مِنْ صَاحِبِ...كَنْزٍ لَا يَفْعَلُ فِيهِ حَقَّهُ؛ إِلَّا جَاءَ كَنْزُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، يَتْبَعُهُ فَاتِحًا فَاهُ! فَإِذَا أَتَاهُ فَرَّ مِنْهُ!! فَيُنَادِيهِ[رَبُّهُ]: خُذْ كَنْزَكَ الَّذِي خَبَأْتَهُ! [الَّذِي كُنْتَ تَبْخَلُ بِهِ!] فَأَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ، فَإِذَا رَأَى أَنْ لَا بُدَّ مِنْهُ؛ سَلَكَ يَدَهُ فِي [فَمِهِ]، فَيَقْضِمُهَا قَضْمَ الْفَحْلِ!!**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، والنسائي، والدارمي؛ وغيرهم]. (**الشُّجَاعُ**): نَوْعٌ مِنَ الْحَيَّاتِ، وَقِيلَ: هُوَ الذَّكَرُ مِنَ الْحَيَّاتِ خَاصَّةً، وَ(**الْأَقْرَعُ**): الَّذِي ذَهَبَ شَعْرُ رَأْسِهِ لِكَثْرَةِ سُمِّهِ! وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي جَمَعَ السُّمَّ فِي رَأْسِهِ حَتَّى انْحَسَرَ شَعْرُهُ! وَ(**الزَّبِيبَتَانِ**): نُقْطَتَانِ سَوْدَاوَانِ فَوْقَ عَيْنَيِ الْحَيَّةِ؛ وَهُوَ أَخْبَثُ مَا يَكُونُ مِنَ الْحَيَّاتِ!! (**بِلِهْزِمَتَيْهِ**) يَعْنِي: شِدْقَيْهِ، وَالشِّدْقُ – بِكَسْرِ الشِّينِ وَفَتْحِهَا –: جَانِبُ الْفَمِ.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾يَعْنِي: أَنَّهُ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ جَمِيعِ خَلْقِهِ.[210]

ثُمَّ أَخْبَرَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَنَّهُ بِمَا يَعْمَلُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلٍ وَغَيْرُهُمْ مِنْ سَائِرِ خَلْقِهِ، ذُو خِبْرَةٍ وَعِلْمٍ، مُحِيطٌ بِذَلِكَ كُلِّهِ، حَتَّى يُجَازِيَ كُلًّا مِنْهُمْ عَلَى قَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِ: الْمُحْسِنَ بِالْإِحْسَانِ، وَالْمُسِيءَ عَلَى مَا يَرَى – تَعَالَى ذِكْرُهُ –.

١٨١– ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ مِنَ الْيَهُودِ: ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ﴾ إِلَيْنَا ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ عَنْهُ، ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ مِنَ الْإِفْكِ وَالْفِرْيَةِ عَلَى رَبِّهِمْ ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ[211]﴾: وَقَتْلَهُمْ أَنْبِيَاءَهُم بِغَيْرِ حَقٍّ. ﴿وَنَقُولُ﴾ – لِلْقَائِلِينَ بِأَنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، الْقَاتِلِينَ أَنْبِيَاءَ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ –: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾يَعْنِي: عَذَابَ نَارٍ مُحْرِقَةٍ مُلْتَهِبَةٍ!!.

---

[210] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿**وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ وَالْمِيرَاثُ الْمَعْرُوفُ: هُوَ مَا انْتَقَلَ مِنْ مِلْكِ مَالِكٍ إِلَى وَارِثِهِ بِمَوْتِهِ، وَلِلَّهِ الدُّنْيَا قَبْلَ فَنَاءِ خَلْقِهِ وَبَعْدَهُ؟ قِيلَ: إِنَّ مَعْنَى ذَلِكَ مَا وَصَفْنَا، مِنْ وَصْفِهِ نَفْسَهُ بِالْبَقَاءِ، وَإِعْلَامِ خَلْقِهِ أَنَّهُ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْفَنَاءَ، وَذَلِكَ أَنَّ مِلْكَ الْمَالِكِ إِنَّمَا يَصِيرُ مِيرَاثًا بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَإِنَّمَا قَالَ جَلَّ ثنَاؤُهُ: ﴿**وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾؛ إِعْلَامًا بِذَلِكَ مِنْهُ عِبَادَهُ أَنَّ أَمْلَاكَ جَمِيعِ خَلْقِهِ مُنْتَقِلَةٌ عَنْهُمْ بِمَوْتِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا أَحَدَ إِلَّا وَهُوَ فَانٍ سِوَاهُ، فَإِنَّهُ الَّذِي إِذَا أَهْلَكَ جَمِيعَ خَلْقِهِ، فَزَالَتْ أَمْلَاكُهُمْ عَنْهُمْ؛ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ يَكُونُ لَهُ مَا كَانُوا يَمْلِكُونَهُ غَيْرُهُ.

وَإِنَّمَا مَعْنَى الْآيَةِ: لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِي يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ؛ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ! سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَعْدَ مَا يَهْلِكُونَ، وَتَزُولُ عَنْهُمْ أَمْلَاكُهُمْ فِي الْحِينِ الَّذِي لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا، وَصَارَ لِلَّهِ مِيرَاثُهُ وَمِيرَاثُ غَيْرِهِ مِنْ خَلْقِهِ!.

[211] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ**: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾ هَذَا قَيْدٌ كَاشِفٌ وَلَيْسَ احْتِرَازِيٌّ، يَعْنِي: أَنَّ قَتْلَهُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يَنْقَسِمُ قَتْلُهُمْ: إِلَى قَتْلٍ بِحَقٍّ، وَقَتْلٍ بِغَيْرِ حَقٍّ! فَكُلُّ قَتْلٍ لِلْأَنْبِيَاءِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَقْتُلُونَ النَّبِيِّ لِشَخْصِهِ، وَإِنَّمَا يَقْتُلُونَهُ لِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، أَيْ: أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَهُمْ لِكَوْنِهِمْ أَنْبِيَاءَ.

فَفِي هَذَا الْقَيْدِ فَائِدَتَانِ: الْأُولَى: بَيَانُ الْوَاقِعِ، وَالثَّانِيَةُ: الْمُبَالَغَةُ فِي التَّشْنِيعِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ يَقْتُلُونَهُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ!! اهـ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾ أَيْ: وَنَكْتُبُ قَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ، أَيْ: رِضَاهُمْ بِالْقَتْلِ.

وَالْمُرَادُ: قَتْلُ أَسْلَافِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ، لَكِنْ لَمَّا رَضُوا بِذَلِكَ؛ صَحَّتِ الْإِضَافَةُ إِلَيْهِمْ.

قُلْتُ: وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ عُظْمَى! حَيْثُ يَكُونُ الرِّضَا بِالْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةً!!. وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ، عَنِ الْعُرْسِ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ: كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا – وَقَالَ مَرَّةً: فَأَنْكَرَهَا –؛ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا؛ كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا**». وَهَذَا نَصٌّ! اهـ. والحديث: حسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٩)، والمشكاة (٥١٤١)، وصحيح الترغيب والترهيب(٢٣٢٣).

١٨٢- ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾أَيْ: قَوْلُنَا لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ؛ بِمَا أَسْلَفَتْ أَيْدِيكُمْ وَاكْتَسَبَتْهَا أَيَّامَ حَيَاتِكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَبِأَنْ اللهَ عَدْلٌ لَا يَجُورُ فَيُعَاقِبُ عَبْدًا لَهُ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ مِنْهُ الْعُقُوبَةَ! وَلَكِنَّهُ يُجَازِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، وَيُوَفِّي كُلَّ عَامِلٍ جَزَاءَ مَا عَمِلَ!.[٢١٢]

فَجَازَى الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ [ذَلِكَ][٢١٣] يَوْمَ الْقِيَامَةِ – مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ وَصَفَ صِفَتَهُمْ، فَأُخْبِرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ – بِمَا جَازَاهُمْ بِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَرِيقِ؛ بِمَا اكْتَسَبُوا مِنَ الْآثَامِ، وَاجْتَرَحُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَكَذَبُوا عَلَى اللهِ بَعْدَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ بِالْإِنْذَارِ!.

فَلَمْ يَكُنْ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِمَا عَاقَبَهُمْ بِهِ – مِنْ إِذَاقَتِهِمِ عَذَابَ الْحَرِيقِ – ظَالِمًا، وَلَا وَاضِعًا عُقُوبَتَهُ فِي غَيْرِ أَهْلِهَا.

وَكَذَلِكَ هُوَ – جَلَّ ثنَاؤُهُ – غَيْرُ ظَلَّامٍ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ! وَلَكِنَّهُ الْعَادِلُ بَيْنَهُمْ، وَالْمُتَفَضِّلُ عَلَى جَمِيعِهِمْ بِمَا أَحَبَّ مِنْ فَوَاضِلِهِ وَنِعَمِهِ!.

١٨٣- ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾يَعْنِي: لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا، يَعْنِي: أَوْصَانَا، وَتَقَدَّمَ إِلَيْنَا فِي كُتُبِهِ وَعَلَى أَلْسُنِ أَنْبِيَائِهِ﴿أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾يَقُولُ: أَنْ لَا نُصَدِّقَ رَسُولًا فِيمَا يَقُولُ إِنَّهُ جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾يَقُولُ: حَتَّى يَجِيئَنَا بِقُرْبَانٍ؛ وَهُوَ مَا تَقَرَّبَ بِهِ الْعَبْدُ إِلَى رَبِّهِ مِنْ صَدَقَةٍ.

وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾؛ لِأَنَّ أَكْلَ النَّارِ مَا قَرَّبَهُ أَحَدُهُمْ لِلَّهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، كَانَ دَلِيلًا عَلَى قَبُولِ اللهِ مِنْهُ مَا قُرِّبَ لَهُ، وَدَلَالَةً عَلَى صِدْقِ الْمُقَرِّبِ فِيمَا ادَّعَى أَنَّهُ مُحِقٌّ فِيمَا نَازَعَ أَوْ قَالَ.

---

[٢١٢] قُلْتُ: يَرْحَم اللهُ ابْنَ جَرِيرٍ؛ حَيْثُ يَقُولُ: وَكَيْفَ يُظْلَمُ مِنْ جُوزِيَ بِالْإِسَاءَةِ مِثْلَهَا وَبِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا؟!.

[٢١٣] قَارِن بِطَبْعَةِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر.

﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾يَعْنِي: بِالْحُجَجِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِمْ وَحَقِيقَةِ قَوْلِهِمْ؛ ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾يَعْنِي: وَبِالَّذِي ادَّعَيْتُمْ أَنَّهُ إِذَا جَاءَ بِهِ لَزِمَكُمْ تَصْدِيقُهُ وَالْإِقْرَارُ بِنُبُوَّتِهِ؛ مِنْ أَكْلِ النَّارِ قُرْبَانَهُ إِذَا قَرَّبَ لِلَّهِ دَلَالَةً عَلَى صِدْقِهِ، ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾يَقُولُ لَهُ: قُلْ لَهُمْ: قَدْ جَاءَتْكُمُ الرُّسُلُ الَّذِي كَانُوا مِنْ قَبْلِي بِالَّذِي زَعَمْتُمْ أَنَّهُ حُجَّةٌ لَهُمْ عَلَيْكُمْ، فَقَتَلْتُمُوهُمْ، فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ وَأَنْتُمْ مُقِرُّونَ بِأَنَّ الَّذِي جَاءُوكُمْ بِهِ مِنْ ذَلِكَ كَانَ حُجَّةً لَهُمْ عَلَيْكُمْ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي أَنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِمَنْ أَتَاكُمْ مِنْ رُسُلِهِ بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ حُجَّةً لَهُ عَلَى نُبُوَّتِهِ؟!.

١٨٤- ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ[٢١٤] جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ وَهَذَا تَعْزِيَةٌ مِنَ اللهِ – جَلَّ ثناؤُهُ – نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَى الْأَذَى الَّذِي كَانَ يَنَالُهُ مِنَ الْيَهُودِ وَأَهْلِ الشِّرْكِ بِاللهِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْمِلَلِ.

يَقُولُ اللهُ – تَعَالَى – لَهُ: لَا يَحْزُنْكَ – يَا مُحَمَّدُ –كَذِبَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ! وَقَالُوا: إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ! وَافْتِرَاؤُهُمْ عَلَى رَبِّهِمُ اغْتِرَارًا بِإِمْهَالِ اللهِ إِيَّاهُمْ! وَلَا يَعْظُمَنَّ عَلَيْكَ تَكْذِيبُهُمْ إِيَّاكَ، وَادِّعَاؤُهُمُ الْأَبَاطِيلَ مِنْ عُهُودِ اللهِ إِلَيْهِمْ! فَإِنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ بِكَ فَكَذَّبُوكَ وَكَذَبُوا عَلَى اللهِ؛ فَقَدْ كَذَّبَتْ أَسْلَافُهُمْ مِنْ رُسُلِ اللهِ قَبْلَكَ مَنْ جَاءَهُمْ بِالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ الْعُذْرَ، وَالْأَدِلَّةِ الْبَاهِرَةِ الْعَقْلَ، وَالْآيَاتِ الْمُعْجِزَةِ الْخَلْقَ؛ وَذَلِكَ هُوَ الْبَيِّنَاتُ. وَأَمَّا الزُّبُرُ: فَإِنَّهُ جَمْعُ زَبُورٍ: وَهُوَ الْكِتَابُ.

---

[٢١٤] قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[إبراهيم: ٩]، وَقَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[فاطر: ٢٥-٢٦]، وَقَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[الحج: ٤٢-٤٤]. وَالْآيَاتُ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ.

وَيَعْنِي بِالْكِتَابِ: التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ كَذَّبَتْ عِيسَى وَمَا جَاءَ بِهِ، وَحَرَّفَتْ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَبَدَّلَتْ عَهْدَهُ إِلَيْهِمْ فِيهِ، وَأَنَّ النَّصَارَى جَحَدَتْ مَا فِي الْإِنْجِيلِ مِنْ نَعْتِهِ، وَغَيَّرَتْ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ فِي أَمْرِهِ!.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿الْمُنِيرِ﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي: الَّذِي يُنِيرُ فَيُبَيِّنُ الْحَقَّ لِمَنْ الْتَبَسَ عَلَيْهِ وَيُوَضِّحُهُ.

١٨٥– ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ يَعْنِي: أَنَّ مَصِيرَ هَؤُلَاءِ الْمُفْتَرِينَ عَلَى اللهِ مِنَ الْيَهُودِ الْمُكَذِّبِينَ بِرَسُولِهِ – الَّذِينَ وَصَفَ صِفَتَهُمْ، وَأَخْبَرَ عَنْ جَرَاءَتِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ – وَمَصِيرِ غَيْرِهِمْ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –، وَمَرْجِعِ جَمِيعِهِمْ، إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ حَتَّمَ الْمَوْتَ عَلَى جَمِيعِهِمْ، فَقَالَ لِنَبِيِّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: لَا يَحْزُنْكَ تَكْذِيبُ مَنْ كَذَّبَكَ – يَا مُحَمَّدُ – مِنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ، وَافْتِرَاءُ مَنِ افْتَرَى عَلَيَّ، فَقَدْ كُذِّبَ قَبْلَكَ رُسُلٌ جَاءُوا مِنَ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ مَنْ أُرْسِلُوا إِلَيْهِ، بِمِثْلِ الَّذِي جِئْتَ مَنْ أُرْسِلْتَ إِلَيْهِ، فَلَكَ فِيهِمْ أُسْوَةٌ تَتَعَزَّى بِهِمْ!

وَمَصِيرُ مَنْ كَذَّبَكَ وَافْتَرَى عَلَيَّ – وَغَيْرِهِمْ – وَمَرْجِعُهُمْ إِلَيَّ، فَأُوَفِّي كُلَّ نَفْسٍ مِنْهُمْ جَزَاءَ عَمَلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا قَالَ – جَلَّ ثناؤُهُ –: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[٢١٥]﴾ يَعْنِي: أُجُورَ أَعْمَالِكُمْ: إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ!. ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ[٢١٦]﴾ يَقُولُ: فَمَنْ نُحِّيَ عَنِ النَّارِ وَأُبْعِدَ مِنْهَا ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ يَقُولُ: فَقَدْ نَجَا وَظَفِرَ بِحَاجَتِهِ.

---

[٢١٥] قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ تَمَامَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ لَا يَصِلُ إِلَى الْمُكَلَّفِ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْفَعَةٍ تَصِلُ إِلَى الْمُكَلَّفِ فِي الدُّنْيَا؛ فَهِيَ مُكَدَّرَةٌ بِالْغُمُومِ وَالْهُمُومِ وَبِخَوْفِ الِانْقِطَاعِ وَالزَّوَالِ! وَالْأَجْرُ التَّامُّ وَالثَّوَابُ الْكَامِلُ إِنَّمَا يَصِلُ إِلَى الْمُكَلَّفِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ يَحْصُلُ: السُّرُورُ بِلَا غَمٍّ، وَالْأَمْنُ بِلَا خَوْفٍ، وَاللَّذَّةُ بِلَا أَلَمٍ، وَالسَّعَادَةُ بِلَا خَوْفِ الِانْقِطَاعِ!! وَكَذَا الْقَوْلُ فِي جَانِبِ الْعِقَابِ: فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ فِي الدُّنْيَا أَلَمٌ خَالِصٌ عَنْ شَوَائِبِ اللَّذَّةِ، بَلْ يَمْتَزِجُ بِهِ رَاحَاتٌ وَتَخْفِيفَاتٌ، وَإِنَّمَا الْأَلَمُ التَّامُّ الْخَالِصُ الْبَاقِي؛ هُوَ الَّذِي يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ!! نَعُوذُ بِاللهِ مِنْهُ!.

[٢١٦] قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ؛ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، والنسائي، وابن ماجة؛ وغيرهم].

وَإِنَّمَا مَعْنَى ذَلِكَ: فَمَنْ نُحِّيَ عَنِ النَّارِ فَأُبْعِدَ مِنْهَا وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ؛ فَقَدْ نَجَا وَظَفِرَ بِعَظِيمِ الْكَرَامَةِ!.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا[٢١٧] ﴾يَقُولُ: وَمَا لَذَّاتُ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتُهَا، وَمَا فِيهَا مِنْ زِينَتِهَا وَزَخَارِفِهَا، ﴿إِلَّا مَتَاعُ[٢١٨] الْغُرُورِ﴾يَقُولُ: إِلَّا مُتْعَةٌ يُمَتِّعُكُمُوهَا الْغُرُورُ وَالْخِدَاعُ الْمُضْمَحِلُّ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ عِنْدَ الِامْتِحَانِ! وَلَا صِحَّةَ لَهُ عِنْدَ الِاخْتِبَارِ!.

فَأَنْتُمْ تَلْتَذُّونَ بِمَا مَتَّعَكُمُ الْغُرُورُ مِنْ دُنْيَاكُمْ، ثُمَّ هُوَ عَائِدٌ عَلَيْكُمْ بِالْفَجَائِعِ وَالْمَصَائِبِ وَالْمَكَارِهِ!.

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: لَا تَرْكَنُوا إِلَى الدُّنْيَا فَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا؛ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ مِنْهَا فِي غُرُورٍ تُمَتَّعُونَ، ثُمَّ أَنْتُمْ عَنْهَا بَعْدَ قَلِيلٍ رَاحِلُونَ!!.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ؛ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا!»، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.[٢١٩]

١٨٦– ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ﴾يَعْنِي: لَتُخْتَبَرُنَّ بِالْمَصَائِبِ فِي أَمْوَالِكُمْ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾يَعْنِي: وَبِهَلَاكِ الْأَقْرِبَاءِ وَالْعَشَائِرِ مِنْ أَهْلِ نُصْرَتِكُمْ وَمِلَّتِكُمْ ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾يَعْنِي: مِنَ الْيَهُودِ وَقَوْلِهِمْ ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، وَقَوْلِهِمْ: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ افْتِرَائِهِمْ عَلَى اللهِ ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾يَعْنِي: النَّصَارَى، ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ وَالْأَذَى مِنَ الْيَهُودِ مَا ذَكَرْنَا، وَمِنَ النَّصَارَى قَوْلُهُمْ: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ كُفْرِهِمْ بِاللهِ. ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾يَقُولُ: وَإِنْ تَصْبِرُوا لِأَمْرِ اللهِ الَّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ فِيهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ مِنْ طَاعَتِهِ ﴿وَتَتَّقُوا﴾يَقُولُ: وَتَتَّقُوا اللهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاكُمْ، فَتَعْمَلُوا فِي ذَلِكَ بِطَاعَتِهِ؛ ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾يَقُولُ: فَإِنَّ ذَلِكَ الصَّبْرَ وَالتَّقْوَى مِمَّا عَزَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَمَرَكُمْ بِهِ.

---

[٢١٧] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ:** وَوُصِفَتْ هَذِهِ الْحَيَاةُ بِـ(الدُّنْيَا)؛ لِوَجْهَيْنِ:
الْأَوَّلُ: لِدُنُوِّهَا زَمَنًا؛ لِأَنَّهَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، الثَّانِي: لِدُنُوِّهَا قَدْرًا؛ لِأَنَّهَا بِالنِّسْبَةِ لِلْآخِرَةِ دَانِيَة، مِنَ الدُّنُوِّ؛ وَهُوَ الِانْحِطَاطُ! اهـ. بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ

[٢١٨] (**الْمَتَاعُ**): هُوَ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ صَاحِبُهُ بُرْهَةً ثُمَّ يَنْقَطِعُ! وَيَضْمَحِلُّ! وَيَفْنَى!! فَمَا عِيبَتِ الدُّنْيَا بِأَبْلَغَ مِنْ فَنَائِهَا، وَتَقَلُّبِ أَحْوَالِهَا!!.

[٢١٩] صحيح: رواه البخاري، وأحمد عن سهل بن سعد، والترمذي، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم.

١٨٧- ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ[٢٢٠]﴾يَعْنِي: وَاذْكُرْ أَيْضًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْهُمْ - يَا مُحَمَّدُ - إِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَهُمْ، لَيُبَيِّنُنَّ لِلنَّاسِ أَمْرَكَ الَّذِي أَخَذَ مِيثَاقَهُمْ عَلَى بَيَانِهِ لِلنَّاسِ فِي كِتَابِهِمُ الَّذِي فِي أَيْدِيهِمْ - وَهُوَ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ -، وَأَنَّكَ لِلَّهِ رَسُولٌ مُرْسَلٌ بِالْحَقِّ، وَلَا يَكْتُمُونَهُ، ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ[٢٢١]﴾يَقُولُ: فَتَرَكُوا أَمْرَ اللهِ وَضَيَّعُوهُ، وَنَقَضُوا مِيثَاقَهُ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، فَكَتَمُوا أَمْرَكَ، وَكَذَّبُوا بِكَ ﴿وَاشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾يَقُولُ: وَابْتَاعُوا بِكِتْمَانِهِمْ مَا أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ أَنْ لَا يَكْتُمُوهُ مِنْ أَمْرِ نُبُوَّتِكَ، عِوَضًا مِنْهُ خَسِيسًا قَلِيلًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا.

ثُمَّ ذَمَّ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - شِرَاءَهُمْ مَا اشْتَرُوْا بِهِ مِنْ ذَلِكَ؛ فَقَالَ: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾يَقُولُ: فَبِئْسَ الشِّرَاءُ يَشْتَرُونَ فِي تَضْيِيعِهِمُ الْمِيثَاقَ وَتَبْدِيلِهِمُ الْكِتَابَ!!.

١٨٨- ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾يَعْنِي: لَا تَحْسَبَنَّ - يَا مُحَمَّدُ - الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا مِنْ كِتْمَانِهِمُ النَّاسَ أَمْرَكَ، وَأَنَّكَ لِي رَسُولٌ مُرْسَلٌ بِالْحَقِّ، وَهُمْ يَجِدُونَكَ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي كُتُبِهِمْ، وَقَدْ أَخَذْتُ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ بِالْإِقْرَارِ بِنُبُوَّتِكَ، وَبَيَانِ أَمْرِكَ لِلنَّاسِ، وَأَنْ لَا يَكْتُمُوهُمْ ذَلِكَ، وَهُمْ مَعَ نَقْضِهِمْ مِيثَاقِي الَّذِي أَخَذْتُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ؛ يَفْرَحُونَ بِمَعْصِيَتِهِمْ إِيَّايَ فِي ذَلِكَ! وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرِي، وَيُحِبُّونَ أَنْ يَحْمَدَهُمُ النَّاسُ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ طَاعَةٍ لِلَّهِ وَعُبَادَةٍ وَصَلَاةٍ وَصَوْمٍ! وَاتِّبَاعٍ لَوَحْيِهِ وَتَنْزِيلِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ، وَهُمْ مِنْ ذَلِكَ أَبْرِيَاءُ أَخْلِيَاءُ - لِتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ، وَنَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ - لَمْ يَفْعَلُوا شَيْئًا مِمَّا يُحِبُّونَ أَنْ يَحْمَدَهُمُ النَّاسُ عَلَيْهِ!!.

---

[٢٢٠] عَنْ أَبِي رَافِعٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: لَوْلَا مَا أَخَذَ اللهُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ؛ مَا حَدَّثْتُكُمْ بِشَيْءٍ! ثُمَّ تَلَا: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ**﴾ [أخرجه الحاكم، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولا أعلم له علة، ووافقه الذهبي].

وَفِي صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: لَوْلَا مَا أَخَذَ اللهُ عَلَيَّ فِي الْكِتَابِ؛ مَا حَدَّثْتُكُمْ بِشَيْءٍ![صححه الألباني في التعليقات الحسان(٥٦٥٥)].

[٢٢١] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: قَوْلُهُ: ﴿**فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ**﴾فَإِنَّهُ مَثَلٌ لِتَضْيِيعِهِمُ الْقِيَامَ بِالْمِيثَاقِ، وَتَرْكِهِمُ الْعَمَلَ بِهِ.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾: فَلَا تَظُنَّهُمْ بِمَنْجَاةٍ مِنْ عَذَابِ اللهِ الَّذِي أَعَدَّهُ لِأَعْدَائِهِ فِي الدُّنْيَا - مِنَ الْخَسْفِ وَالْمَسْخِ وَالرَّجْفِ وَالْقَتْلِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ عِقَابِ اللهِ - وَلَا هُمْ بِبَعِيدٍ مِنْهُ.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾يَقُولُ: وَلَهُمْ عَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ أَيْضًا مُؤْلِمٌ، مَعَ الَّذِي لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مُعَجَّلٌ!.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، إِذَا خَرَجَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى الْغَزْوِ؛ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ! وَإِذَا قَدِمَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ السَّفَرِ؛ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ، وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا!! فَأَنْزَلَ اللهُ - تَعَالَى - فِيهِمْ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾الْآيَةَ.[٢٢٢]

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ، أَنَّ حُمَيْدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَخْبَرَهُ، أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ قَالَ لِبَوَّابِهِ: يَا رَافِعُ! اذْهَبْ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقُلْ لَهُ: لَئِنْ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ مِنَّا فَرِحَ بِمَا أَتَى وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ مُعَذَّبًا؛ لَنُعَذَّبَنَّ جَمِيعًا!! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا لَكُمْ وَلِهَذِهِ الْآيَةِ؟ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ تَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ، وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ! فَخَرَجُوا وَقَدْ أَرَوْهُ أَنْ قَدْ أَخْبَرُوهُ بِمَا قَدْ سَأَلَهُمْ عَنْهُ، فَاسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ، وَفَرِحُوا بِمَا أَتَوْا مِنْ كِتْمَانِهِمْ إِيَّاهُ مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ!!.[٢٢٣]

١٨٩- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَهَذَا تَكْذِيبٌ مِنَ اللهِ - جَلَّ ثناؤُهُ - الَّذِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، يَقُولُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - مُكَذِّبًا لَهُمْ: لِلَّهِ مُلْكُ جَمِيعِ مَا حَوَتْهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَكَيْفَ يَكُونُ - أَيُّهَا الْمُفْتَرُونَ عَلَى اللهِ - مَنْ كَانَ مُلْكُ ذَلِكَ لَهُ فَقِيرًا؟!.

---

٢٢٢ صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم.

٢٢٣ صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي، والنسائي في الكبرى؛ وغيرهم. قُلْتُ: فَهَذَانِ الْحَدِيثَانِ وَرَدَا فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ فِي(تُحْفَةِ الْأَحْوَذِيِّ): قَالَ الْحَافِظُ: وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بِأَنْ تَكُونَ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الْفَرِيقَيْنِ مَعًا، وَبِهَذَا أَجَابَ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ – جَلَّ ثناؤُهُ – أَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى تَعْجِيلِ الْعُقُوبَةِ لِقَائِلِي ذَلِكَ – وَلِكُلِّ مُكَذِّبٍ بِهِ وَمُفْتَرٍ عَلَيْهِ، وَعَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَرَادَ وَأَحَبَّ وَلَكِنَّهُ تَفضَّلَ بِحِلْمِهِ عَلَى خَلْقِهِ –، فَقَالَ: ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يَعْنِي: مِنْ إِهْلَاكِ قَائِلِ ذَلِكَ، وَتَعْجِيلِ عُقُوبَتِهِ لَهُمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ.

١٩٠– ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ[٢٢٤]﴾

وَهَذَا احْتِجَاجٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عَلَى قَائِلِ ذَلِكَ – وَعَلَى سَائِرِ خَلْقِهِ – بِأَنَّهُ الْمُدَبِّرُ الْمُصَرِّفُ الْأَشْيَاءَ، وَالْمُسَخِّرُ مَا أَحَبَّ، وَإِنَّ الْإِغْنَاءَ وَالْإِفْقَارَ إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ؛ فَقَالَ جَلَّ ثناؤُهُ:

تَدَبَّرُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَاعْتَبِرُوا! فَفِيمَا أَنْشَأْتُهُ فَخَلَقْتُهُ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِمَعَاشِكُمْ وَأَقْوَاتِكُمْ وَأَرْزَاقِكُمْ، وَفِيمَا عَقَّبْتُ بَيْنَهُ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَجَعَلْتُهُمَا يَخْتَلِفَانِ وَيَعْتَقِبَانِ عَلَيْكُمْ، تَتَصَرَّفُونَ فِي هَذَا لِمَعَاشِكُمْ، وَتَسْكُنُونَ فِي هَذَا رَاحَةً لِأَجْسَادِكُمْ، مُعْتَبَرٌ وَمُدَّكَرٌ، وَآيَاتٌ وَعِظَاتٌ.

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ ذَا لُبٍّ وَعَقْلٍ؛ يَعْلَمُ أَنَّ مَنَ نَسَبَنِي إِلَى أَنِّي فَقِيرٌ وَهُوَ غَنِيٌّ كَاذِبٌ مُفْتَرٍ!! فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ بِيَدِي أُقَلِّبُهُ وَأُصَرِّفُهُ، وَلَوْ أَبْطَلْتُ ذَلِكَ لَهَلَكْتُمْ! فَكَيْفَ يُنْسَبُ إِلَى فَقْرٍ مَنْ كَانَ كُلُّ مَا

---

[٢٢٤] عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ عَلَى عَائِشَةَ، فَقَالَتْ لِعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ: قَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَزُورَنَا، فقَالَ: أَقُولُ يَا أُمَّهْ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا! قَالَ: فَقَالَتْ: دَعُونَا مِنْ رَطَانَتِكُمْ هَذِهِ! قَالَ ابْنُ عُمَيْرٍ: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: فَسَكَتَتْ! ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ! ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي!**» قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ! قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ! قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ!! فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ!؟ قَالَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا! لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** إِلَى قَوْلِهِ: **﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**»

[حسن: رواه ابن حبان في صحيحه، وأبو الشيخ في أخلاق النبي؛ وحسنه الألباني في الصحيحة(٦٨)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٤٦٨)، والتعليقات الحسان(٦١٩)].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً، ثُمَّ رَقَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ؛ فَقَالَ: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾**، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ، فَصَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ[صحيح: رواه البخاري – واللفظ له –، ومسلم، وأبو داود، والنسائي؛ وغيرهم]. قَوْلُهُ: (وَاسْتَنَّ): الِاسْتِنَانُ: اسْتِعْمَالُ السِّوَاكِ، وَهُوَ افْتِعَالٌ مِنَ الْأَسْنَانِ، أَيْ: يُمِرُّهُ عَلَيْهَا.

بِهِ عَيْشُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِيَدِهِ وَإِلَيْهِ؟! أَمْ كَيْفَ يَكُونُ غَنِيًّا مَنْ كَانَ رِزْقُهُ بِيَدِ غَيْرِهِ: إِذَا شَاءَ رَزَقَهُ، وَإِذَا شَاءَ حَرَمَهُ؟!! فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ!.

١٩١- ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ[٢٢٥]﴾مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ؛ الذَّاكِرِينَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ. يَعْنِي بِذَلِكَ: قِيَامًا فِي صَلَاتِهِمْ، وَقُعُودًا فِي تَشَهُّدِهِمْ وَفِي غَيْرِ صَلَاتِهِمْ، وَعَلَى جُنُوبِهِمْ نِيَامًا.[٢٢٦] ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾يَعْنِي: أَنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ بِصَنْعَةِ صَانِعِ ذَلِكَ، فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ! وَمَنْ هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَازِقُهُ! وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ

---

[٢٢٥] عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَذْكُرُ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، وابن خزيمة في صحيحه؛ وغيرهم]. قَوْلُهُ: (عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ) أَيْ: فِي كُلِّ أَوْقَاتِهِ: مُتَطَهِّرًا، وَمُحْدِثًا، وَجُنُبًا، وَقَائِمًا، وَقَاعِدًا، وَمُضْطَجِعًا، وَمَاشِيًا [شرح مسلم للنووي، بتصرف يسير].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، عَنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ؛ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ! [وَمَنْ قَامَ مَقَامًا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ؛ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ!]، وَمَنِ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهِ؛ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ! [وَمَا مَشَى أَحَدٌ مَمْشًى لَمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ؛ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِ تِرَةً! وَمَا أَوَى أَحَدٌ إِلَى فِرَاشِهِ وَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ؛ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِ تِرَةً!]**»[صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي في الكبرى - وما بين المعقوفين الأول له -، وابن حبان في صحيحه - وما بين المعقوفين الثاني له -؛ وغيرهم، وصححه الألباني في الصحيحة(٧٨)، وصحيح الجامع(٦٤٧٧)، وصحيح الترغيب والترهيب(٦١١)، والمشكاة(٢٢٧٢)، والتعليقات الحسان(٨٥٠)].

(**تِرَةٌ**) أَيْ: تَبِعَةٌ وَمُعَاتَبَةٌ، أَوْ نُقْصَانٌ وَحَسْرَةٌ! مِنْ وَتَرَهُ حَقَّهُ: نَقَصَهُ، وَهُوَ سَبَبُ الْحَسْرَةِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ مَنْ فَتَرَ سَاعَةً مِنَ الْأَزْمِنَةِ، وَفِي مَكَانٍ مِنَ الْأَمْكِنَةِ، وَفِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ - مِنْ قِيَامٍ وَقُعُودٍ وَرُقُودٍ -؛ كَانَ عَلَيْهِ حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ؛ لِأَنَّهُ ضَيَّعَ عَظِيمَ ثَوَابِ الذِّكْرِ!.

[مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح؛ لعلي القاري، بتصرف يسير]. قُلْتُ: وَالْأَحَادِيثُ فِي فَضَائِلِ الذِّكْرِ كَثِيرَةٌ جِدًّا، لَا يَتَّسِعُ الْمَقَامُ لِذِكْرِهَا هُنَا، فَانْظُرْهَا - لِلْفَائِدَةِ - فِي صَحِيحِ الْجَامِعِ؛ وَهَاكَ أَرْقَامَهَا:

[١٦٥-٣٣٣-١١٧٣-١٦٠٩-١٧٢٤-١٩٠٦-٢١٧٣-٢٥٤٣-٢٦٢٩-٢٦٦٥-٢٧٣٨-٣٢٨٢-٣٦٥٥-٣٩٥٧-٤٠٦٧-٤٠٩٩-٤٣٢٢-٤٣٢٥-٤٣٣٥-٤٩٤٣-٥٠٣٦-٥٣٧١-٥٥٠٦-٥٥٠٧-٥٥٠٨-٥٥٠٩-٥٥١٠-٥٥٩٩-٥٦٠٧-٥٦٠٨-٥٦٠٩-٥٦١٠-٥٦٤٤-٥٧٢٠-٥٧٤٨-٥٨٢٧-٦٤٧٧-٧٦٢٤-٧٧٠٠-٧٧٥٧-٨١٣٧].

[٢٢٦] قُلْتُ: وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذِكْرِ اللهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الصَّلَاةُ؛ فَيَكُونُ تَفْسِيرُ الْآيَةِ: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا**﴾ فِي صَلَاتِهِمْ حِينَ الِاسْتِطَاعَةِ ﴿**وَقُعُودًا**﴾ حِينَ الْعَجْزِ عَنِ الْقِيَامِ ﴿**وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**﴾ حِينَ الْعَجْزِ عَنِ الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ.

وَاسْتُدِلَّ لِهَذَا الْقَوْلِ؛ بِمَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَأَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمْ، مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، قَالَ: كَانَتْ بِي بَوَاسِيرُ، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ: «**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ؛ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ؛ فَعَلَى جَنْبٍ**».

وَمُدَبِّرُهُ، وَمَنْ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَبِيَدِهِ الْإِغْنَاءُ وَالْإِفْقَارُ، وَالْإِعْزَازُ وَالْإِذْلَالُ، وَالْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ، وَالشَّقَاءُ وَالسَّعَادَةُ!!.

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾يَعْنِي: وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ[٢٢٧]، قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾يَقُولُ: لَمْ تَخْلُقْ هَذَا الْخَلْقَ عَبَثًا وَلَا لَعِبًا، لَمْ تَخْلُقْهُ إِلَّا لِأَمْرٍ عَظِيمٍ؛ مِنْ ثَوَابٍ وَعِقَابٍ وَمُحَاسَبَةٍ وَمُجَازَاةٍ! ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾يَعْنِي: تَنْزِيهًا لَكَ مِنْ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا عَبَثًا، وَلَكِنَّكَ خَلَقْتَهُمْ لَعَظِيمٍ مِنَ الْأَمْرِ؛ لِجَنَّةٍ أَوْ نَارٍ!!.

ثُمَّ فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِالْمَسْأَلَةِ أَنْ يُجِيرَهُمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَأَنْ لَا يَجْعَلَهُمْ مِمَّنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ، فَيَكُونُوا مِنْ أَهْلِ جَهَنَّمَ:

١٩٢- ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾مَعْنَى ذَلِكَ: مَنْ أُدْخِلَ النَّارَ فَقَدْ أُخْزِيَ بِدُخُولِهِ إِيَّاهَا؛ وَإِنْ أُخْرِجَ مِنْهَا.

وَذَلِكَ أَنَّ الْخِزْيَ إِنَّمَا هُوَ هَتْكُ سِتْرُ الْمَخْزِيِّ وَفَضِيحَتُهُ! وَمَنْ عَاقَبَهُ رَبُّهُ فِي الْآخِرَةِ عَلَى ذُنُوبِهِ؛ فَقَدْ فَضَحَهُ بِعِقَابِهِ إِيَّاهُ؛ وَذَلِكَ هُوَ الْخِزْيُ!.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾يَقُولُ: وَمَا لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللهِ فَعَصَاهُ، مِنْ ذِي نُصْرَةٍ لَهُ يَنْصُرُهُ مِنَ اللهِ، فَيُدْفَعُ عَنْهُ عِقَابَهُ، أَوْ يُنْقِذهُ مِنْ عَذَابِهِ.

١٩٣- ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾تَأْوِيلُ الْآيَةِ: رَبَّنَا سَمِعْنَا دَاعِيًا يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ – يَقُولُ: إِلَى التَّصْدِيقِ بِكَ، وَالْإِقْرَارِ بِوَحْدَانِيَّتِكَ، وَاتِّبَاعِ رَسُولِكَ، وَطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَنَا بِهِ وَنَهَانَا عَنْهُ مِمَّا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِكَ – ﴿فَآمَنَّا رَبَّنَا﴾يَقُولُ: فَصَدَّقْنَا بِذَلِكَ يَا رَبَّنَا، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾يَقُولُ: فَاسْتُرْ عَلَيْنَا خَطَايَانَا، وَلَا تَفْضَحْنَا بِهَا فِي الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ، بِعُقُوبَتِكَ إِيَّانَا عَلَيْهَا، وَلَكِنْ كَفِّرْهَا عَنَّا،

---

[٢٢٧] قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللهِ**»[صحيح الجامع(٢٩٧٦)، وانظر الصحيحة(١٧٨٨)].

وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، فَامْحُهَا بِفَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ إِيَّانَا، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ[228]﴾يَعْنِي: وَاقْبِضْنَا إِلَيْكَ – إِذَا قَبَضْتَنَا إِلَيْكَ – فِي عِدَادِ الْأَبْرَارِ، وَاحْشُرْنَا مَحْشَرَهُمْ وَمَعَهُمْ!.

١٩٤– ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رِسْلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾تَأْوِيلُ الْكَلَامِ: رَبَّنَا أَعْطِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى أَلْسُنِ رِسْلِكَ: أَنَّكَ تُعْلِي كَلِمَتَكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ، بِتَأْيِيدِنَا عَلَى مَنْ كَفَرَ بِكَ وَحَادَّكَ وَعَبَدَ غَيْرَكَ! وَعَجِّلْ لَنَا ذَلِكَ، فَإِنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنَّكَ لَا تُخْلِفُ مِيعَادَكَ، وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتَفْضَحَنَا بِذُنُوبِنَا الَّتِي سَلَفَتْ مِنَّا، وَلَكِنْ كَفِّرْهَا عَنَّا وَاغْفِرْهَا لَنَا.

١٩٥– ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾يَعْنِي: فَأَجَابَ هَؤُلَاءِ الدَّاعِينَ – بِمَا وَصَفَ اللهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ دَعَوْا بِهِ – رَبُّهُمْ؛ بِأَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ عَمِلَ خَيْرًا، ذَكَرًا كَانَ الْعَامِلُ أَوْ أُنْثَى.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللهِ! لَا أَسْمَعُ اللهَ ذَكَرَ النِّسَاءَ فِي الْهِجْرَةِ بِشَيْءٍ»؛ فَأَنْزَلَ اللهُ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى –: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾.[229]

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: بَعْضُكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ – مِنْ بَعْضٍ؛ فِي النُّصْرَةِ وَالْمِلَّةِ وَالدِّينِ، وَحُكْمُ جَمِيعِكُمْ فِيمَا أَنَا بِكُمْ فَاعِلٌ، عَلَى حُكْمِ أَحَدِكُمْ فِي أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ ذَكَرٍ مِنْكُمْ وَلَا أُنْثَى.

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ قَوْمَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَعَشِيرَتَهُمْ فِي اللهِ، إِلَى إِخْوَانِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِاللهِ ، وَالتَّصْدِيقِ بِرَسُولِهِ، ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ – وَهُمُ الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ أَخْرَجَهُمْ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ

---

[228] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَالْأَبْرَارُ جَمْعُ بَرٍّ؛ وَهُمُ الَّذِينَ بَرُّوا اللهَ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – بِطَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ وَخِدْمَتِهِمْ لَهُ، حَتَّى أَرْضَوْهُ فَرَضِيَ عَنْهُمْ.
عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّهُ كَانَ فِيمَا يَدْعُو: «**اللَّهُمَّ تَوَفَّنِي مَعَ الْأَبْرَارِ، وَلَا تُخْلِفْنِي فِي الْأَشْرَارِ، وَأَلْحِقْنِي بِالْأَخْيَارِ**». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ؛ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ(٤٩٠).

[229] صحيح: رواه الترمذي، والبيهقي في معرفة السنن والآثار، والطبراني في الكبير، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي(٣٠٢٣).

مِنْ دِيَارِهِمْ بِمَكَّةَ – ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾يَعْنِي: وَأُوذُوا فِي طَاعَتِهِمْ رَبَّهُمْ، وَعِبَادَتِهِمْ إِيَّاهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ؛ وَذَلِكَ هُوَ سَبِيلُ اللهِ الَّتِي آذَى فِيهَا الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ الْمُؤْمِنِينَ بِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ أَهْلِهَا، ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾يَعْنِي: وَقُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَاتَلُوا فِيهَا؛ ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾يَعْنِي: لَأَمْحُوَنَّهَا عَنْهُمْ، وَلَأَتَفَضَّلَنَّ عَلَيْهِمْ بِعَفْوِي وَرَحْمَتِي، وَلَأَغْفِرَنَّهَا لَهُمْ! ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا﴾يَعْنِي: جَزَاءً لَهُمْ عَلَى مَا عَمِلُوا وَأَبْلُوا فِي اللهِ وَفِي سَبِيلِهِ، ﴿مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾يَعْنِي: مِنْ قِبَلِ اللهِ لَهُمْ، ﴿وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾يَعْنِي: أَنَّ اللهَ عِنْدَهُ مِنْ جَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ جَمِيعُ صُنُوفِهِ! وَذَلِكَ مَا لَا يَبْلُغُهُ وَصَفُ وَاصِفٍ؛ لِأَنَّهُ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بِشْرٍ!!.

[عَنْ][230] عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، يَقُولُ: لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ ثُلَّةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ؛ الَّذِينَ تُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهِ، إِذَا أُمِرُوا سَمِعُوا وَأَطَاعُوا، وَإِنْ كَانَتْ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ حَاجَةٌ إِلَى السُّلْطَانِ لَمْ تُقْضَ حَتَّى يَمُوتَ وَهِيَ فِي صَدْرِهِ! وَإِنَّ اللهَ يَدْعُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْجَنَّةَ، فَتَأْتِي بِزُخْرُفِهَا وَزِينَتِهَا، فَيَقُولُ: أَيْنَ عِبَادِيَ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي، وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِي؟ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ! فَيَدْخُلُونَهَا بِغَيْرِ عَذَابٍ وَلَا حِسَابٍ!! وَتَأْتِي الْمَلَائِكَةُ فَيَسْجُدُونَ، وَيَقُولُونَ: رَبَّنَا! نَحْنُ نُسَبِّحُ لَكَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَنُقَدِّسُ لَكَ! مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آثَرْتَهُمْ عَلَيْنَا!؟ فَيَقُولُ الرَّبُّ – جَلَّ ثناؤُهُ –: هَؤُلَاءِ عِبَادِي الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِي، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي، فَتَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾».[231]

---

[230] مَا بَيْنَ الْمَعْقُوفَيْنِ زِيَادَة مِنِّي، مِنْ أَجْلِ الِاخْتِصَارِ.

[231] صحيح: رواه أحمد، والبيهقي في الشعب، والطبراني في الكبير، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٢٥٥٩)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٣٧٣)، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند(٦٥٧١).

١٩٧- ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾يَعْنِي: وَلَا يَغُرَّنَّكَ - يَا مُحَمَّدُ - ﴿تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾يَعْنِي: تَصَرُّفَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَضَرْبَهُمْ فِيهَا.

فَنَهَى اللهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - نَبِيَّهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ الِاغْتِرَارِ بِضَرْبِهِمْ فِي الْبِلَادِ، وَإِمْهَالِ اللهِ إِيَّاهُمْ، مَعَ شِرْكِهِمْ، وَجُحُودِهِمْ نِعَمَهُ، وَعِبَادَتِهِمْ غَيْرَهُ!.

وَخَرَجَ الْخِطَابُ بِذَلِكَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَالْمَعْنِيُّ بِهِ غَيْرُهُ مِنْ أَتْبَاعِهِ وَأَصْحَابِهِ.

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ[٢٣٢] ﴾يَعْنِي: أَنَّ تَقَلُّبَهُمْ فِي الْبِلَادِ وَتَصَرُّفَهُمْ فِيهَا، مُتْعَةٌ يُمَتَّعُونَ بِهَا قَلِيلًا حَتَّى يَبْلُغُوا آجَالَهُمْ، فَتَخْتَرِمَهُمْ مَنِيَّاتُهُمْ، ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ!!.

وَالْمَأْوَى: الْمَصِيرُ الَّذِي يَأْوُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَصِيرُونَ فِيهِ. ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾يَعْنِي: وَبِئْسَ الْفِرَاشُ وَالْمَضْجَعُ جَهَنَّمُ!.

١٩٨- ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ[٢٣٣] ﴾يَعْنِي: لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوُا اللهَ بِطَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ مَرْضَاتِهِ، فِي الْعَمَلِ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَاجْتِنَابِ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ، ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾يَعْنِي: بَسَاتِينَ ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

---

[٢٣٢] (**الْمَتَاعُ**): هُوَ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ صَاحِبُهُ بُرْهَةً ثُمَّ يَنْقَطِعُ! وَيَضْمَحِلُّ! وَيَفْنَى!! فَمَا عِيبَتِ الدُّنْيَا بِأَبْلَغَ مِنْ فَنَائِهَا، وَتَقَلُّبِ أَحْوَالِهَا!!. وَوَصَفَ اللهُ - تَعَالَى - الْمَتَاعَ بِالْقِلَّةِ؛ لِأَنَّهُ فَانٍ، وَكُلُّ فَانٍ - وَإِنْ كَانَ كَثِيرًا -؛ فَهُوَ قَلِيلٌ!.

قَالَ تَعَالَى: ﴿**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى**﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، [فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً؛ فَيُغْمَسُ فِيهَا، ثُمَّ يُخْرَجُ! ثُمَّ يُقَالُ لَهُ:] يَا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟! هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟! فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ!!**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، وابن ماجة - وما بين المعقوفين له -].

[٢٣٣] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ:** وَهُنَا قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: مَا وَجْهُ مَجِيءِ الِاسْتِدْرَاكِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿**لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ**﴾؟ وَجْهُ الِاسْتِدْرَاكِ: أَنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَوْ حَصَلَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِثْلَ مَا حَصَلَ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ؛ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ حَائِلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا عِنْدَ اللهِ؛ يَعْنِي: قَدْ يَحْصُلُ تَقَلُّبُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْبِلَادِ كَتَقَلُّبِ الْكُفَّارِ، فَهَلْ يَكُونُ مَأْوَى الْمُتَّقِينَ كَمَأْوَى الْكَافِرِينَ؟ الْجَوَابُ: لَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿**لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ**﴾فَالِاسْتِدْرَاكُ هُنَا مِنْ أَلْطَفِ مَا يَكُونُ؛ لِئَلَّا يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّ اللهَ لَوْ مَكَّنَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَقَلَّبُوا فِي الْبِلَادِ تَقَلُّبَ الْكُفَّارِ؛ لَفَاتَهُمْ مَا عِنْدَ اللهِ! فَبَيَّنَ أَنَّهُ لَنْ يَفُوتَهُمْ؛ فَقَالَ: ﴿**لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ**﴾.

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يَقُولُ: بَاقِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ يَعْنِي: إِنْزَالًا مِنَ اللهِ إِيَّاهُمْ فِيهَا، أنْزلوهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ يَعْنِي: مِنْ قِبَلِ اللهِ، وَمِنْ كَرَامَةِ اللهِ إِيَّاهُمْ، وَعَطَايَاهُ لَهُمْ.

﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ﴾ يَقُولُ: وَمَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْكَرَامَةِ، وَحُسْنِ الْمَآبِ؛ ﴿خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ مِمَّا يَتَقَلَّبُ فِيهِ الَّذِينَ كَفَرُوا؛ فَإِنَّ الَّذِي يَتَقَلَّبُونَ فِيهِ زَائِلٌ فَانٍ، وَهُوَ قَلِيلٌ مِنَ الْمَتَاعِ خَسِيسٌ! وَمَا عِنْدَ اللهِ مِنْ كَرَامَتِهِ لِلْأَبْرَارِ – وَهُمْ أَهْلُ طَاعَتِهِ – بَاقٍ غَيْرُ فَانٍ وَلَا زَائِلٍ!.

١٩٩– ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ – التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ – ﴿لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾، فَيُقِرُّ بِوَحْدَانِيَّتِهِ، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ –، يَقُولُ: وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِهِ وَوَحْيِهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يَعْنِي: وَمَا أُنْزِلَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْكُتُبِ، وَذَلِكَ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ، ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ يَعْنِي: خَاضِعِينَ لِلَّهِ بِالطَّاعَةِ، مُسْتَكِينِينَ لَهُ بِهَا مُتَذَلِّلِينَ، ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا[٢٣٤]﴾ يَقُولُ: لَا يُحَرِّفُونَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ فِي كُتُبِهِ مِنْ نَعْتِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَيُبَدِّلُونَهُ، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِهِ وَحُجَجِهِ فِيهِ، لِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا خَسِيسٍ يُعْطُونَهُ عَلَى ذَلِكَ التَّبْدِيلَ! وَابْتِغَاءَ الرِّيَاسَةِ عَلَى الْجُهَّالِ، وَلَكِنْ يَنْقَادُونَ لِلْحَقِّ، فَيَعْمَلُونَ بِمَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ فِيمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ كُتُبِهِ، وَيَنْتَهُونَ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ فِيهَا، وَيُؤْثِرُونَ أَمْرَ اللهِ – تَعَالَى – عَلَى هَوَى أَنْفُسِهِمْ.

---

[٢٣٤] عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: لَمَّا جَاءَ نَعْيُ النَّجَاشِيِّ قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**صَلُّوا عَلَيْهِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! نُصَلِّي عَلَى عَبْدٍ حَبَشِيٍّ[لَيْسَ بِمُسْلِمٍ]؟! فَأَنْزَلَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ**﴾ [صحيح: رواه النسائي في الكبرى، والدارقطني في الأفراد، والضياء في المختارة؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٣٠٤٤)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «[نَعَى رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – النَّجَاشِيَّ لِأَصْحَابِهِ بِالْمَدِينَةِ] فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، [فَقَالَ: «**اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ**»]، فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى الْمُصَلَّى، [فَصَفُّوا وَرَاءَهُ]، وَكَبَّرَ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم].

﴿أُولَئِكَ﴾يَعْنِي: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ؛ ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ[٢٣٥]﴾يَعْنِي: لَهُمْ عِوَضُ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا، وَثَوَابُ طَاعَتِهِمْ رَبَّهُمْ فِيمَا أَطَاعُوهُ فِيهِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، يَعْنِي: مَذْخُورٌ ذَلِكَ لَهُمْ لَدَيْهِ، حَتَّى يَصِيرُوا إِلَيْهِ فِي الْقِيَامَةِ، فَيُوَفِّيَهُمْ ذَلِكَ ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، وَسُرْعَةُ حِسَابِهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلُوهَا، وَبَعْدَ مَا عَمِلُوهَا! فَلَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى إِحْصَاءِ عَدَدِ ذَلِكَ، فَيَقَعُ فِي الْإِحْصَاءِ إِبْطَاءٌ؛ فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

٢٠٠– ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، ﴿اصْبِرُوا[٢٣٦]﴾ عَلَى دِينِكُمْ، وَطَاعَةِ رَبِّكُمْ.

عَنَى بِقَوْلِهِ: ﴿اصْبِرُوا﴾: الْأَمْرَ بِالصَّبْرِ عَلَى جَمِيعِ مَعَانِي طَاعَةِ اللهِ فِيمَا أَمَرَ وَنَهَى؛ صَعْبِهَا وَشَدِيدِهَا، وَسَهْلِهَا وَخَفِيفِهَا.

﴿وَصَابِرُوا﴾يَعْنِي: وَصَابِرُوا أَعْدَاءَكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

أُمِرَ الْمُؤْمِنُونَ أَنْ يُصَابِرُوا غَيْرَهُمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، حَتَّى يُظَفِّرَهُمُ اللهُ بِهِمْ، وَيُعْلِيَ كَلِمَتَهُ، وَيُخْزِيَ أَعْدَاءَهُمْ، وَأَنْ لَا يَكُونَ عَدُوُّهُمْ أَصْبَرَ مِنْهُمْ!.

---

[٢٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾أَيِ: الْأَجْرُ الْمُخْتَصُّ بِهِمْ الْمَوْعُودُ لَهُمْ، بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾يَعْنِي: يُؤْتَوْنَ ثَوَابَ عَمَلِهِمْ مَرَّتَيْنِ: بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ وَثَبَاتِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَالْكِتَابِ الْآخِرِ، وَبِالنَّبِيِّ الْأَوَّلِ وَالنَّبِيِّ الْآخِرِ.

عَنْ أَبِي مُوسَى – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ...» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم – واللفظ له –، وأحمد، والترمذي، والنسائي؛ وغيرهم].

[٢٣٦] قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، وَقَالَ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ؛ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ!» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي؛ وغيرهم].

﴿وَرَابِطُوا[٢٣٧] ﴾مَعْنَاهُ: وَرَابِطُوا أَعْدَاءَكُمْ وَأَعْدَاءَ دِينِكُمْ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، فِي سَبِيلِ اللهِ.

---

[٢٣٧] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَرَى أَنَّ أَصْلَ الرِّبَاطِ: ارْتِبَاطُ الْخَيْلِ لِلْعَدُوِّ، كَمَا ارْتَبَطَ عَدُوُّهُمْ لَهُمْ خَيْلَهُمْ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ ذَلِكَ فِي كُلِّ مُقِيمٍ فِي ثَغْرٍ يَدْفَعُ عَمَّنْ وَرَاءَهُ مَنْ أَرَادَهُ مِنْ أَعْدَائِهِمْ بِسُوءٍ، وَيَحْمِي عَنْهُمْ مِنْ بَيْنِهِ وَبَيْنَهُمْ مِمَّنْ بَغَاهُمْ بِشَرٍّ، كَانَ ذَا خَيْلٍ قَدِ ارْتَبَطَهَا، أَوْ ذَا رِجْلَةٍ لَا مَرْكَبَ لَهُ اهـ.

ذِكْرُ بَعْضِ مَا حَضَرَنَا ذِكْرُهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ فِي فَضْلِ الرِّبَاطِ فِي سَبِيلِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –:

➡عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –: أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا...**» [صحيح: رواه البخاري، وأحمد، والترمذي؛ وغيرهم].

➡وَعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، يَقُولُ: «**رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؛ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ؛ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ!**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، والنسائي؛ وغيرهم]. قَوْلُهُ: (**وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ**) يَعْنِي بِهِ – وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ –: أَنَّهُ يُرْزَقُ فِي الْجَنَّةِ، كَمَا يُرْزَقُ الشُّهَدَاءُ الَّذِينَ تَكُونُ أَرْوَاحُهُمْ فِي حَوَاصِلِ الطَّيْرِ تَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ[قاله القرطبي في المفهم]، وَقَوْلُهُ: (**وَأَمِنَ الْفَتَّانَ**)أَيْ: يَأْمَنُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ، يَعْنِي: أَنَّ النَّاسَ إِذَا مَاتُوا وَدُفِنُوا أَتَاهُمْ مَلَكَانِ يَسْأَلَانِ الرَّجُلَ عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِيِّهِ؛ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْتِيهِ الْمَلَكَانِ يَسْأَلَانِهِ ...؛ بَلْ يَأْمَنُ ذَلِكَ! وَهَذَا فَضْلٌ عَظِيمٌ، وَأَجْرٌ عَظِيمٌ!! [قاله الشيخ الصالح محمد ابن عثيمين، في شرح رياض الصالحين].

➡وَعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُؤَمَّنُ مِنْ فَتَّانِ الْقَبْرِ!**» [صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والبيهقي في الشعب، والطبراني في الكبير، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٨٦٩١)، وصحيح أبي داود(٢٥٠٠)].

➡وَعَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّهُ كَانَ فِي الرِّبَاطِ، فَفَزِعُوا إِلَى السَّاحِلِ! ثُمَّ قِيلَ: لَا بَأْسَ، فَانْصَرَفَ النَّاسُ وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَاقِفٌ! فَمَرَّ بِهِ إِنْسَانٌ، فَقَالَ: مَا يُوقِفُكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟! فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، يَقُولُ: «**مَوْقِفُ سَاعَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ عِنْدَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ!**» [صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب؛ وصححه الألباني في الصحيحة(١٠٦٨)، وصحيح الجامع(٦٦٣٦)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٢٢٣)، والتعليقات الحسان(٤٥٨٤)].

➡وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِلَيْلَةٍ أَفْضَلَ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ؟ حَارِسٌ حَرَسَ [فِي سَبِيلِ اللهِ] فِي أَرْضِ خَوْفٍ لَعَلَّهُ لَا يَرْجِعُ إِلَى أَهْلِهِ!!**» [صحيح: أخرجه النسائي في الكبرى، والبيهقي في الكبرى، وابن أبي شيبة في مصنفه – وما بين المعقوفين له –، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٢٨١١)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٢٣٢)].

➡وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، يَقُولُ: «**عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ**» [صحيح: رواه الترمذي، والبيهقي في الشعب؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٧٥٦١)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٢٢٩)، والمشكاة(٣٨٢٩)].

قُلْتُ: وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ بِأَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَرَابِطُوا**﴾أَيْ: رَابِطُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ، أَيِ: انْتَظِرُوهَا وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ. وَاسْتُدِلَّ لِهَذَا الْقَوْلِ؛ بِمَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَأَحْمَدُ وَغَيْرُهُمَا، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟**» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ؛ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ!!**».

﴿وَاتَّقُوا اللهَ[٢٣٨]﴾ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – وَاحْذَرُوهُ أَنْ تُخَالِفُوا أَمْرَهُ أَوْ تَتَقَدَّمُوا نَهْيَهُ؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يَقُولُ: لِتُفْلِحُوا فَتَبْقُوا فِي نَعِيمِ الْأَبَد، وَتَنْجَحُوا فِي طَلَبَاتِكُمْ عِنْدَهُ.

۞۞۞۞۞

[٢٣٨] قَالَ بَعْضُهُمْ: التَّقْوَى: أَنْ تَقِيَ نَفْسَكَ مِنَ اللهِ؛ أَيْ: مِنْ غَضَبِهِ، وَسُخْطِهِ، وَعُقُوبَتِهِ! وَلَا يُمْكِنُ هَذَا إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ؛ وَمَعْرِفَةِ مَا يُرْضِيهِ وَمَا يُسْخِطُهُ، وَلَا يَعْرِفُ هَذَا: إِلَّا مَنْ فَهِمَ كِتَابَ اللهِ – تَعَالَى –، وَعَرَفَ سُنَّةَ نَبِيِّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَسِيرَةَ سَلَفِ الْأُمَّةِ الصَّالِحِ، مُطَالِبًا نَفْسَهُ بِالِاهْتِدَاءِ بِذَلِكَ كُلِّهِ.

فَمَنْ صَبَرَ، وَصَابَرَ، وَرَابَطَ لِأَجْلِ حِمَايَةِ الْحَقِّ وَأَهْلِهِ، وَنَشْرِ دَعْوَتِهِ، وَاتَّقَى رَبَّهُ فِي سَائِرِ شُئُونِهِ؛ فَقَدْ أَعَدَّ نَفْسَهُ بِذَلِكَ لِلْفَلَاحِ، وَالْفَوْزِ بِالسَّعَادَةِ عِنْدَ اللهِ – تَعَالَى –.

قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: إِلَى هُنَا انْتَهَتْ – بِحَمْدِ اللهِ – التَّعْلِيقَات عَلَى هَذَا الْمُخْتَصَرِ اللَّطِيفِ، وَاللهَ أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ عَمَلِي – هَذَا – خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ كَاتِبَهُ، وَقَارِئَهُ، وَجَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة.

وَوَافَقَ الْفَرَاغُ مِنْهُ – بِفَضْلِ اللهِ وَإِعَانَتِهِ – بَعْدَ عَصْرِ يَوْمِ الثُّلَاثَاءِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ اللهِ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَأَلْفٍ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى أَشْرَفِ الْخَلْقِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِمَامِ الْمُرْسَلِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

وَكَتَبَ/ أَحْمَدُ بْنُ طَلِيلٍ أَبُو الْفِيتَة

أَبُو حَمْزَةَ